لستُ أنا

رواية

لستُ أنا (رواية)

تأليف: "مظهر عاصف" أحمد عودة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ٤٣٩٧ /٨/٢٠١٩

ردمك: ISBN 978-9957-67-334-5

الطبعة الأولى ٢٠١٩م ١٤٤٠هـ

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف©

دار الجيل العربي للنشر والتوزيع

وسط البلد – شارع الملك حسين - مقابل بنك الإسكان

عمان – الأردن Amman - Jordan

خلوي ٠٠٩٦٢ ٧٩ ٨٧٨٩٥٩١ Mobile

e-mail: aljeelalarabi@yahoo.com

تصميم الغلاف والإخراج والإشراف الفني: محمد أيوب.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه أو استنساخه أو نقله، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونيّة أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

Copyright © All Rights Reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

مظهر عاصف

لستُ أنا

الطبعة الأولى

٢٠١٩

إهداء:

إلى مَن تنافستا كي أكونَ كما أريد، وتشابهتا رغم المسافات البعيدة والملامح المختلفة، فلم تأتيا من رحمٍ واحدة؛ بل سكنتنا عند ولادةِ القصيدةِ قلبًا واحدًا...

إلى ملك وحسناء...

مظهر عاصف

لماذا أنا؟ ... لماذا أنا تحديدًا؟

ويتكررُ هذا السؤالُ عند كلِّ اختيارٍ يقعُ علينَا دون غيرِنا؛ رغم انتمائنا بكلِّ ما فينا لثقافةِ الجموعِ؛ رافضينَ الفرديةَ خشيةَ أن يقعَ علينا الاختيارُ الأُحادي، وقد أكرِّرُه لا لأنني شقيةٌ؛ بل لتأثرِنا الدائمِ بما يشابهُهُ من أسئلةٍ يتلذذ التعساءُ بجلدِ حظوظهم بأسواطِها؛ متجاهلين على الدوام السؤال ذاته بجماليته - لماذا أنا تحديدًا؟- إن ميَّزنا القدرُ عن غيرِنا باختياره الاصطفائي قبلها أو بعدها. حمقاءُ مثلي كان بإمكانها لو فَكرت قليلًا أن تتجنب الكثيرَ من المتاعب والمكائد التي أحاطت بها، أو أوقعت نفسَها فيها؛ لكنني عاطفيةٌ جدًّا كما وصفني الراقدُ على سريرهِ أمامي بعدَ أن أنهكتهُ الأمراض، ونخرتُه الوساوس والمخاوف، وقد شارف على السادسة والثمانين؛ مُدرِكةً أن الرجلَ بشكل عام لا ***(أصلان)*** فقط يصفُ المرأة بهذا الوصف_أي العاطفيَّة_ إن أنَّبت نفسها كثيرًا أمامه، أو ظهرَ غباؤها بشكلٍ واضحٍ، أو بعد تفاعلات الشك والغيرةِ في نسيجِ حروفها له. أمَّا مَن حوَّل هذا السؤال _لماذا أنا تحديدًا؟_ لمرارة استمرت لوقت طويل فهو رجلٌ يدعى ***(العجّان)***.

العجّان الذي وقعتُ في فخِّه ونجوتُ بمعجزةٍ من أسنانه. أو لأكون أكثر دقةً عليَّ أن أقول: بل نجوتُ بمعجزةٍ من أسنانهم_أي هو وأولاده_ غير مصدِّقةٍ أن لم يمسسني سوءٌ بشريٌّ حينها؛ رغم أن السوءَ حاق بي من جميعِ الجهات... فقد بدا العجّانُ طائرًا في الهواء قبل أن يهبطَ كصخرةٍ على مقدمةِ سيارتي متأوِّهًا بشدة، لينهضَ متمايلًا متأوِّهًا بعدها شاتمًا البشريةَ قبل شتمي وعائلتي لدهسه... رفضَ الذهاب إلى المشفى، رفضَ المال، رفضَ تدخلَ المارة، رفضَ الرفضَ نفسه، ثم قبِلَ أخيرًا أن أحملهُ بسيارتي لبيته باكيةً معتذرةً له عمَّا جرى.

- ساعديني فما زلتُ أشعرُ بالدوار.

لمَ أر مسبقًا بيوتًا متلاصقة بهذا الشكل، وما دريتُ قبلها أن كلمة "بيت" اسمٌ نطلقه على الكثير من الأشياء المختلفة، تلك الأشياء التي لا تتشابه ظاهريًّا أو داخليًّا فيما بينها أبدًا، لتبقى مجردَ أسماء لا أكثر... أمسكتُ بيده بعدما وصلنا إلى مقصدِه؛ وسندته قليلًا بكتِفي بينما راح يمشي بخطوات ثقيلة نحو بابٍ صدئ؛ يفضي إلى ممرٍ طويل رُصِفَ بالقاذورات والأتربة، قبل أن يفاجئني ويسحبني عنوةً وبسرعةٍ قرديَّةٍ وندورَ في دهاليزٍ داخلية ضيقة؛ تهوي إلى شبهِ قبو يفضي إلى غرفٍ تُشعرك أنها مهجورة رغم أن ساكنيها أمامك.

وجدتُني صَيدًا له ولأبنائه فجأةً، وتأكدتُ فورَ إحكام قبضته فجأةً على يدي، وجرِّي للداخل أنني تعرضتُ لخديعةٍ ومؤامرة لم أتنبه لها لفرطِ خوفي ودهشتي مما حدث. ***{سيغتصبونني}*** قلتُ هذا سرًّا وانفجرتُ باكيةً متوسلةً أن يطلقوا سراحي؛ وقد قذفوا بي على الأرض... لم يكترثوا لشيءٍ مما قلتُه، ولم ينظروا لوجهي المذعورِ المدفون بين كتفيِّ جسدٍ راح يتسحَّبُ باضطرابٍ للخلف، ويرتعشُ من شدة الذعر في زاويةٍ قذرة خوفًا من الآتي.

- كفاكِ نباحًا فلن تسمعكِ الماما يا ماما.

قالها ملتفتًا نحوي بنصفهِ وقد حشا فمه بربع رغيف دفعةً واحدة، ثم وقد عدَّل جلسته مخاطبًا إياهم: سترني الله هذه المرة، كادت هذه المجنونة أن تدهسني حقًّا.

- في كلِّ مرةٍ تكررُ ذات العبارة و...

قطَعَ على ابنه ***(ميمون)*** كلامَه بصفعةٍ حذائيةٍ خاطفةٍ على وجههِ؛ شاتمًا أمَّه وأختَه ونساءَ العالمِ الثالثِ تحديدًا سائلًا إياه ببرودٍ بعدها:

وما الذي كنتُ أنتظره من ابن عاهرة مثلك؟ ثم تابَعوا تناولهم للعشاء كأن شيئًا لم يحدث بينهم. ***{لم يغسلْ يديه بعد مسكه للحذاء، مقزز}*** قلتها وشعرت بسخافةِ سؤالٍ لا ينبثق إلا عن بلهاء مثلي في هذا الوقت.

السؤال ذاتُه استنسخَ أسئلةً مخيفةً فرضت أشباحَها أمامي، ثم مرَّت تلك الأسئلة في ذهني على شكلِ صور مُتخيلةٍ متسارعة لثيابٍ ممزقة، وضحكاتٍ هستيرية، وصراخٍ لا يسمعه أحد، ودماءٍ تبدأ من أسفلي وتنتهي بأعلاي... هل هذا ما سيحدث فعلًا؟ أيعقلُ أن أكونَ الفتاة المفقودة التي سيجدونَ جثتها بعد أسابيعَ من اختفائها في مكانٍ وعر؟

- حطِّمُوا هاتفها واطحنوا الشريحة. ***جرَّتني هذه الجملة من غياهبي نحو الواقع كصفعةٍ مفاجئة لم أتوقعها.***

- والسيارة؟

- القناعة كنزٌ يا ابن الهبلة، هل تقبل لضيفتنا أن تعود مشيًا على الأقدام؟ ماذا سيقول التاريخ عنَّا لو فعلنا هذا؟

ضحك السائلُ فيما ظلَّ باقي أولاده الجالسين واجمين، واحدٌ منهم بصقَ عليه، أو فعلَ ما تمنيتُ فعله بهم جميعًا... حدَّثتُ نفسي وقد تصلَّبت فجأة وعزمت على النهوض، أو الهرب، أو البكاء، الحقيقة لا أتذكر ما أردتُ فعله سيما حين استغرب العجَّان من عدم محاولتي الصراخ الذي لن يسمعه أحد:

{هل؟ كلا، الخوفُ من منعَكِ مقاومتَهُ لحظةَ اقتادك عنوةً للداخل بعد أن تحوَّل فجأةً من مسنٍّ لثورٍ هائج، والخوف من يحرك الآن أمواجَ قلبك لرعشاتٍ ورهباتٍ، وعينيك لدموعٍ كي تستسلمي

لقدرك الذي تجهلين، بإمكانك الرفض والمقاومة، فإن كنتِ فريسةً للهنود الحمر فلتكوني فريسةً لهم بعد الموت}.

- انظر من بالباب؟ *قالها العجّان وهو يمسح يديه بثيابه وطرقات بعيدة جاءت على لسان الباب الخارجي.* ثم تابع: هذه طرقات ضيف لا طرقات اللعين ***(سيف)***.

لم ينتهِ من هذه الجملة حتى صاحب الطرقاتِ صوتُ رجال الشرطةِ، وخلعُ أبواب بعيدة وقريبةٍ خلال ثوانٍ فقط... ثم قال أحدهم بصوت عالٍ: "الفتاةُ في الداخل". هذه الجملة التي جاءت على لسان الرجل الذي لعنه العجّان مُستبعِدًا أن يحضُرَ طارقًا بابه، قبل أن تداهم الشرطةُ وكرهم ويتم القبض عليهم جميعا. قالها مرةً أخرى للتأكيد وقد اقتادت الشرطة العجَّان وابناءه فظنَّ سيفٌ أنهم لم يعثروا عليَّ بعد، لكنني ورغم أنني لم أره، أو لم أعرفه من جملةِ الوجوه الكثيرة التي كانت في الخارج؛ إلَّا أنني خرجت مُسرعةً فرحةً بعد أن اقتادوا أمامي زوجةَ العجان وابنته ***(شهد)*** بعد أدائهن المتقن لدورِ الضحيةِ لا الجلاد .

استبعدَ العجّان أن يحضرَ ابنه سيفٌ الغائب، حيث كان يقول هذه الجملة ممازحًا كلما طرقَ أحدٌ بابه، لكنه في النهاية طُرِقَ من سيفٍ ومن رجال الشرطة الذين أحاطوا بالمكان، واقتحموه في آن واحد. أمَّا "الفتاةُ في الداخل" فهي أجملُ عبارةٍ سمعتها من سيف هذا الذي قاده القدر بطريقةٍ لم أكن أعرف تفاصيلها لينقذني... لم أره قبلها ولا حينها ولا بعدها لكنني سمعتُ صوتَه فعلِقَ صداه بذاكرتي حتى هذا الوقت، أو هكذا تهيَّأ لي.

أعدت الحديث عن هذا المشهد العالق في ذاكرتي لمريضي الشاعر الراقد أمامي حتى هددني ممازحًا أن يقتلني إن كررته مجددًا، لكنني كررته وسط امتعاضه وحنقه قبل أن يصيح بي ضائجًا:

- أرجوك، ارحميني، أنت ملاك رحمةٍ لا عذاب، أنت تعذبينني بتكرار هذه القصة التي بدأت أحفظها عن ظهر قلب. *قالها وقد فرَغ من سيرهِ ذهابًا وإيابًا بين جدران الغرفةِ ليحرك مفاصله المتحنطة على حد تعبيره.*

- سأفعل إن صدَّقتَني. *قلتها ضاحكة.*

- بماذا؟ سأصدقك مهما قلتِ طالما لن تكرري قصصك هذه على مسمعي مجددًا. بماذا أصدقك؟ *استلقى على السرير ببطء بينما رحتُ أساعده على رفع قدميه.*

- بأن صوت سيف نسخة طبق الأصل عن صوتك. صوتُك وصوته من نبعةٍ نغميَّةٍ واحدة. لقد ظلَّ عالقًا في ذهني حتى الآن مع أنني لم أره، الحقيقة أنني أودُّ ذلك، لا أعرف سبب رغبتي بهذا رغم أنني لا أحب تذكر تلك الليلةِ، لكنني فعلًا أشعرُ بالفضولِ لرؤيته. *قلت هذه الجملة بسرعةٍ لدرجةِ أني شككتُ أنه قد فهم ما قلته لاختلاط الحروف ببعضها من شدةِ انفعالي.*

- رؤيةُ الضيفِ أم اللعين سيف؟ على حدِّ وصف عجَّانك هذا.

- رؤية الاثنين. *قلتُها بسرعةٍ وأشرتُ بيدي بالرقم اثنين مبتسمة.*

- لعلَّ سيفًا هذا تقصَّد تقليدَ صوتي لطمأنتك إذن، وقد عرَف أنك معجبةٌ بصوتي قبل شعري! *قالها ساخرًا.*

- هل تعتقد أن تذكري لصوتكَ وتساؤلاتي حينها دليل على حماقتي؟

- أظنها دليلًا على قوة شخصيتك، أو اكتشافك لقدرةِ حواسِّكِ الدفينة. قد أكون أنا من قال هذه الجملة فظننتِ بأنه سيف. *قالها ضاحكًا.*

- قوة؟ والرعب الذي تملكني وقتها؟! قد أبكي الآن لمجرد ذكرِ ما لم أذكره. *رحت أرفع ناحية السرير من جهة رأسهِ للأعلى كي يستريح.*

- إذن لا تتذكريه، بإمكاننا أن نبدأ؟

- قبل أن نبدأ، لم تسألني عن المرة الثانية التي قلت فيها لنفسي: لماذا أنا تحديدًا؟

- بالتأكيد عندما التقينا على متن هذه الجزيرة اللعينة.

- لنبدأ إذن. *قلتها غاضبة.*

لم يشأ سماع ما كررته على مسامعه ألف مرة رغم متعتي بتكراره، فتجاهلَ غضبي ناظرًا لساعةِ الحائط الرقمية المتوقفة التي تبدو جزءًا من الجدار، وتهيَّأَ كي يُملي على مسامعي الرسالة التي أراد كتابتها هذه المرة لزوجته... وضعَ يده على صدره قائلًا بصوتهِ الدافئ المنساب كجدولِ ماء بطيء، بينما رحت أنقر بسرعةٍ على حاسوبي ما يقولهُ:

- ***شيءٌ*** ما يلتهمني من الداخل مصرًّا على التهامِ ذاكرتي أثناءَ تآكلي. ذاكرتي التي حاربَتْ عواملَ التعريةِ النحسيِّة، والحثِّ الحظِّية بكامل قوتها لتصمدَ في وجهِ النسيانِ ثمانين عامًا على الأقل دون هزيمةٍ تُذكر... الساعة الآن يا عزيزتي تشيرُ للثانيةِ عشرة مساءً، وهي منذ أمدٍ طويل لم تتحرك ولم تحفِّز أرقامها وعقاربها على المسير؛ ومن مفارقات الحياة أن تختلف عناقاتُ العقارب كلما ابتعدنا في ساعةٍ تراقبُ الوجوهَ التي أحببت؛ عن عناقات ساعةٍ لا يراها غيري فوقَ مسرح الجدران الصامتة. يقولُ الأطباءُ المأجورون: إن أيامي معدودة، وتقول لي نفسي: ستحيا عامًا آخر. وما بين القولين أجدني مُرتعبًا من فكرةِ الموتِ؛ كارهًا تلكَ الحقيقةَ الحتمية.

لا أريدُ أن أدفنَ في الأرض. كارثةٌ أن يمدُّوني في حفرةٍ مهيلينَ عليَّ التراب لأكونَ جزءًا منه بعد ذلك. خُلقتُ منه ولا أشعر بالرغبةِ في العودةِ إليه مجددًا. دومًا أكرر كلما تخيلتُ هذه اللحظة:"سأختنق". ثم يتبادر لذهني ذاك السؤال فورًا: كيف ستختنق ميتًا؟! لو عرفتُ ماهيةَ الموت أساسًا لعرفتُ كيف أجيب عن هذا السؤال! لو عرفتُ حقيقته لما خفت منه، ولا من القبر، ولا من فكرة الاختناق ذاتها.

ما زلتُ تحت تأثير ذاك الرعب الوعظي لرجال الدين، هم من صوروا لنا القبرَ كغرفةِ تحقيقٍ معتمة في دائرة المخابرات؛ يُستجوب فيها المذنبُ والبريء بنفس القسوة. هم من جاؤوا بقصصٍ خرافيةٍ عن الثعابين الجائعة، وعن طرق التعذيب، والسلخ، وقلعِ الأظافر التي سنتعرض لها، ورغم أنني رافضٌ لفكرةِ عذاب القبرِ هذه مقتنعٌ أن الله وحده من سيحاسب البشر؛ ولا علاقةَ للملائكةِ الكرام بهذا الأمر قطعًا؛ إلا أنني سأعترفُ وإن كنت لم أعترف مسبقًا بهذا أنني أتساءل دومًا: ماذا لو كانوا محقِّين؟ هنا تحديدًا أضع يدي على رأسي يائسًا متمنيًا الفناء.

وجهُ والدي لم يزل عالقًا في ملكوتِ ذاكرةٍ يوميةٍ لا تغادرني مذ وُضِع في القبر. لم أستطع رؤيتهم وقد أهالوا عليهِ التراب، لكنني استطعت أن أضمَّه ميتًا وأشتمَّه وأتحدث إليه مودِّعًا. كان أديبًا مغمورًا يعملُ في شركةِ حسابات كموظفٍ بسيط، لم ينجب غيري لأن والدتي وبعد ولادتي المرهقة وشبهِ المستحيلة؛ خسرت ما يؤَّهلها لإنجابِ غيري من بنين رغم عشقه لهم، لم يقترن بغيرِها لأنه أحبَّها، أو لأنه نذرَ بعد ساعاتٍ من ولادتي - وقد أخبره الأطباء باحتمال هلاكي المبكر- ألَّا يفكر بغلامٍ آخر إن خيَّبَت إرادةُ الله ظنَّ الأطباء وعشتُ سليمًا معافًى، وهذا في النهاية ما حدثَ

وكان.
قالوا إن الدم الذي فقدتهُ بعد ولادتي بخطأ طبي سيقضي عليَّ بعد يومين على أكثر تقدير، لكنني خلَّصت نفسي من مخالب الموت سريعًا، واستردت عافيتي مؤكدًا للجميع بأنني من سلالة معمّرة لا تموت باكرًا بسبب نزيف غبي؛ أفقدني بعض وحداتٍ من الدم الطازج بعيد لحظات من بدء حياتي... علينا أن نصارع الحياة وتصارعنا حتى آخر لحظة كما أفعل أنا الآن، لكنه - أي والدي- من خيَّب ظني فقط حين مات مبكرًا وبشكلٍ مفاجئ. وقفت أمامَه معاتبًا إياه على هذا فلاموني على هذا العتاب فصمتُّ مُهشَّمًا أمام هذا الدرس العظيم المؤلم.

في الأربعين حسدتُ الموتى البوذيين على حرق أجسادهم. غبطت الذين يموتون غرقًا فتلتهمهم أسماكُ القرش، حسدتُ الذين يموتون بانفجارٍ يبعثرهم بالكامل فلا يُجمعُ منهم بعدها إلا أربطة أحذيتهم، ولأن هذا لم يحدث، ثم أُصبتُ بمرض ***(تيروم)*** في سجن الجزيرةِ كما يدّعون فكم أتمنى حقيقةً لو أنهم بعد موتي يفصلونَ رأسي عن جسدي، ثم يقومونَ بإلقائي في البحر... ستنزعجين لا محالة من تكراري لنفس الجملةِ التي بدأت بها وصيتي العلنية التي يعرفها الجميع، ولكنني سأكررها مرةً أخرى راجيًا منك أن تكرريها أيضًا على مسامعِ أولادي: "إن متُّ هنا وتسلمتم جثتي رغم استبعادي حدوث هذا، فلا تكرموني بالدفن فورًا كما نصَّت الأحاديث الشريفة، فأنا متقبلٌ وبكل قواي العقلية أن أضيفَ لآثامي الكثيرة هذا الإثم وأحاسب عليه. سأقول لمِن لا يُظلمُ عنده أحدٌ: يا إلهي كنتُ خائفًا فقط. مرتعبًا من هذه الفكرة، مؤمنًا أن الموت حق، والبعث حق، والحساب حق، ورحمتك أوسعُ من ذنوبي، لكنني خفت من غيبٍ يخيفني رغم إيماني المطلق به.

قولي لهم: أن يتركوني في ثلاجة الموتى ليومين فقط، وأن يتفقدوني كلَّ ست ساعات للتأكدِ فعلًا من موتي، فإن تيقنوا فليأخذوني ويضعوني في "الفسقية" التي اشتريتها مسبقا. أكِّدي عليهم أن يُرخُّوا الكفن عن جسدي، وأن يفتحوه من جهةِ الصدر والرأس. وتكفيني بعدها "الفاتحة" دون مواعظَ قبل أن يغلقوا عليَّ مرقدي الأخير ويغادروا... أقول هذا محاولًا أن أتعامل مع خبرِ موتي بطريقةٍ طبيعيةٍ متناسيًا واقعي المحيط بي. عمومًا عليَّ القول أن أكثرَ ما يحيرني بل ويغضبني حقيقةً هنا كيف باستطاعتي إن لم يعجبني شيءٌ أثناء الجنازة أن أعبر عن رفضي له؟ ولطالما تساءلتُ إن كان الميت راضيًا عن بروتوكولات جنازتهِ أم لا؟ وماذا لو حقَّ له أن يُبدي رأيه فيما هو ماضٍ إليه. لطالما ضحِكتِ من وصيتي ومخاوفي، ومن هذه الشروط الغريبة، ولكنني لم أخبرك مسبقًا أن مجرد سماعي لقصةِ ميت استيقظَ أثناء غُسلِه، أو وضعه في القبر، أو في ثلاجة الموتى كانت تصيبني بالذعر. ولطالما تساءلتُ: ماذا لو كنت أنا ذلك الميت؟

- بدأت أخاف الموتَ بسببك. *قلتُها مبتسمةً ببلاهة ودون وعيٍ مني رغم امتعاضه.*

- إذن لا تحبِّي الحياة.

- وإن فعلتُ أو غُرِّر بي؟

- لن تبتسمي حينها عند تذكره.

- سأبتسم دومًا.

- ابتسمي إذن ولا تقاطعيني مجددًا لو سمحت.

قالها ممتعضًا من مقاطعتي إياه، هازًّا رأسه تعبيرا عن تطفلي الدائم على أفكاره ووقته، ثم وبعد أن أغمضَ عينيهِ راح يُملي علي مرةً أخرى:

- *رغم* إيماني بأن جثتي أو رفاتي بعد موتي لن تخرج من هذه الجزيرة، ولن تروها قط؛ غير أني لا زلت آملُ أن يتسنى لي ولكم ذلك، فقد أُخبِرتُ أن المساجين الموتى هنا يتمتعون بعد موتهم بحقٍّ لم يحصلوا عليه في حياتهم، وهو السماحُ لهم بمغادرة هذه الأسوار سريعًا، وإبلاغ ذويهم مباشرةً بأن ميِّتَهم كان سجينًا مفقودًا لديهم. وإن لم يحدث هذا أيضًا، فقد تتولى ممرضتي عناء إخباركم بهذا يومًا ، لكنَّ حتى "قد" هذه تفيد التشكيك لا التحقيق بسببِ ما يحيط حياتنا وموتنا في هذه الجزيرة من إبهام. هذا الواقع الذي أضاف لمخاوفي مخاوفَ جديدةً لتخلِّفَني كالمستجيرِ من الرمضاء بجهنمَ ذاتها.

مخاوفُ الموت كما تعلمين لم تكن بسبب طفولةٍ بائسةٍ، أو ذكرى خاصةٍ بموت أحدهم انتجت هذه العقدة، بل هي نتيجة أفكارٍ وتأمُّلٍ في فلسفات الحياة والموت، ففي العشرين لم أخشَ هذه الفكرة بتاتًا لا لأنني لم أفكر بها؛ بل لأنني لم أتأملها كما يجب.
عزيزتي:
تنقرُ بدلًا عني لكتابة هذه الرسالةِ على أزرارِ الحاسوب الآن ممرضة حسناء رقيقة تدعى *(ريم)*. وهي ممرضةٌ بقلب دافئ قادها حظها العاثر أيضًا لتعمل في مشفى جزيرة الشياطين هذه، هذه التي تقعُ في أدنى الأرض؛ والتي لم أتوقع يومًا أن يصارعني الموتُ مجددًا بشدَّةٍ في إحدى مشافيها اللعينة، أمَّا هي فلم تتوقع أيضًا أن تعملَ ممرضة في مشفى كهذا يقع في سجنٍ كبيرٍ اسمه *(سنبار)*.
- أعجَبني الوصف، يسعدني هذا. *ضحكتُ هذه المرة*.

- وصف الجزيرة؟

- وصفي كحسناء رقيقة.

بدا عليه الامتعاض مرةً أخرى، فتظاهرتُ بتشكيل بعض الحروف على الحاسوب، كيلا يوبِّخني ثم تابعَ بعد أن أفَّ لمراتٍ متتالية:
- *ما* إن حدَّثتها في قسم دخول المرضى بعد أن قادوني من السجن وقد ساءت حالتي؛ حتى قرأتُ في ملامحها وتعابيرها أنها عرفتني، لم أتصور أن يتعرف علي أحدٌ في هذا المكان، في جزيرة سنبار اللعينة، أي في الجهة الأخرى المظلمة من العالمِ أبدًا، أما المشفى فهو سجنٌ آخر شبيهٌ بالذي جاؤوا بي منه لكن تحت مسمى: مشفى. ورغمَ ذلك فهي الوحيدة التي تراني كما كان يراني الناس في وطني... قلتُ لها على الفور بعد أن شعرتُ بأنها ربما تصدقني وقد كذَّبني الجميع: نعم أنا الشاعر ***(أصلان باكير)***.

لم أصدِّقه بدايةً لكنني لم أستطع تكذيب أذني التي باستطاعتها التقاط صوته من بين كل أصوات الشعراء، بل والرجال أيضًا. لم أصدقه لأنني رأيتهُ كإحدى معجباتهِ من قبل مرارًا آخرها قبل خمسِ سنوات، نعم بدا حينها غريبًا وشاردًا بعض الشيء على المنبر؛ لكنه لم يكن على هذه الحالةِ قطعًا، فقد رأيتُ أمامي وجهًا وجسدًا مشوَّهًا تسكنُ فيه الأمراض قبل الحروق.

كنتُ قد احتفظتُ بالكثير من أشعاره صوتًا وصورةً في مكتبتي الرقمية؛ سيما وأنني من المعجبات بشعرهِ حدَّ الثمالة... طلبت إليه أن ينشد بعضًا من قصائده لأتأكد من شخصه على خجلٍ وحياء مني ففعل؛ لا رغبةً بالتعريف عن نفسه، بل لأنه بحاجةٍ لاسترداد ذاتهِ عبر تنفيسِ غضبهِ شعرًا ؛ وبتقنيتهِ الأدائية تمامًا مع ابتسامةٍ لم تفارقه، وكأنه يتحدث لطفلِه المشاكس.

- أنا من قرَّائك، من عشاقك، من المتيمين بك، بل في الحقيقة أنا من أشد المعجبات والمولعات بك.

قلتها بثقة مع أن ملامحه الجديدة التي خلَّفها انفجارٌ وحريق لا تدل على أنه ذات الشاعر الذي أعرفه. صوتُه قد يدل عليه. عيناه الناعستان مَن الممكن أيضًا أن تدلا عليه رغم أنه لا يفتحُهما إلا نادرًا، وكأنه يومَ سُجن ارتضى أن يُحبس في ذاتهِ أولًا قبل جسده. نعم فالحرب العالمية الثالثة قد قلبت أوراقنَا بالكامل. قلبت أوراقَ أوطاننا، وأوراقه، وأوراقي أيضًا حينَ أجبرتني على العملِ في مشفى الجزيرةِ القميء هذا. والحرب مَن أودعتني هذا المشفى الذي استدعتني إدارتهُ على عجالةٍ؛ وأوكلت لي مهمةَ العنايةِ بسجينٍ مسن يعاني من مرضٍ نادر يدعى تيروم، قيلَ لي: أنه لا يتحدث،

وأن أيامه معدودة فقد نُقل من سجن الجزيرة إلى مشفاها بناءً على ضغط من منظماتٍ حقوقية لا أكثر، مع أن هذا لا يحدث عادةً في مجتمعٍ لا يحترم الإنسان حيًّا ولا ميتًا، لأتفاجأ أن مريضي هو شاعري الأول الذي لا يعرفه ولا يعترف بشخصيته الحقيقية أحد هنا، ورغم أنه يومَ تمَّ القبض عليه في عرض البحر أقسم أنه الشاعر المشهور لكنَّ أحدا لم يصدقه، بل اعتبروه مجنونًا ساخرين منه.

لماذا أنا تحديدًا؟ سؤالٌ يخطر لي فَرِحةً لحظةَ تذكري بأن الرجل الذي يُملي علي أفكاره مِن على فراشه هو الرجل الذي تمنيتُ لقاءه طوال عمري؛ غيرَ مصدقةٍ أني التقيتُ به وجلستُ بجانبهِ، بل وطلبَ إليَّ أن أكون الشاهدة الأخيرة على حياته ممليا عليَّ بعض نصوص ورسائل أساعده بطباعتها وحفظها؛ لإغلاق الكتاب الأخير في مسيرة حياتهِ حسب وصفه... كنتُ قبل لقائه بدقائق أنشدُ شعرهُ مترجمًا على مسامع زملائي: ***(سيلا ودن وباف)***.

- هل باستطاعتك المشي؟ ***قلتها" بالسنبارية" ظنًّا مني أنه من سكان الجزيرة.***

- مريضك عربي، بإمكانك أن تتحدثي لهذا اللعين بلغتك إن قبِلَ الحديث إليكِ. ***قالها الجندي السنباري الذي قاده إلى المشفى.***

لم أتحدث العربية هنا منذ جئت إلا نادرًا مع الهندي دن، لكنها المرةُ الأولى التي أقابل عربيًّا في مشفى الجزيرة، مما دفعني للتساؤل بفرحة: أنت عربي؟! لم يُجب بدايةً لكن لمعة في عينيه، وابتسامته الغامضة دفعاني لأن أطيل النظر إليه بفضوليتي الرعناء... نظر إليَّ بعدها نظرة تخلو من أي تعابير ودهشة، ثم نقلها لوجهِ ***(سيلا)*** قليلا قبل أن يعيدها نحوي بهدوء. قلت في نفسي: ***{ أعرف هذا الرجل، التقيته يومًا في مكان ما}***.

- هل أنت عربي؟

- ومن موطنكِ أيضًا.

- من موطني؟! إذن تعرفني.

- بل أعرف وطني.

لم يستطع أن يقنعَ المحققين الذين حققوا معه على عجالة قبل إيداعه السجن بتهمة ملفقة؛ بأنه ذاك الشاعر الذي اختفى في بداية الحرب دون أن يعرف أحدٌ مصيره، رغم أنه أشار معترفًا بأنه أحد أهم المطلوبين لدولتهم. قال لي: بأنهم لم يُحضِروا مترجمًا ليفهموا ما يقول، قبل أن يجبروهُ على التوقيع على ورقة التحقيق التي كُتبت بلغةٍ لم يفهمها. لم يكلفوا خاطرهم عناء فهم ما يقوله هذا المُسِن من بداية الأمر لأنه لم يساوِ عندهم الملابس التي يرتديها. اعتبرته القلة القليلة ممن فهموا لغته العربية أنه مجنون يبحث عن أسرع طريقةٍ مضحكةٍ وغير منطقيةٍ للموت كي يتخلص من جحيم السجن؛ فطلبوا من السجناء الآخرين أن يعترفوا أيضًا بمثل اعترافه، وينتحلوا شخصياتٍ مشهورة أيضًا لتكتمل الأحجية... صمت لسنتينِ تمامًا في زنزانته بعدما فقد اتصاله بالعالم الخارجي قسرًا؛ بعد أن قاده حظه العاثر مصادفةً ليقع في يدِ دولةٍ صغيرة؛ كان لها الدور الأكبر بتمديد فترة الحرب، وإشعالها كلما هدأت. انتظرَ الموت في زنزانته داخل سجنٍ يُعدّ أول منازل القبر قبل الموت، أو المرحلة الأهم التي يتمنى فيه السجين الموت لكي يتخلص من عذاباته فيه، ثم ظلَّ صامتًا مُتقبلًا أن ينادوه ب ***(معروف)*** وفقَ الهوية التي وجدوها بحوزته ليلةَ القبض عليه في البحر. لم يصدقه أحد أيضًا في هذا المشفى بعد نقلهِ بمعجزةٍ إليهِ حين أنكر أنه معروفٌ هذا؛ رغمَ إصراره بأنهُ الشاعر الذي اختفى

بعد نجاتهِ من انفجارٍ في ***(بنغازي)*** شوَّهه بالكامل طامسًا أغلب ملامح وجههِ وجسده ..

- نعم كانت تلك أمسيتي الأخيرة في بنغازي حين حدث الانفجار. ***قالها أصلان متألمًا مستحضرًا هذه الجملة من روحه لا من ذاكرته .***

- تقصد قبل ثلاث سنوات؟ ***سألته لحثّهِ على الكلام فقط.***

- إلَّا قليلا، تقريبًا، وجدتُ نفسي بعدها في مشفى بنغازي وقد راح طبيبٌ يسألني عن اسمي فلمَّا عرَّفته بنفسي ضحك بشدة ثم تظاهر بأنه يصدقني قائلًا: وبماذا تشعر الآن يا أستاذ أصلان؟ ولم أكن حينها قد اكتشفت أنني نجوتُ بأعجوبة من الموت، وأن الانفجار شوَّه ملامحي بالكامل؛ فلم أعد أعرفني إن نظرتُ إلي.

- ومعروف؟

- أظنه أحد ضحايا الانفجار، وقد تكرَّم علي مشكورًا ووضع قبل موته بطاقته في جيبي. ***قالها ضاحكًا أو مخفيًا عني أشياءَ لا يريد لي فهمها كعادته .***

- ورضيتَ باسمهِ وببطاقته بعدها؟ ***تساءلتُ مع أنني لم أصدق هذه الجزيئية يومًا في حديثه؛ سيما أنه كان قد أملى عليَّ مُسبقًا ما يؤكّد أنه قابل معروف هذا، بيد أني لم أستطع الافصاح عمَّا يجول في داخلي حينها .***

- لم يصدقني أحد سيما وأن بعض الأخبار ذهبت تقول: بأنني هربتُ قبل الانفجار بدقائق واختفيت، وبعضها قالت: إنني قتلت وحرقوني ورموا بقايا جثتي في البحر، وأخرى وأخرى.

- كنت أشعر بأنك حي.

- إن اعتبرتِ أنني حيٌّ الآن فأنت صادقة، أظن أنني مت يومَ لم أستطع الحديث والتعريف بنفسي بداية الأمر في مشفى بنغازي، ثم يوم خشيتُ من الموتِ في تلك المدينةِ متنكرًا لشخصيتي ثلاثة

أشهرٍ على الأقل، بعد تـأكدي بأنني المستهدف في ذاك التفجير، وأن الجناة ما زالوا يتوعدون الشاعر الزنديق - من وجهة نظرهم - لقتله، فانتحلتُ الاسم والتزمت الصمت منتظرًا شفائي والعودة إلى وطني، لكنني وجدتُ نفسي بعدها صامتًا باسمٍ مستعار وعند من؟! عند من يطالبون برأسي جهارًا نهارًا!!، أولئك الذين ما إن وقعتُ في أيديهم حتى رفضوا تصديقي أو فهمي، بل واعتبروني رجلا مجذوبًا لا قيمة له... وها أنا في هذه الجزيرة مصابٌ بمرضٍ يمنعني أن أموتَ كما أشتهي، لن أنكر أن الخوفَ فرضَ نفسه في النهايةِ وأقنعني أن أتشبثَ بالحياة مهما كانت مجّانية ودونما قيمة تذكر، لكن الأملَ وحده من جعلني بعدها أقبل بالتستر بشخصية معروف. هو جبنٌ لا مفر منه حتى في جحيم السجن، لأننا ورغم كلِّ شيءٍ نتمسك بوهم الأمل عندما نشعر بعدم فقدانه.

- بين شاعر معروف وبين معروف مفارقة غريبة. *خرجت مني كتنهيدة*.

- بين الإنسان الذي يملُك أمره، وبين من تملكهُ الظروف تمامًا مفارقةٌ أغرب.

ولأنَّ المشفى تابعٌ إداريًّا للسجن، سيما ونحن في حالةِ حرب لم تنتهِ بعد فقد مُنعنا من الاتصال الخارجي مع أيِّ جهةٍ خارجية ولأي سبب، خوفًا من أن يكون بيننا عميلٌ أو جاسوس أو معادٍ للجزيرة وسياساتها القمعية. هي الحرب وفلسفتها من تحكم الزمن والأمكنة حاليًا ولا مناص من الرضوخ لها.

فما إن وصلنا للمشفى من أوطاننا البعيدة المتفرقة كموظفين عبر الحيلة والخديعة التي تعرضنا لها، حتى فقدنا اتصالنا بالعالم الخارجي، ومُنعنا بالكامل من الإدلاء بأية معلومةٍ ولو تافهة عن حالةِ أي مريضٍ أو زميل من كادرِ المشفى لجمعيات حقوق الإنسان أو المنظمات الدولية، والتي كانت بالعادة منحازة لنظام الدكتاتور الذي حكم الجزيرة؛ لذا فقد اقتصرت معظم أسرة المشفى على أسرى الحرب، والقليل منها على سجناء الصدفة من هنا وهنا، والذين اتهموا بتهم باطلة لسبب بسيط وهو: أنهم ليسوا سنباريين فقط، في الوقت الذي تمتَّع الموظفون السنباريون بحقوقهم الكاملة خارج أسوار المشفى؛ لذا عُوملنا نحن الغرباء كمساجين بدرجةٍ مميزة حيث لم يُسمح لنا إلا الانتقال بين المشفى وسكن الموظفين؛ حتى انتهاء مدة العقد الذي خدعنا يوم وقعنا عليه فرادى؛ وفي أوطان وأزمان مختلفة كما اقتضت ضرورة وجودنا في المشفى.

لم أستطع فعل أي شيءٍ له، لأنني لم أستطع فعل أي شيءٍ لي بالمقابل، فأنا سجينة مثله بثوب ممرضة. سجينةٌ انقطعت عن ذويها وأهلها وعالمها البعيد في الوطن بالكامل ما إن حطَّت قدماها أرض هذه الجزيرة. ***{لعل أمي وزوجها (جاد) وضعاني على قائمة المفقودين أو المخطوفين في هذا العالم البائس}.***

كثيرًا ما طالبني بحذف ما يمليهِ علي حين أعيده بصوتي على مسامعه، لذا لم أحتفظ ولو بنصٍ واحد على حاسوبي خلال أوَّلِ أسبوعين؛ غير أني رحتُ أحتفظ بعدها سرًّا بجميع ما يقوله على اعتباره كنزا قادما... احتفظتُ بها في ملف يحمل بعض تفاهاتي الكتابية ومحاولاتي اليائسة الأدبية من خواطر ومذكرات وأشعار رديئة، بعدما سمحت لي إدارة المشفى بالاحتفاظ بحاسوبي الشخصي طالما أنه لا يشكل وسيلة للاتصال بعالمنا الخارجي، ناهيك أنهم اعتبروا شاعري مشعوذًا قد يتحول غضبهُ منهم للعنةٍ قد تصيب أحدهم كما حصل مع زميلنا باف الذي فقد عينيه فور إغضابه أصلان، لتحلَّ لعنته مباشرةً عليه في اليوم التالي وفق مزاعمهم.

اعترض يومًا على علامتي التنصيص هذه **{ }** حينما كنتُ أُكثر من استعمالها لحديث النفس أو الاستبطان الداخلي، كجمل مهمة تتخلل السطور بعشوائية ضمن خربشاتي. لم أكن طبعا مقتنعة بما أكتبه وهذا أمر طبيعي؛ بيد أنه من غير الطبيعي أنه بدا غير مقتنع بأسلوبهِ بعد توقفه عن الكتابةِ سنتين ونصف قائلًا ومرددًا دومًا:"يبدو أنني فقدت مهارتي في الكتابة، أو أن القلمَ شاخ مثلي".

ثم وبعد أن يصمت طويلًا باديًا عليه الحزن يسألني ذات السؤال:

كيفَ لقلمي أن يقتنع بأنني أصلان ولست معروفًا؟

أضحكني هذا السؤال بادئ الأمر، لكنني رحت أثنيه عن تكراره لما ألمس من أنين فيه، قائلةً عقب هذه الجملةِ دومًا: "جميع ما تكتبهُ في غاية الرقة، لا أعلم ما سبب إصرارك على أنه لا يليق بك رغم جماليته وعذوبته".

كررتها أيضًا كلما طالبني بحذف نصوصهِ؛ مع أنني كنت أحيانًا ألمس ركاكةً غريبة فيما يمليه علي، أو بعض التناقض في الأحداث التي يستحضرها من ذاكرته، لكنني استمعت وكتبت فقط دون

الالتفاتِ لتناقضاتهِ. أحيانًا كان يسألني عن المدة التي قضاها في غيبوبته رغم أنه لم يدخل في غيبوبةٍ أصلًا! وأحيانًا كان يتحدث لي عن البارحة رغم أنه دخل في غيبوبةٍ لأسبوع على الأقل. يتحدث بعيون وطريقةٍ تُشعرك أنه جاء من كهفٍ مظلم، أو من داخل بئرٍ لبث فيه بضع سنين. لم أستطع مصارحته بأن العمر، والمرض، والذاكرة، والأحداث، والحرب قد تلتهم الإنسان فكريًّا من الداخل كما التهمته تعبيريًّا من الخارج، وقد تشرب الحبرَ في القلمِ الفتيِّ قبل المسنِّ منه -إن أرادت- تاركةً له بعضَ قطراتٍ ليرثي نفسه بها، فكيف به هو وقد تعرَّض للسجن والتشويه، والطمس أيضًا؟!

جلستُ بجانبه مبتسمة رغم أنه لم يرد على تحيتي المسائية؛ محدِّقًا على غيرِ عادته بساعةِ الحائط التي توقفت عند الثانية عشرة، مذ طلب مني أن أوقفها عند هذه الساعة تحديدًا، ثم تساءلت إن كان ينظر فعلًا للساعةِ أم أن عينيه تتجهان نحوها بشكلٍ لا إرادي؟

- الوقتُ هو ما نشعرُ به، الساعات هذه وُجدت لكي يحتكِمَ الناسُ إليها في معاملاتهم، لا لشعورهم الحقيقي بصدقها. يبدو هذا عادلًا ومجحفًا في آن واحد. ثم إنه تحتَّم عليهم ألّا يضعوا ساعةً أمام المريض في غرف المرضى كجزءٍ من جدرانها غصبًا بحيث لا يستطيع المريض قلعها وقذفها من النافذة.

- لم ترد التحية. قلتُ: "مساء الخير" خمس مرات، ولكنك لم ترد.

- بل أربعا فقط.

- ولماذا لم ترد.

- لأنني لم أسمع.

هذه طريقته التي تدفعك للحيرةِ ونعته بالغريب، وأسلوبه الذي تتعجب منه كلما عاملك به بلا سبب، ولأنني اعتدت على هذا فلم أعد أغضب منه.

- هل ستحذف نص البارحة أيضًا؟ *سألته بعد أن جلستُ في مقعدي بنشاطٍ بجانبهِ وشغَّلتُ حاسوبي.*

- سأسمعه منك أولًا كي لا يعجبني؛ لأقول لك: احذفيه ولنبدأ من جديد، هل تسمحين بالقراءة؟

- شيءٌ ما يلتهمني من الداخل مصرًا على التهامِ ذاكرتي أثناء تآكلي...

- يكفي، سأكرر نفسي مجددًا من خلال هذا الموضوع، هي تحفظ وصيتي أكثر مني؛ ثم من الجنون أن أوصي بشيءٍ لا أعتقد بحدوثهِ وتحقيقِ أبسط ما فيه، ناهيك أن جثماني سيصل إليهم متعفنًا فلا حاجة لهم بوضعه في ثلاجةٍ ولا خزانةٍ حينها.

- أعدكَ بأن...

- لا تكملي، الظّلَمَة لا يُجبرون على شيء. *قاطعني رغم حماسي.*

نعم لم يكن البر بالوعدِ سهلًا في جزيرةٍ يحكمها ديكتاتور ترَك لعصابته التحكم برقاب الناس. ديكتاتور أنفق مليارات الأموال على الجيش، والتسلح الضوئي، والسجون بكرمٍ باذخ بينما بدا بخيلًا دون ذلك.

لم يكن سهلًا لأنني وجدتُني هنا بعد عقدِ عملٍ بأجرٍ كبير، غير أني وككلِّ الأطباء والممرضين وجدتُ نفسي أمام حقيقةٍ لا يمكن الخلاص منها وهي: أننا عبيدٌ جدد قِيدوا للعملِ خداعًا؛ فلم يعد لديهم الحق بالرفض، أو المغادرة، أو الاعتراض حتى. كلُّ ما علينا فعله هو أن نعمل وندَّخر رواتبنا حتى تنتهي الحرب، لنعود إلى أوطاننا إن سمحَ لنا بذلك أسوةً بأولئك الذين انتهت عقودهم وغادروا... شكَكتُ بأمر الخديعةِ قبل تأكدي منها فقط في الطائرة التي لم تهبط بعد ست ساعات في ***(جنيف)*** كما قيل لي بعد توقيعي للعقد أو الفخ المتقنِ بأيام؛ بل بعد أيامٍ وعبر عدةِ مطارات في جزيرةِ سنبار التي اقتادني منها للمشفى ثم سكني -وقد رفضتُ النزولَ- جنودٌ مرتزقة، ومترجمٌ عربي بالقوةِ الناعمة.

- هذه غرفتك وسيحضرُ المسؤول لكي تستلمي مهامك في صباح الغد. *قالها لي أحدهم بلطافةٍ آمرة مقيتة كوجهه*.

لم أتحدث لغتهم الهجينة من قبل، لكنني تعلمتها بسرعة بعد وقوفي على الحقيقة الكاملة وهي: بقائي هنا قسرًا حتى انتهاء العقد أو ربما الحرب. قناعاتي هذه ورضوخي للحيلة أمرٌ واقعي استسلمتُ له كالجميع في المشفى؛ أي كالجميعِ الذين تعرضوا للمكيدة ذاتها .

- هذا عقد سنوي قابل للتجديد للعمل في مشفانا في جنيف. *قالها من خدعني في وطني بربطة عنقه وبدلته الأنيقة*.

قدَّم الورقةَ فوقعتها فرحةً على الفور فاستطاع الإيقاع بي بسهولة، سيما أنهم استطاعوا أيضًا صيدَ العقول الفذة من جميعِ أنحاء العالم ثم سجنهم بطريقةٍ حضارية، بل واستطاعوا إقناعَ المجتمع الدولي المنحاز لهم عندما رفضنا العمل فور وصولنا واكتشاف الخديعةِ أن عقود العمل سليمة، وأنهم سيسمحون لنا بالمغادرة بعد انتهاء العقد فورًا، أي بعد ست سنوات بناء على عقدهم المزيف.

- إذن كنتِ ممرضةً بارعة في الوطن؟ *جاملني أصلان لا أكثر بهذا السؤال*.

- أظنهم كانوا واهمين حينها، لا أتذكر أني برعتُ في شيءٍ يومًا إلا في الحمق والسذاجة، لو لم أكن كذلك لما خدعوني بهذه البساطة.

كنتُ أعلم أن سبب اختيارهم لي من بين مئةِ شخص تقدم للوظيفةِ في الوطن جاء نتيجة براعتي في التصوير ***(النانـي)*** وتعاملي مع جهازه الحديث بإتقان فريد، لكن حماقتي من أوقعتني في أسرهم الحضاري، وإذ رفضتُ العملَ مصرةً ثائرةً على خداعهم أوكلوا لي مهمة الاعتناء بالسجناء شبه الموتى عقابًا لكرامتي كممرضة

عنيدة ***{ تستطيع الاعتراض بدايةً لكنَّك لا تستطيع الاستمرار به بعد أيام}.***

خدعوني بورقة تحملُ بنودًا مزورة على عكس العجّان الذي خدعني بكلماتٍ بسيطة. عشرة أعوام فصلت بين الخديعتين؛ لأقرَّ ما بيني وبيني أنني حمقاء متسرعة... قال لي أحد المارة حينها: هذا الرجل كاذب فقد رمى بنفسه عامدًا متعمدًا أمام سيارتك، لقد شاهدته بأمِّ عيني، إياك أن تتركيه يستغلك.

- لعن الله أمَّكَ على أمِّ عينكَ يا ابن الاستغلالية. ***قالها العجّان وهو يرفسُ بقدميه من الألم الأرضَ والهواء كديكٍ مذبوح.***

بدا ممثلًا بارعًا فكذَّبتُ عيني والقائل محاولةً إسعافه. كدتُ للحظةٍ وقد شعرت أن أنفاسه انقطعت أن أجري له تنفسًا اصطناعيًّا. لكنني جثوتُ بجانبه ورحت بخبرتي التمريضية أفحصه بعناية مساعدةً إياهُ ببطء على النهوض. عندما هدأ راح يتكلم بلطفٍ وودٍّ كبيرين، ثم اعتذر لي عن شتائمه وغضبه شاكرًا الله على أنه لم يتعرض لأذى.

- أتحمَّل مسؤولية هذا الخطأ، لقد أثقلتني الهموم يا ابنتي فلم أنتبه للطريق. اعذريني لترويعك، أرجوكِ. ***قالها العجّان بدفءٍ غريب جعلني بعدها أتعاطف مع ظروفه السيئة التي راح يقصها علي بالمجان.***

هذا الدفء هو كلُّ ما كنت أحتاجه طوال عمري ولو خِداعًا، فمذ طار والدي على أكتاف أولئك الرجال إلى محطته الأخيرة؛ وأنا أحيا في صحرائي الباردة. منذ ذاك الحين وأنا أعيش في تناقضات الأبوة والرجل، فتراني أكاد أتمنى أن أحظى بعناق من رجل مسن كي أشتمَّ عواطف أبوته وحنوّه، وفي ذات الوقت أشعرُ بالتقزز من هذا الشعور المريض.

في أحد مشافي الوطن غمرني مسؤولي المباشر***(أبو سند)*** بالعطف وعاملني كابنته. راحَ يُكثر لي من الدعاء والهدايا مُشجِّعًا إيّاي على تطوير نفسي وشهادتي حاثًّا باستمرار على هذا. لطالما خصَّني بلطفهِ رغم حزمهِ وقسوته مع الآخرين، إذ لم يكن متساهلًا مع أي هنةٍ بسيطة في العمل والسلوك فتراه يضخِّمُ الأمرَ معاقبًا ومحاسبًا بصرامةٍ جعلت منه رجلا مهابا ليس في مشفانا فقط، بل وفي جميع المشافي التي لم يدخلها يومًا. المدراء المسؤولون عنه كانوا يرتجفون من شخصيته القوية الحادة وانضباطهِ المبالغ فيه، ووحدي من حظيت بودِّه نافيًا أن يكونَ سبب هذا بدانتي التي تهامسَ البعضُ بأنها السرُّ بتعامله معي دون غيري بهذه الطريقة الأبويَّة، بيد أنهم لطالما ردَّدوا بأنه يشفق عليَّ ليردَّ على همساتهم الخائفة بمنحي ما لا يمنحهُ لغيري من محبةٍ واحترام.

لكنَّ المحبة والاحترام لم يشفعا له عندي عندما رأيته يعانق ابنتهُ في حفلِ زواجها الذي دعاني إليه... رقصَ معها وعانقها وقبَّلها ودمعت عيناه، بينما دمعت عيناي قبل أن ترخي العنان لدموعها بالجري على خدي؛ لأنني لا أمتلك أبًا يحمل كل هذه العاطفة تجاه ابنته كما فعل في تلك اللحظة. أخرجتُ من حقيبتي- وكأنني خططت لهذا مُسبقًا - مادةً سريعة الاشتعال أنظف بها طلاء أظافري وسكبتها على شرشف الطاولة؛ قبل أن أشعلها من الأسفل دافعةً إياها لتلتصق بستائر صالة الأفراح الطويلة، وأنتقلَ سريعا لطاولةٍ أخرى وأجلس عليها... بعد دقيقةٍ فقط بدأ الصياح والصراخ يُعزف من أفواه الحمقاوات اللائي يحاولن دوما الظهور بمظهر الخائفات الحساسات من أي شيء ولو لم يكن مخيفًا.

اندلعت النيران بالطاولة والستارة قبل أن يهرعَ موظفو الصالة ويطفئوا الحريق بسرعة عجيبة؛ وكأنهم رجال إطفاء لا موظفو

صالة أفراح... شعرتُ بالحمق بعد أن هدأ الجميع متضاحكين لاعنين الأطفال على هذه الأفعال الشيطانية مع أن الجميع برَّؤوا أبناءهم من هذا العمل. ***{فأبناؤنا دومًا على حق}***.

استأنفوا الحفل كأنَّ شيئًا لم يحدث قبل أن أذهب مبتسمةً مباركةً للعريسين وللأب متمنية لهم السعادة؛ لاهجةً بالدعاء والثناء كذبًا وزورًا... كدتُ أموت حنقًا وأنا جالسة بعد أيام في القسم مشاهدةً أبا سند يحدث بعض الموظفين برزانته المعهودة عن ابنته وزوجها وحفل زفافهما، قبل أن يشيرَ نحوي معتبرًا إيّاي ابنته التي لم ينجبها قائلًا للجميع: "هذه ابنتي أيضًا بثوبها الملائكي صاحبةُ القلب الطيب والحاني"، حتى إذا تحدثنا معا وحدنا اعتبرني ممرضةً عاطفية تحتاجُ للحزم في كثير من الأحيان كي لا يستغلها الآخرون... هو النعت ذاته الذي ينعتني به أصلان أيضًا مصرًّا على براءتي من الحمق، رغم أنه لا يحتمل شطحاتي المضحكة ممتعضًا منها على الدوام. لذا غضبتُ حين راح يكررها قائلًا:

- لعلها تضحككِ وحدك فقط رافضةً الاعتراف بأنها قد تزعج الآخرين.

- لكن الجميع هنا يضحكون لمداخلاتي وخفة ظلي.

- لعلهم يريدون ذلك، بالتأكيد أنتِ أرحم من السجن الذي يحيون فيه. *قالها مُبتسمًا*.

- ولعلَّك تمقت الابتسامة فتصمت عن الحركة فلا تشعر بالسعادة مثلهم.

- هو احتمال. لكنني ما دمتُ أمقتُ شيئًا فهذا يعني أنني أحب الضد، وإن كان ضدُّ البسمةِ الصمتَ فمعناه أن صمتي ما يمنحني السعادة.

- هل تشعر بالسعادة حقًّا؟

- أشعر الآن برغبةٍ في الكتابة لا شيء آخر، هلَّا كتبتِ من فضلك؟ أريد أن أُجهِزَ على هذه الرسالة سريعًا.

- حاضر. *وهيَّأت حاسوبي وقد قرَّبته مني كي أبدأ بالنقر عليه.*

- عزيزتي ***(حنان)***.

- هل أكتبُ عزيزتي أم حنان؟

- قلتُ: عزيزتي حنان.

- أيهما أكتب؟ *قلتُها للمداعبة فابتسم هذه المرة.*

- ابدئي بما شئتِ، عزيزتي، حنان، زوجتي، حبيبتي، أي شيء.

- إذن سأكتب: مممممم عزيزتي فقط.

- ***اسمحي*** لي أن أجيبك الآن عن سؤالٍ لم تصدقي يومًا إجابته رغم أنني أقسمت كثيرًا؛ مُدركًا أنك ستصدقين جوابي الآن قائلةً في نفسك: لا يُعقل أن يكذب الإنسان؛ أو يصر على كذبةٍ ما أثناء رقوده في فراش الموت... ستسألينَ: هل تُحبُّني؟

قبل أن أجيبك لا بد لي من التساؤل: ماذا لو اقتنعتِ الآن بعشقي لك؟ ماذا لو قلتِ الآن كان ***(سيفٌ)*** يحبني فعلًا لكنني لم أصدقه كما ينبغي؟!

- لقد ذكرت اسم سيف عوضًا عن اسمك. *ضحكتُ رغما عني فضحك للخطأ الذي وقع فيه.*

- يبدو أن قصصك التي تكررينها على مسامعي ستنسيني اسمي فعلًا، وستدفعني للأخطاء دفعًا لأنك كلما ثرثرتِ تشاغلَ عقلي بتذكر ما تقصينه علي غضبًا، سيما كلما تباطأتِ بالكتابة أيضًا.

- إذن أحتلُّ عقلك؟

- لستِ أنتِ بل قصص حياتك الغريبة.

ابتسم وأشار لي أن أصمت ليكملَ رسالته بعد أن أخذ نفسًا عميقًا:

- *ماذا* لو قلتِ الآن بأن أصلان كان يحبني فعلًا لكنني لم أصدقه كما ينبغي؟! ما الذي سيخلِّفه ذلك من سعادةٍ حزينة؟ هل سيهمك الآن حقًّا التأكد من عشقي بينما لم أستطع إهداء هذا الشعور من قبل لك؟ ما جدوى أن نصدِّق حبَّ من فقدنا بينما لم نشعر بذلك خلال تواجده في حياتنا؟ أجبتك عن هذا السؤال ألف مرة على الأقل، وفي المرات الألف جميعها لم تصدقي أنني أحبك حقًا، أو أنك الأنثى الأهم من بين جميع اللائي عرفت ومن لم أعرف.

لم تصدقي لأنني لم أكن مثاليًّا من وجهة نظرك، فلطالما حاولتِ تغليفَ كلمة "كاذب" بعبارات مهذبةٍ مثل:"لا أصدقك، أو أنت لا تقول الحقيقة". ليست غيرتُك السبب بهذا بل وضوحي وصراحتي اللذان لا يصلحان لأي عصرٍ من العصور؛ ناهيك أنهما لا يصلحان تحديدًا مع امرأة عاشقة من أهم صفاتها الغيرة القاتلة والشك المريب. أو تراني قد دفعتك لتصبحي هكذا؟ الحقيقة قد يكون هذا السبب بيد أني أتحدث الآن عن النتيجة.

ربما لا أستطيع انتقادك أكثر، وذكر مساوئك وأنا على هذه الحالة، وأمام هذا الوجهِ البريء؛ *نظرَ في وجهي مُبتسمًا* مع أنني أود ذلك فمجرد غضبك من ذكري لصفاتك أمرٌ أحبه فيك، وقد أحبه أكثر وأنت تبتسمين باكيةً جراء كلامي هذا إن أراد لك القدر قراءته. لعلي لم

أخبرك قبل اليوم أنني أحبك بكامل مساوئك التي لا أحبها فيك. مشكلتي فقط في حبك التي أعرفها جيدًا هي أنني لم أحبك وحدك، رغم أنني الآن أحبك أنت فقط. مع أنك تشاركتِ في قلبي يومًا مع امرأة أخرى أخفيتها تمامًا عنكِ كإخفائي لجميع الأدلةِ في مسرح الجريمةِ آنذاك، جريمة الحب.

رحتِ تبحثين عن خيانتي لك في عيون المعجبات والمصفقات لشعري، سيما بعد تصوُّرك أن الشاعرَ يبحث عن الأنثى القصيدة تحديدًا دون معرفتك الحقيقةِ بكنهِ القصيدة، بل وتناسيت أنك من أولئك الذين لا يميلون للشعر أساسًا، وأن سبب اهتمامك به هو ارتباطك بشاعرٍ فقط؛ قفزَ للشهرةِ مصادفةً بعد قصيدةٍ قديمة آنَ أوانها لأن الحظَّ شاء لها ذلك... الشاعر المغمور قفزَ للعالمية فجأة في الثانية والأربعين من عمره، فلم تصدقي بأنه لو التقى بك أيضًا بعدها لأحبك وتزوجك، ولأنك لا تصدقين أغلبَ ما أقوله فلم تتورعي يومًا عن تذكيري بزوجتي الأولى التي لم أحبّها يومًا. غرتِ من إنسانةٍ لا أحبها وأخطأتُ باختيارها صغيرًا فكانت ضرتك حيةً وميتةً؛ مع أن مجرد تذكرها في عقلي يقذف بي فورًا للاكتئاب... هل أخبرتك أني أردت أن أطلقها بعد يومين فقط من زواجنا؟ بالتأكيد أخبرتك. رفضَ والدي حينها الأمر وصفعني بقوة معتبرًا أن ما تفوهت به إهانة لا تغتفر، وغباء لا يحق لي تكراره، معتبرًا أن الزوجةَ لا تُطلق بسببِ إشاعاتٍ ودسائس ممن لا يخافون الله ويلوكون أعراض الناس. هي فقط تخرج من بيت زوجها لقبرها. لم أستطع إثبات شكوكي ومزاعمي أمامَه وسط كراهيتي لها وشعوري الفارض عليَّ ذاته بأنها تخونني وتخدعني، لكنَّ انتظار شابةٍ أصغر مني للخروج إلى قبرها أمرٌ مِن خرافات العرب سيما حينما تكون منطقيًّا أقرب إليه منها! سألت نفسي حينها: هل عليَّ أن أنتظر موتها فعلًا بل وأتمناه مع عدم شعوري

بالذنب لهذا - كي أتحرر من خطأ وقعت فيه؟ بعد سنتين لم تُنجِب لي فاتهمني والدي بأنني السبب. أقسمَ بأنني لم أقترب منها، أو تقصَّدتُ عدم الإنجاب، فرحتُ أقسمُ كاذبًا أنني لم أفعل، حتى أسدت لي هي هذه الخدمة يومًا وطلبَت الطلاق رغم جنون والدي لقرارها وعدم استطاعته ثنيها عنه، لكنها أصرَّت عليه كما لو أنها تحيا في الجحيم. لعلها كانت تحياه دون أن أشعر بهذا طالما أنه لا يهمني. وبين تظاهري بالوداعةِ والظلم أمام والدي وبين فرحتي بمطلبها طلَّقتها أخيرًا، ليتحولَ الهواء الذي استنشقته فور طلاقي من هواءٍ إلى أجمل ذكرياتي على الإطلاق... امتلأت رئتاي بهواء الحرية أخيرًا، فقد تخلصت من شبح النميمة والتهامس والغمزات واللمزات نحوي أخيرًا، فالزواج يا زوجتي العزيزة جنةٌ للسعداء وحبسٌ مرهقٌ شاقٌّ للتعساء.

أجبَر والدي حينها والدتي أن تبحث لي عن زوجة لي مهما كانت مواصفاتها؛ سيما أنني وحيدهُ الذي تمنى أن يرى ابنه وبكره، قبلتُ بهذا وبصدر رحب طالما أن مطلقتي لن تكون من بينهن، لكنَّ الحظَّ حالفني حينما لم تقبل أيُّ واحدةٍ ممن طرقت أبوابهن بالزواج مني، أو حتى إعطائي فرصة الجلوس معها.

- لا يمكن أن أصدق أن فتاةً ما تخونك أو ترفضك. ***قلتها متعجبة لهول الأمر.***

- أمَّا الخيانة فلها شخوصها بصفاتهم الكثيرة، أما ما يخص الرافضات فقد كنتُ نكرةً حينها وفقيرًا معدمًا ولا أمتلك أيَّ ميزةٍ لأكون فارسَ أحلامٍ لفتاة، من الممكن أن تكملي لو تكرمت:

كدتُ حينها أن أتوسل لأي فتاةٍ عابرة مهما كانت صفاتها، أن تقبلَ بي رأفةً بوالدي الذي صار ابني الذي لم أنجبه أهم لديه مني. فكرتُ حينها أن اتخذ من أي فتاةِ مهما كانت صفاتها ولو تشابهت

مع طليقتي *(نيران)*، حاضنةً لطفلي لا أكثر وبعدها فليحدث ما يحدث. كانت هذه الأفكار تراودني قبل أن أرى وجه طليقتي قد ظهرَ على التلفازِ بصحبةِ ثريّ فاسد يُدعى *(صقرًا)* مقسمةً لمن حضرَ عقد قرانها به أنها رمت فلسًا فوجدت بعده دينار ذهب عيار ١٤، ووسط هذا الصراع الداخلي الفاشل مات والدي فجأة. نعم، نام، فمات، نام، ولم يستيقظ، هكذا بكلِّ بساطة... ندمتُ على كلِّ ما فرطَ مني حينها وتمنيت لو أنني بذرتُ طفلًا في أحشاء مطلقتي؛ كي يراه والدي قبل موته، لكن هذا لم يحصل. أما ما حصل ولم أتوقعهُ يومًا فهو لقائي بك. لقاءٌ أحببتك بعده، وتزوجت بك على إثره... تزوجت بامرأة تتقنُ الغيرة أكثر من إتقانها الحب... لا أدَّعي بأن شخصيتك مهزوزة، أو أنك لا تثقين بنفسك، بل هو اعترافٌ ضمني بأنني لم أستطع ترسيخ حبي في دمك، ودحض شكوكك بإثبات أهمية وجودك في حياتي، فتعاملتِ معي وارتضيت أن تعاملي كزوجةٍ وأمٍّ لأولادي أكثر من كونك حبيبةً تستحق على الأقل نصفَ ما حظيت به الحبيبة الأخرى، حتَّى وإن كانت هذه الأخرى قد جاءت متأخرةً جدًا قبل أن تغادر حياتي سريعًا، بل أسرع مما تخيلته أنا وقد فرضت نفسها وحبها وكرهها أيضًا في زمن قصير جدًا.

ما زلتُ شرقيًّا رغم كلِّ شيء، وما زالت دماء القبيلةِ تجري في عروقي، وقد يبدو مزاحنا في كثيرٍ من الأحيان، وإن لم نقتنع به، جزءًا لا يستهان به من جِبلَّتنَا الداخلية حين نتساءل: "وهل هناك عاقلٌ يحب زوجته؟" لكنكِ بحثتِ عن الأخرى في المكان الخطأ، فالشاعرُ لا يحب من أحبت وتحب شعره، ولا الأنثى التي تصلح للقصيدة، بل تلك التي تحبه رجلًا قبل كلِّ شيءٍ وتفضله كرجلٍ عمن سواه.

لا زلتُ أذكرُ حديث نفسي حينما نتج عنه وبالحجةِ الدامغة أن علاقتنا مصيرُها الفشل. وضعت الأسئلةَ المنطقية والأجوبةَ المنطقية لتسقط العلاقة فورًا من حسابات الواقع، ووضعتُ نفسي وقلبي ليلتها في السيارة وعدت للبيت عازمًا على قطعِ علاقتي بك.

ظلَّت حواراتي الداخلية وأسئلتي المحسومة تدور في ذهني طوال الليل، سيما وأنا أشاهد اتصالاتك المتكررة على جدارِ هاتفي الصامت، أما رغبتي فكنت أتأكد من استحالتها حينما أرى صورتك على موقع التواصل الاجتماعي المنقرض، واسمك الذي يسبقه حرف الدال... هاتفٌ بي تساءل ذات الأسئلة بطريقته الماكرة: وهل ستقول لوالدها أنك حاصل على شهادة دبلوم بائسة؟ أم ستصارحه بإفلاسك ليطردك كما يطردُ موظفيه وخدمه حينما يغضب؟ أم تراهُ سيقبل من وجهةِ نظرك أن تنتقل ابنته من قصرٍ فاخر للعيش في شقةٍ صغيرة تقع في حارةٍ ضيقةٍ في حيٍّ شعبي؟ هل ستقول له بأن الحب سينتصر؟ بالطبع كلا، فالفارق الاجتماعي بيننا بدا كبيرًا لدرجةٍ لا يمكن تخيلها، لكنني بدل أن أحدِّثَك عن حقيقتي، وعن فقري، وعن عزمي لإنهاء العلاقة التقيتكِ مجددًا؛ ورحتُ أحدثك عن سيارتي الفارهة التي تركتها في الوكالةِ ليقوموا بالصيانةِ اللازمة لها، وعن اضطراري لركوب سيارةٍ قديمة يملكها أخي خشيةَ أن يرى في نفسه أنه أقل شأنًا مني.

حدثتك عن مزرعتي الخاصة، وشقتي الفاخرة، وعملي الذي أجني منه دخلًا كبيرًا... لم تكن هذه الأكاذيب سوى حديثٍ قلتهُ ممازحًا متجاهلًا أن وجهي وصوتي لا يساعدان السامع على التفريق بين جدِّي وهزلي، خاصةً إن تعاملَ معي لأول مرة، ***{وجهي أنا ما إن ضحكتُ، وإن توَّلاني الأسى هو واحدٌ، وصدى تعابيري الصمم}.***

ظننتكِ عابرةً باديَ الأمر، فرحتُ أجاريك من بابِ التسلية؛ سيما أن حديثك لم يكن منطقيًّا بالنسبة لي، بل ووقر في نفسي أنك كاذبة مثلي، فمن المحال أن دكتورة جامعية تدَّعِي أنها ابنة مليونير لا تمتلك سيارةً حديثةً بحجةِ الاستقلالية والذاتية، قائلًا في نفسي عندما أوصلتك مرةً لمكان قريبٍ من قصرِ والدك: أظنها ابنة الجنائني، أو أحد الخدم لا محالة في هذا القصر... جاريتك ليس إلّا، ثم صدمت بعدها بحقيقةٍ غريبةٍ، وهي أنك تحبين الإنسانَ الذي في داخلي لا الإنسان الذي أتحدث عنه.

تظاهرتُ كثيرًا أن عدم اهتمامك بالجانب المالي والاجتماعي الطبقي ما هو إلا نتيجة ظنِّك بمعرفةِ من يتناسب معك كتحصيل حاصل، وأن الجوانب الأخرى هي ما تهمك كامرأة، ولكنني صُدمت بحقيقةٍ ثانية حينما رحت تتحدثين عن رفضك لقرار والدك بعدم تزويج أختك الصغرى من شابٍ فقيرٍ أحبها بحجةِ الفقر؛ ثم إجبارها على الزواجِ بابنِ ثريٍّ تافه.

أحببتك أكثر لكنني تورطت أكثر. أحببتك بالقدر الذي جعلني كاذبًا محترفًا بشكلٍ لم أتصوره. أحببتك بالقدر الذي جعل من رجلٍ في الأربعين مراهقًا ينتظرُ حبيبته أمام جامعتها بفارغِ الصبر؛ وكأنه ولدِ في الأمس.

دعيني أعترف الآن أنني حينما قابلت والدك لم أكن أملكُ دينارًا واحدًا في جيبي، بل وكنتُ غارقًا بالديون حتى الثمالة. ملكتُ وقتها مطعمًا صغيرًا لا يكفي لسدِّ حاجاتي الشخصية، بل لا يكفي مردودهُ لشراء الأعلاف لدجاجات والدتي التي كانت تربيها على سطح المنزل... لم أخبر أحدًا حتى نفسي أنني على علاقةٍ بك، وبالتالي فلم أخبر عائلتي باللقاء الأول بيني وبين والدك، لأنني ظننتُ وقتها بأنه اللقاء الأخير لا محالة. ***{سأخبره ببعضِ الأكاذيب التي***

تقمصتها بالكامل لكثرة ما رددتها على مسامعِك، ثم أُعرِّجُ على بعض الحقائق التي ستنسف فكرةَ احتمال قبولهِ الكارثي بي نهائيًّا}.

- أعملُ مع قريبٍ لي في العطاءات الإنشائية، وأمتلك مغسلة سيارات، ومطعما، وحافلتين تعملان في خدمة المعتمرين والحجاج، ومزرعة وبيتا في ***(غور الأردن)***، وأستورد الكثير من البضائع الصينية لأبيعها بالجملة، كما أمتلك سيارةً فارهةً، وشقةً فارهةً، وأنوي شراء بيتٍ مستقل في إحدى ضواحي العاصمة الجديدة، وحاليًا أدرسُ فتحَ صيدليةٍ ضخمة مع صديقٍ لي.

أعترفُ لك أن هذه السيرة لا تمت للحقيقةِ حينها بصلة، وأنني قلت ذلك ظنًّا مني أن رجلًا من أباطرةِ المال سيرفضُ تزويج ابنته حتمًا من شخصٍ بهذه المواصفات، سيما أنني ورغمَ ما زعمته لا زلتُ صفرًا بالنسبةِ إليه؛ بل أنا المرادف للشابِ الفقيرِ الذي رفضَ تزويجه للصغرى... انتظرتُ فقط التوقيت المناسب لقول هذا الكلام أي تحديدًا أثناء ذهابك خلفَ والدتك التي مارست فورًا دورَ الحماة علي، كي يتم طردي _كما وصفتُ هذا لي خلال حواري مع نفسي_ دون أن تشاهدي هذا.

الحقيقة أنني بعد أن أدليت بدلوي دفعةً واحدة بلا اكتراث -كمتقدم لوظيفةٍ لا يعرف الجواب المناسب في اختبارٍ شفهيٍّ يدرك مسبقًا أنه فاشلٌ به- أنزلتُ قدمي عن الأخرى، وعدلّتُ من جلستي متقدمًا لطرفِ الكنبة متأهبًا للنهوض بعد توقعي أن يقول لي غاضبًا وبوجهٍ حانق: "لستَ مناسبًا لها، أنت مطرود، اخرج الآن فورًا من بيتي".

انتظرت سبابتهُ أن تظهر في تلك اللحظةِ ويشير بها إليّ طاردًا، لكنه لم يشهر شيئًا من أصابعه قائلًا بابتسامة:

- قلتَ لي بأنك شاعرٌ، وقد أخبرتني حنان نقلًا عن زملائها دكاترةِ النقد والأدب في الجامعة أنك شاعرٌ يُشهد لك بالتميز، رغم أنك حاصل على شهادة الدبلوم بكهرباء البيوت كما قلت لي.

- كهرباء السيارات.

- نعم، السيارات. غريبٌ ربطك بين متناقضين.

كدتُ وقتها أن أفلسفَ الحياةَ، والموهبة، والعملَ، وأن أربط بين الماءِ والنار بشكلٍّ مقنع، لكنني لم أحضر للإقناع بل لسماع الرفض؛ لذا اضطررت للابتسامِ والسكوت، والسماحِ لحمرةِ وجهي باحتلاله بعد أن عاودتِ الجلوسَ قائلًا في نفسي: "سيطردني ابن الكلب أمامها، لقد تقصَّد المماطلة ليهينني على مرأى ومسمعٍ منها".

أضمرتُ في نفسي أن أجيبه بجوابٍ خطابي سيصعقه وإياكِ فورَ طرده لي. سأذكر السارقين، والنصابين، والمحتالين، والساسة الذين تاجروا بدمائنا، وأشتم سماسرةَ الأوطان والقتلة، ثم سأركل المزهرية الثمينة بقدمي لأحطِّمَها قبل خروجي شاتمًا أصحاب الكروشِ الآكلةِ لأرغفةِ البسطاء.

- قلتَ لي أن عائلتك تعيشُ في حيٍّ شعبي في ***جبل التاج***؟

- ***جبل النصر*** سيدي.

ضحكَت أمُّك فامتقع وجهُك حينها غاضِبةً خلفَ ابتسامةٍ صفراء. تزامنَ ذلك مع امتعاضِ والدك من ضحكتها وابتسامتي غضبًا بوجهها قائًلا: نحن سيدتي عائلة ما زالت متمسكةً بالجذور وأصولها، وما زالت أمي ترفضُ رغم إلحاحي عليها ترك صويحباتها وعالمها الصغير الطيب، وبرًّا بها فأنا لا أستطيع

فرض حياتي على شخصيتها بدافعِ التقدم. كما إنني شخصيًّا أنتمي لذاك المكان بكامل جوارحي، وأفضله على الأمكنةِ الأخرى.

القليلُ من الصدق ظننته دافعًا لإنهاء هذه المسرحية الفاشلة، لكنه دفعَ بي مجددًا لدور البطولة، فقد فسَّر والدك على ما يبدو حديثي ولا مبالاتي ومعرفتي السابقة بنتيجة طلبي على أنه ثقةٌ وقوة شخصية... صمتَ طويلًا، بل صمتَ أطول من الصمت ذاته وسط ترقُّبي قبل أن يملأ رئتيه بالهواء كملاكم في الجولةِ الأخيرة من نزاله.

- تعلمُ يا بني من أنا ومن أكون، ولا بد أنك تعلم أيضًا من تكون ابنتي؛ وما تتحلى به من صفاتٍ تجعل منها الزوجةَ المثلى لأي رجلٍ حالم...

حالمٌ هذه أوقفت قلبي وأشعرتني بالخوف فجأة فنبت قواي. حالمٌ هذه جعلتني أصرف النظر عن كسر المزهرية، والخطبة العصماء، ناظرًا لرجلٍ سيخرجُ بعد قليل كما يدخل الأذلاء السجن بأقدام خائرة.

- سأسألك سؤالين، أجب عليهما بصراحة.

تطوعتِ حينها للحديث عني: إنه أكثر الرجالِ صراحةً في العالم. أصلان لا يكذب أبدًا.

نظرته أسكتتكِ قبل أن يتابع قائلًا: لماذا تريد الزواج بابنتي؟ ظننته فخًا أرادَ لي أن أقع فيه، وأن أفضل جوابٍ بالتأكيد للوقوعِ فيه القول: "لأنني أحبها"، فقلتها دون تردد وبثقة، فابتسم، أو تظاهرَ بذلك.

ثم سألني كما تعلمين: هل تستطيع أن توفر ربع مستلزمات ابنتي من حياتها التي تحياها الآن؟ أقسمُ لك أنني قلت: "لا" فورًا فاستبدلها لساني "بنعم" مخالفًا أوامري.

صحت بنفسي: تبًا لك، سيكتشفون كذبك، وسيركلون مؤخرتك قريبًا دون أن تستطيع الدفاع عن نفسك.

ريم متفاجئةٌ الآن لاعترافي بهذه الأحداث ظنًّا منها أن مثلي لا يكذب، فقد رأتني من خلال شعري، وسمعتني من خلال صوتي، والقارئ وحده من يضع أديبه في المكان الذي لا يستحقه في أغلب الأوقات، رغم أنها المصرَّة على استحضارِ أصلان من أعماقِ معروف. أما أنت فأظنك لا زلتِ تحت تأثير الدهشةِ، أو لعلك تنتظرين شيئًا لتفهمي الحقائق لأول مرة بشكلها الصحيح.

خرجتُ بعدها من قصركم ولم أخبر أحدًا بما قمتُ به...أعدتُ مرسيدسي المزيفة التي استأجرتها بمبلغٍ اقترضته من أحدهم، وقفلتُ عائدًا بسيارتي الجولف لبيتي عازمًا على الاتصال بك، والاعتراف بأنني رجل كاذبٌ لم يستطع أن يعترف بفقره وغبائهِ الاستنتاجي أمامكِ؛ مما دفعه تلقائيًا لعدم الاعتراف به أمام والدك أيضا.

لم أخجل يومًا من فقري، ولا من وضعي الأسري والاجتماعي، بل كنتُ في خضم كذبي شاعرًا بأفضليتي وعائلتي على جميع الناس ***{لماذا؟ لا أعرف! أو لعل هذا الشعور هو المخدر المثالي للفقراء المثقفين عادة كي يستسيغوا شقاءهم}*** ولكنني انقدتُ وراءَ كذبةٍ صغيرة أفضت بي إلى حقيقةٍ كاذبةٍ بالكامل، يلزمها فقط أن أتوقف وأعترف، أو أن أنسحب من كل هذا لأي سبب كان قد أختلقُه فقط.

لم أستطع مواجهتك صوتيًّا فعزمت على إرسال رسالة نصية أعتذر فيها عن الزواج بك مختلقًا بعض الأسباب الكاذبة؛ أردت أن أقول لك: "يبدو أن خيانة زوجتي الأولى لي جعلت مني رجلًا كاذبًا ومريضًا أراد الانتقام من فتاةٍ أحبَّته بصدق بينما لم يستحق هو هذا الحب يومًا، سامحيني أرجوك". أردت قول هذا لأجد منك رسالةً أعادتني لنقطة الصفر: "كنتَ رائعًا هذه الليلة، والديَّ أحباك وأعجبا بك. يبدو أن والدي موافق على هذا الزواج، أنا سعيدةٌ جدًا، أكاد أطير لأنني سأكون قريبًا زوجة أعظم رجلٍ في الدنيا".

عن أيِّ عظيم تتحدث؟! عن؟ هتف بي هاتف وقتها وهزني بعنف مانعًا إيّاي أن أكمل وصلةَ التوبيخ والردح النفسي التي كنتُ أنوي عزفها في داخلي؛ فقلتُ دونما اكتراث كردٍ على معارضتي الداخلية لي: لماذا لا تستثمر ذكاءك مرة في حياتك للحصول على ما تريد؟ هتف مرةً أخرى حين رفضت هذه الفكرة: لقد أقنعتَه وانتهى الأمر، الجزء الصعب بات يسيرًا الآن فلا تضخِّم السهل أرجوك، أنت من يستطيع أن يكمل هذه المسرحية ليصفق له الجمهور في نهايتها؛ وأنت وحدك من يستطيع أن يرشده حدسه للمغامرةِ دون خسارة.

لن أقول بأن دافعي هو حبي لك، رغم أنني أحببتك أكثر مما توقعته، ولن أقول بأن المال من دفعني لهذا؛ فأنت وحدك من تعلمين أنني لم أكترث به يومًا... كان دافعي ينطلقُ من فشلي وفراغي العاطفي تحديدًا، ينطلقُ من نقصٍ قد أشفى منه بزواجي من فتاةٍ حسناء صادقةٍ رقيقة مثلك؛ نكايةً بمن رفضنني ناهيك عن طليقتي التي تزوجَت بآخر فور انتهاء عدَّتها بسهولة لتتأكد شكوكي وهمسات الآخرين، ويتأكد لي غبائي وسذاجتي.

برودي الكلامي جعلني صادقًا غير مثيرٍ للشك لدى والدك، فلم يبحث في دائرة الأراضي عن أراضٍ أو عقاراتٍ باسمي، بل تعامل معي تمامًا وكأنني ذاك الذي رسمته أنا في خياله. شقتي المستأجرة لم تثر شكه. مزرعة صديقي الذي سمح لي باستعمالها شهرًا شتائيًا لم تثر شكه. سيارتي المُستعارة، والبيت الفاخر الذي ذهبنا للمساومة على ثمنه واختلفنا على ملاليم من وجهةِ نظره لم يثر شكه.

دقت ساعة الحقيقةِ حينما انتقلنا للفصل الثاني من الحقيقة الكاذبة، وقد طلبتُ من عائلتي ألّا يتحدثوا بأمورٍ خاصةٍ عني أمامه مهما بدت صغيرة، أما والدتي فقد أوصيتها ألّا تمارس دورَ الحماةِ أبدًا، أو محاولة التودد لأمك مهما توددت أمك لها.

تفاجأت عائلتي من سيارتي الجديدة فعللتُ أنني ابتعتها بالأقساط المريحة، وانتقلت لمواضيع أكثر أهمية من سيارتي الوهمية.

لم أكن متيقظًا لكل حرف أثناء التعارفِ والحديثِ بين العائلتين فقط، بل لكل ابتسامةٍ ونظرةٍ وهمسةٍ في غيرِ مكانها.

أدرتُ الجلسةَ ومسارَ الحديثِ كما أشاء دون أن يشعروا بذلك، وسألتُ عن أشياء تبعث في والدك حبَّ الحديث عن نفسه والرجوع لماضيه المكافح، وكلما تعب استثرته، وكلما تحدث أكثر شعرتُ بالراحةِ أكثر، فإن استراح نقلتُ (المايك) لوالدتك كي تتحدث عن كلبها لولي وقصةِ حبهِ الفاشلةِ المريرة.

رحتُ أتلقفُ السؤال من فمه فأجيبه جوابًا لا يتبين معه حقيقتي أمام الطرفين، ثم أتلقفُ جوابًا من فمِ والدتك فأقلِعُ بالجميع نحو القمر؛ وأدور بهم حولَ زحلٍ والمشتري قبل أن أهبط في المحيط الهادي وأعود بهم لمقاعدهم، دون أن يعرفَ أحدٌ أين كانت الرحلة تلك،

وما سبب الذهاب فيها! غادرنا ولم يعرف أحدٌ عن الآخر شيئًا إلا ما أردت لهم أن يعرفوه، كما لم يعرف أحدٌ منهم أنني كاذبٌ متلاعبٌ بعقول الفريقين.

كان أمرًا مستحيلًا وسهلًا في آن واحدٍ بطريقةٍ لا تُصدَّق، فتقمصتُ بعدها الدور جيدًا حتى صدَّقته بالكامل؛ لذا حين حذرتني والدتي بعدها من هذه الخطوة مشيرةً للفرق الطبقي بيننا، وخشيتها من تبعات هذا الزواج قبل الشروع بتحضيراته تفاجأتُ من تحذيرها؛ لأنني بدأت أرى نفسي ذاك الذي حدثت والدك عنه.

- سيطلبون مهرًا فلكيًّا يا بني ويشترطون شروطًا لن تستطيع تلبيتها، فلماذا تعلق نفسك بحبال الوهم وأنت مفلس؟ أرادت أن تقول لي حينها: إنَّ المفلس ثري بالنسبة لي، لكنها سكتت عن هذا كي لا تجرحني فقط.

- لا عليك يا أمي، أنا وحنان متفقان على هذه التفاصيل.

فكَّرت بأدق التفاصيل قبل عظيمها، وجهزت نفسي لأكاذيب واحتيالات أخرى، والحقيقة أنني شعرتُ بمتعةٍ عظيمة أثناء خداعي عائلتك. ولم لا؟ وقد كرهت والديك بعدها لأنني كنتُ أشعر وإن لم تفصحي لي بأنك لا تحبين أحدًا منهما، وكرهتهما أكثر حينما راحا يتحدثان حولَ صفقةٍ خسرها والدك بعشراتِ الآلاف؛ رغم أنها قائمةٌ بالكامل على المتجارةِ بأرزاقِ الفقراء.

أردت الكلام أو الهجوم لكن رنين الجوال قطع هذا سيما بعدما هتفَ والدك باهتمام بالغ وقد تغيرت ملامحه: هذا هو، لا بد أنه فكَّر مجددًا بالعرض. راح يتحدث مع ***(سمير بيك)*** بودٍّ كبير تحت اهتمام أمك، وانتظار النتائج بفارغ الصبر.

بدت المكالمة والتي لا نستمع فيها للطرف الآخر تسير نحو الفشل، من خلال الردود واللعنات العينية، لتبدأ أمك بالحديث الجانبي عن غباء المقابل، وتسليمها بضياع الصفقة مرةً أخرى بعد تجدد الأمل.

لا أحد يدري بعدها ما دار بيني وبين سمير بيك الغبي بالنسبة لهم، والإنسان الحقيقي بالنسبةِ لي حينما قابلته سرًّا، وقد تقصيت عنه وعن شركته، ولكنني أستطيع القول أن هذه المقابلة فتحت لي آفاقًا لم أكن أتوقعها... فقد ظنَّ الجميع ومن بينهم أنتِ أنه صديقي منذ أمدٍ بعيد؛ بسبب الصداقة التي توطَّدت بيننا بسرعة ومنذ اللقاء الأول، والتي لم أكن أتوقعها أنا لأنه بدا شابًا دقيقًا في كلِّ شيء، على النقيض من فوضويتي وعبثيتي.

تمازجنا كصديقين بفترةٍ قياسية فراح يحدثني بعد أن تفاجأتُ من تشابهنا في الكثير من الأمور والأكاذيب؛ أنه سليل أسرةٍ فقيرة دفعته للعمل صغيرًا ليلبي احتياجاتها... عملَ، وتعب، وكدَّ، ودرس، حتى دخل الكلية العسكرية لتحقيق حلمه بارتداء تلك البدلةِ صغيرًا.

- إذن هذه الدقةُ والصرامة نابعةٌ من خلفيتك العسكرية.

- الجميع يقول هذا، والجميع يقول أن عبثيتك وفوضويتك نابعتان من خلفيتك الشعرية.

ضحكنا حينها وقد تحولت علاقتنا من علاقة صدفةٍ عابرة لصداقة حميمية... حدثني بعدها عن ثروته التي جمعها بفترة قياسية بعد إحالته للتقاعد مُبكرًا بسببِ بترِ أصبع قدمهِ جرَّاء حادثةٍ بسيطةٍ من العسكرية؛ واتجاهه للمغامرة في سوق المال والتجارة، وعن شركته وفروعها الناجحة في الوطن وخارجه.

حدثني عن يتمهِ وعوزه كأنه لا يريد أن ينسى ذاك الماضي البعيد أبدًا؛ حتى أنه كلّما ذكر ذاك الماضي أخرج من جيبه ورقةً نقديةً مهترئةً من فئةِ العشرين وراح يقلِّبُها بين كفيه قائًلا لي بعد أن ينتهي من حديث ذكرياته: "هذه من قادتني إليَّ" .. يقولها ولا يفسرُّ مقصده.

يا عزيزتي: لا أحد يدري أننا نُساق للأشياء الجميلةِ في حياتنا حين لا تُساق إلينا دون أن نشعر بهذا، كما أنه لا أحد يدري أن بعض الأشياء الجميلة قد تستحيل كابوسًا حينما لا نحافظ عليها... نحن من يصنعُ الأشياء غالبًا لنكونَ صنيعتها بعد ذلك.

هذه المرة أنا مَن طلبتُ إليه حذف هذه الرسالة وكتابةَ أخرى، غير أني احتفظتُ بها نافيةً أن يكونَ سبب ذلك ما أضمرته داخلي؛ من الاستفادةِ مما حوته بين ظهرانيها.

{تعلمينَ أنك كاذبة، تعلمين وتحاولينَ الهرب من حقيقةٍ اكتشفتِها مؤخرًا عن نفسك، فنشرُ هذه الرسائل وغيرها من نصوصه الأولى التي أملاها عليك سيجلبُ لك ثروة سريعة يومًا بعد موتهِ على لسانه. لا تحاولي أن تتظاهري أنه من يهمك فقط؛ وأن علاقتك به لم تتعد كونها علاقة ممرضةٍ بمريض أو شاعرٍ مشهورٍ بقارئة، لقد بدأتِ بحفظِ كلِّ شيءٍ عنه كي تنتهزي الفرصةَ المناسبةً للانقضاض على مصلحةٍ بحته، لن تسألي نفسك الآن بحزنٍ سؤالك اللماذيَّ فلم يعد مهمًا اختيارهم لك تحديدًا من بين مئات الأشخاص لتعملي هنا؟! كما أنك لن تسألي القدر عن اختيارهِ لك تحديدًا لتكوني الشاهدةَ الأخيرة على حياةِ شاعرٍ مشهورٍ تُعد كلماته ثروةً قادمة... قد لا تستطيعين مساعدته ومساعدة نفسك الآن، لكنك بالتأكيد ستساعدين نفسك فقط حينما تعودين للوطن من خلاله}.

حاولتُ نفي هذه الفكرة بيد أنني بررتُ لنفسي هذه الأفكار الجشعة. أقنعتُ نفسي بعدم تصويب ألسنة الكراهية لذاتي لمجرد أنني بدأت أفكر بهذه الطريقة. ***{سأبيعه يومًا بعد موتهِ ذارفةً الدمعات الغزيرة على فراقه، معللةً أنَّ نشري لتلك الرسائل سواء سمحَ لي أو لم يسمح يندرج تحت مفهوم الأمانة الأدبية، حزينةً عند قولي: إن الأديبَ ملكُ الناس لا ملك نفسه أولًا وأخيرًا}***.

رغم أنني خدعت لكنني في النهاية سافرتُ من أجلِ المال، أو هربًا من ليلةٍ لا أستطيعُ تذكّرها خَجَلًا من نفسي، ولكي لا أرى وجهَ جاد زوج أمي مجددًا بعدما فعلتُ ما فعلت به. سافرتُ هربًا وارتضيتُ

كما ارتضى الآخرون تقبل الخديعة والعبودية؛ من أجل المال والفرار من الذات.

الجميع رفضوا الخديعةَ كاذبين، وعاندوا كاذبين، وتذمروا كاذبين، فبمجردِ مضاعفةِ الأجرِ المرتفع أصلا رحنا نتحدث عن الإنسانية؛ وعن واجبنا كأطباء وممرضين وفنيي أجهزةٍ وفحوصات تجاه مرضى لا ذنب لهم فيما تعرضنا له.

لا يتركُ المرء وطنَه إلا بحثًا عن المال، أو المجد، أو الحرية، وكنت أنا من الصنفِ الأول تقريبًا؛ فلمَّا خُدعت بحثت عن المال في ثوب الإنسانية رفضًا للحقيقة... أشعرُ أنني لا أختلف عن العجّان وأبنائهِ الآن كثيرًا، فلعله قال أيضًا: المرأة الجميلةُ ملكُ الناس لا ملك الجميلةِ نفسها أولًا وأخيرًا، وطالما أن الجميع يبحثون عن المال خارجَ أوطانهم فسوف أبحثُ عنه في وطني ضمن مفاهيمي.

يتفاوت القبحُ فقط، وطريقتنا بخلق المبررات التي نخدِّرُ بها ضمائرنا، لكننا نشترك -في كثيرٍ من الأحيان- مع من هم أكثر وأقل قبحًا منا بخلق الذرائع لممارسة القبح بوجوهٍ بريئة.

لا نجهلُ أنفسنا لكننا نتجاهل بالتأكيد لحظةَ الصدق معها، ومعاملتها كما هي لا كما يريدها لنا الآخرون من زاويةِ آمالهم.

- تمنيتُ حقيقةً لو دهستِني لأستريح. "عمر الشقي بقي" لكن شقائي أطولُ مني يا ابنتي. ***قالها العجّان جالسًا في سيارتي أثناء تحسسه لأطرافه؛ كمن يتأكد أنها ما زالت جزءًا من جسده.***

- أشعرُ بك وأتأسفُ بألمٍ لفقدِ أولادك وزوجتك بذاك الحريق الذي أخبرتَني به، لكنها الأقدار. ***قلت هذا ردًّا مني على حديث سريع قاله لي أثناء سيرنا في السيارة عن مآسيه الشخصية والعائلية.***

ذهبَ مستغفرًا ومهللًا مخطئًا بقراءة بعض الآيات السهلة، شارحًا لي بين الحين والآخر ضرورةَ الصفح والعفو عن المسيء.

- لو دهستِ غيري لكنت الآن خلفَ القضبان، ولاستغلك بعدها ذووه، وابتزوك في زمنٍ يخلو من الكرماء، احمدي الله يا ابنتي أنك دهستِ رجلًا مثلي، عمُك الطيّب لا يطلب من الدنيا إلا الستر. *وراح يلتفت لليمين واليسار وللخلف قلقًا كأنه يخشى أحدا ما يلاحقه.*

- الحمد لله.

- احمديه أكثر.

- الحمد لله.

- احمديه أكثر.

- الحمد لله.

- بصوتٍ مرتفع

كدتُ أن أنفجرَ ضاحكةً حينها من سذاجته غير أني انفجرت باكيةً بعد نصف ساعة فقط من دهائهِ.

- ألم تجد صيدًا أفضل منها؟ حقيبتها كعقلِ ميمون تمامًا. *قالها أكبر أبناء العجّان قبل أن يتثاءب أو يتظاهر بذلك.*

- أولاد الحلال لم يتركوا لأولاد الحرامِ شيئًا يا (زفت).

- هذه ظاهرة خطيرة بدأت أخشى منها.

- سيارتها لا تساوي المخاطرة بتفكيكها وبيعها خردة.

- الرائحة أفضل من العدم.

- لكنَّ ميمونًا سعيدٌ بهذا الصيد، أعشقُ اللحمَ الأبيض المتكدس الطازج حين يكون مترهلًا بهذا الشكل. *قالها ميمون مشيرًا لعضوهِ الذكري وغمزني بعينه متزامنة مع حركةٍ تلذذ من شفتيهِ مما أودى بقلبي للاشمئزاز أكثر، والرعب الصامت أكثر.* أنا من سيبدأ.

- هذا بأحلامِ أمِّك يا ابنها.

- أكملوا عشاءكم، ومن ثم نذهب إلى قرعةٍ لترسيخِ الديمقراطية بيننا.

{القرعةُ على جسدي؟ لماذا أنا تحديدًا؟ آلاف السيارات مرَّت أمامه فلماذا أنا؟ تحديدًا أنا؟ أيُّ نحسٍ وحظٍّ عاثرٍ هذا؟!}

- قرعة؟ مبروك عليك إذن يا ميمون.

- بل قل، يلعن أمك يا ميمون. *جاءت الشتيمةُ قبل صاحبتها أو بالأحرى قبل أن تدخلَ مسرعةً عجوزٌ شقراء ممتلئٌ وجهها بالنمش بعد أن دفعت الباب بعصبية.*

- لعنها الله، لكن ما الذي فعله هذا الغضيب؟ *قالها العجّان دون أن ينظر إليها وفمهُ محشوٌّ بالطعام.*

- لم يذهب لجامعتهِ من أسبوع، أخبرني زميلك فلا تنكر.

راحت تعنفه وتضربه بيديها رغمَ إنكاره ذلك وسطَ شتائم إخوته ونعته بالفشل، نادبةً حظَّها وأقدارها التي لم تقف يومًا بصفها.

- مذ تزوجتكَ والنحسُ رفيقي. *قالتها وقد اتجهت بحواسها وبصرها للعجان.*

- نفس الأسطوانة، كرري، غني واشجيني، هيا.

لم تمثِّل دورَها كما ظننتُ باديَ الأمر فقد بدت منزعجةً فعلًا من ابنها الكسول، ورغمَ أنني لم أستطع الربط حينها بين الشهادةِ الجامعية والإجرامية إلا أنني ظننت أنها صاحبة الكلمة الفصل

بينهم... زحفتُ أقبّلُ قدمها كي تتركني وشأني متوسلةً باكية مستجيرةً بها.

- أنا ممرضة ولم أقصد دهسه، أقسم على هذا، لم أفعل شيئًا صدقيني.

ضحِكَت فضحكوا بعد أن دفعتني عن قدمها بعنف على دفعتين.

- ألم تجد صيدًا أدسمُ من هذه؟ ***قالتها بعد أن خلعت ثوبها وحجابها وجلست لمشاركتهم العشاء.***

- هذه التي لا تُعجبك كادت تدهسني حقًا، ثم إن أحضارَ فيلٍ كهذه إلى هنا مغامرة بحدِّ ذاتها.

- لعلَّك خفتَ أن تصرعَك. ***بدت ساخرةً متفحصةً بنصف عينيها بدانتي.***

- بل لأنني شعرتُ أن أحدهم يلاحقني... سيارةٌ فارهة. ***قالها وهو يكتكتُ يديهِ ويمسحهما بثيابه رغم أنه عاد وتناول الطعام مرة أخرى.*** شككتُ بأنها تسيرُ خلفنَا لكنها اختفت قبل وصولنا إلى هنا بعدةٍ شوارع، ثم أنت تعلمين أن أحدا لا يصرع العجّان يا بنت أمِّك. ***{لعنة الله عليك وعلى آل الكيس الذين وافقوا على أن تكوني زوجتي}.***

- لا تغضِب أمك من جديد. ***قالها كبيرهم موجِّهًا الحديث لميمون قاطعًا بهذا نقاش والديه.***

- أعدكِ ألّا أكررها ثانية.

أما أنا فلطالما كررتُ أشياء أغضَبت ذاتي مع حرصي أن أكون فتاةً صالحة في المجتمع... أغضبتُ ذاتي حين سمحت لنفسي بالوشاية كذبًا بأبي سند لإدارة المشفى حيثُ اتصلتُ بهم من هاتفٍ عمومي؛ لأخبرهم أن حقيبته الخاصة مليئة بالأدوية المُخدِّرة المسروقة. تلك الأدوية التي قمت أنا بوضعها في حقيبته.

وجدَ نفسه بعد التحقيق السريع مطرودًا شرَّ طردة، لكنه ظلَّ صامتًا مبتسمًا متجاهلًا نظرات الشامتين قبل أن يسيرَ نحوي شامخًا وكأنه تقلدَّ للتو جائزة نوبل بالطب. لقد تحامل وكابر حتَّى استطاع وجهه نفيَ أي ملامح ضعفٍ أو خجلٍ فيه... اقترب مني دون أن تفصحَ عيناه عن شيء ليصافحني طالبًا مني عدم تصديق هذه التهمة الباطلة التي دُبرت له من حيث لا يدري.

رحت أبكي وكدت أن أعترف بأنني من دبرت هذه المكيدة. ووسط خوفي وندمي على ما فعلت استحلفني أن أكفكف دمعي، وألّا أبكي مجددًا رحمةً بنفسِ ابنته التي لم ينجبها... هي الدموع ذاتها التي انهمرت بحرقةٍ أمام ميمون خوفًا فتلذذ بها وكأنه يتوج انتصاراته عبرها، أو عبر مراسم خوفي وذعري.

وقد أتبنى الآن ما قاله لي أصلان بخصوص ميمون فقد رأى أنه لا يختلفُ كثيرًا عن أولئك الذين نصادفهم على مقاعد الدراسة، ولا فرقَ بين ابنِ سارقٍ ومحتالٍ بسيط، وبين ابن سارقٍ ومحتالٍ عريق، فهذا يخرجُ ظانًّا أن الدنيا له، وذاك ظنًّا منه أن الدنيا ذهبت لغيره، فيمارسُ كلٌّ منهما البحث عنها أو تملُّكَها بطريقته.

- العجّان أو زوجته أرادا للابن أن يصبحَ لصًّا متحضرًا فقط، تأسيًّا بمن سبقهم، فلا تستغربي من هذا. *قالها أصلان غيرَ مكترثٍ بما يسمع.*

- كان قذرًا رغم أناقة ملبسه خلافًا لهم.

- هذا ما شاهدتهِ أنتِ من خارجه، لكن قذارة الداخل هي الأسوأ.

- باعتقادك هل أكمل دراسته؟

- لا. *ضحكَ كثيرًا ثم راح يسعل جرَّاء هذه الضحكة.*

- لا! وما أدراك؟

- أقسمُ لك بأنه لم يعد بعدها للجامعةِ بتاتًا.

- ألأنهم ألقوا عليه القبضَ ليلتها؟! لعلَّه عادَ للدراسةِ بعد خروجهِ من السجن!

- لا، لم يفعل. *صمتَ قليلًا*. هكذا يقول لي حدسي.

- أما حدسي فيقول لي بأنك ستوجه رسالة أخرى لابنك البكر ***(جودت)***.

- ليس حدسك من أخبرك بهذا، بل أنا.

- كلا.

- نعم.

- كلا، ولنبدأ من جديد لو تكرَّمتْ، وإياك أن تقاطعَني كعادتك.

ابتسمَ مغمضًا عينيه مُعيدًا ظهره للوراء قليلًا.

- أريد منك أن تكتبي هذه الرسالة بخط يديك لا الحاسوب.

- شريطةَ أن توقع عليها، فقد فعلتها برسالتنا الأولى لابنك الآخر ***(نزار)*** لكنك مزَّقت الرسالةَ بعد ذلك، بحجة أن لغتَها لا تليق بشاعرٍ مثلك.

- وقد نمزقُ هذه أيضًا.

- لن أمزِّقها مهما حدث.

قاطعًا عليَّ الكلام وسادا الطريق أمام ثرثرتي تنحنحَ قبل أن يقول بسرعة:

- ***صديقي***، أوشكتُ على كتابة رسالةٍ تقليدية كالتي يبعثُها الآباء للأبناء، ثم صرفتُ النظر عن هذا هروبًا من مكرور الأساليب

والمشاعر الباهتة... فكرُّت في كتابة النصائح والمواعظ الموجَّهة على غرار وصايا *(لقمان)* لابنه، لكنني إن فعلتُ فهذا معناه إقرارٌ بفشلي أمامك كوالدٍ لم يستطع تربية ابنه وتوجيههُ كما يجب، ثم كأنه تذكرَ في الدقائق الأخيرة أن يفعل. والمتأخرون عن أي شيءٍ لا يفهمون ما فاتهم مهما حاولوا.

كان بإمكاني تقديم الكثيرَ لك في حياتي طالما قبلتُ أن أقطفَ ثمار الزواج. وبما أنك الثمرة الأولى فقد وجب عليَّ فعلُ ما أستطيع فعله للحفاظ عليك عبر خضوعي لغريزة أبٍّ حديث عهدٍ بأبوته آنذاك. أمَّا من يقرر نجاحي من فشلي كأبٍ فهو أنت لا أنا.

حاولت أن أتفلسف قليلًا وأبدأ رسالتي بـ: "ما دمت تقرأ الرسالة الآن فهذا يعني أنها قد وصلتك" كنوعٍ من إظهار الذكاء الغبي الذي نراه في أفلام (الضوء). والحقيقة أنني أُملي هذه الرسالة على الرقيقة ريم ولا أجد في نفسي ذرة أملٍ واحدة أن تقع يومًا بين يديك لتقرأها بعد موتي؛ لكنني عموما وبعد أن صمتُّ طويلًا انتبهت إلى أنني بدأت الرسالة بكلمة: صديقي بدلًا عن ولدي رغم عدم تعمّدي هذا.

هذه الكلمة تختصرُ الكثيرَ علينا، وتجبرني أن أخاطبك ضمن مفهومها لا ضمن مفهوم الدماء الواحدة، والتسلسل الوراثي.

أكتبُ لك الآن لأنني بحاجةٍ للكتابة أكثر من حاجتي لأن تقرأني؛ وتفهم ما أريده، وأفعل هذا لأن الشاعر لا يصفف أفكاره إلا بصوتٍ مرتفع، فإن صَمَت فهذا لأنه بانتظار نوارسِ أفكار قادمة لشواطئ حبره من بعيد.

سنتتان وثلاثة أشهرٍ وأسابيع قد مرت دون أن أكتبَ بيتَ شعرٍ واحد، أو عبارة ركيكة؛ ثم بعث الله لي ريم كي تنقذني من الصمت

المطبق فأكتب... سنتان قبل اللحظة وأنا لا أتحدث العربيةَ إلا نادرًا وعبر داخلي فقط.

في أيامِ السجنِ الأولى قابلتُ عربًا قلائل أضاعوا ذاكرتهم قبل لغتهم؛ فصمتوا مدركين أن الياءات التي أطلقوها عبثًا في أوطانهم هي التي دفعت بهم لهذا المكان، فحذفوا من أصواتهم ياءاتِ النداء بالرجاء وتحوَّلوا لسواهم، فانتبذتُ زاويةَ زنزانتي كي أبقى أنا، أو ذلك الشخص الذي أراه داخلي إن كنتُ محقًّا فيما أراه مني، مع أنني تائهٌ أكثر مما يظن المحدقُ إليَّ؛ فأنا أشعرُ مذ أُسرت في هذه الجزيرة أنني أنتشل نفسي وشخصيتي من براثن آخر يقبع في المجهول مني... يحاول انتزاعي إليه... أقاومه بكل ما أمتلكُ من طاقةٍ فأتكلم ثم يهزمني في هذا الصراع فجأة فأصمت... الصمتُ قد يخرسُ الغضب في أحلك المواقف، لكنه قد يساعدك على الانتصار ودحضِ ضدك وغريمك في الشر والخير في لحظة الصدق.

ركبنا البحر هربًا من بنغازي بعد الانفجار بثلاثةِ أشهر متوجهين للوطن، ولم نكن ندري أننا سلمنا أنفسنا لقراصنة البحر وقطاع طرقه. القاربُ لم يتسع للهواء لكن قلوبنا لم تتسع حينها للموت، الركاب تشبثوا بالأمل الذي لا أمل فيه للهروب، وكنت منهم ومعهم قلبًا وقالبًا، فالحربُ تلهثُ خلفنا، والوجوهُ الغاضبةُ بلا سببٍ وجيهٍ تلاحقُ الأبرياء قبل غيرهم. وإذ مضينا مودِّعين الشاطئ لبحرٍ لا نعرفُ عنه سوى أنه الطريق للهرب؛ وجدنا أننا هربنا للهروب ذاته دون أن ندرك ذلك... مضحكٌ أن تفرَّ بكلِّ ما فيك للفرار، ثم لا يقتنع الفرار أنك بين يديه.

أحاطوا بنا بعد أيامٍ في البحر واقتادونا للشاطئ ثم السجنِ بتهمةِ المتاجرةِ بالعبيد... العبيدُ هم الأطفال والحسناوات الذين لم نرهم بعدها، أما التجارُ فهم البؤساء الذين نجوا من القتل تحت نير مزاجِ

القاتل.
صوَّب الجندي السنباري سلاحه الضوئي فور وصولنا الشاطئ نحو رأسي وأطلق الضوءَ الناري على آخر، ثم صوَّبه لرأسي وقتلَ آخر، ثم آخر، ثم آخر... هي التسليةُ بدماء البشر لا أكثر، ثم قالَ كلامًا بلغةٍ لم أفهمها ليضعوني وآخرين على (بغالٍ ميكانيكية) مرددين لحنًا رديئًا لا يخضع لقافيةٍ أو وزن... ولا بد أن أستطرد هنا بجملة مهمة إن سمحت لي: موسيقا اللغة العربية تشبهُ إلى حدٍّ كبير موسيقا الطبيعة ذاتها، تأكَّدت من هذا بالدليل الذي يصعب إثباته بعد سنةٍ في السجن سمعتُ خلالها أغلب اللغات البشرية.

- ألم تُحاكموا؟ *لم أستطع منعَ نفسي من طرح هذا السؤال عليه رغم استرساله.*

- سجنُ الظالمين يبدأ في الطريقِ للمحاكمةِ والعودةِ منها.

- سمعتُ أن أحدَ من كانوا على متن ذاك القارب حصل على براءته، وعاد إلى وطنه.

- لأنه لم يكن بريئًا.

كنتُ جالسةً مع دِن حين توجَّهت نحوي سيلا بغضب مخيف، طالبةً مني أن أفسر سبب طلبي من الإدارة فحص الحمض الأنوي لمريضي أصلان؛ الذي يعرفونه كمريض في قسمنا حسب هويته باسم معروف.

- ومن سمح لك بتجاوزي؟ ثم ما الذي يدفعك للاهتمام بسجين ميتٍ مثله؟ ما الذي تريدين إثباته بخصوص هذا العربي الوضيع؟

لم أكن أمتلك القوة حينها للدفاع عن نفسي؛ لكنني حاولت أن أبرر موقفي خوفًا منها فقلت: هو يدَّعي أنه ليس معروفًا، بل الشاعر أصلان الذي كنتُ أقرأ لكم الكثير من أشعاره، تعرفينه أنت**!!**

- وهل علينا تصديق مجنون مثله؟ ثم لنفترض أن هذا الغبي يدعى أصلان، ما علاقتنا نحنُ بهذه التفاهات؟ نحن ممرضون لا ساسة ولا محققون لنعرف هويته وجذوره اللعينة، وظيفتنا أن نقدم له العلاج، ثم ليذهب هو وشعره وشخصه نحو الجحيم.
بعد أن هدَّأَ دن من غضبها، وطلبت إليها إدارة المشفى عدم التعرض لمريضي خوفًا من شعوذته؛ لم تنفك تسخر من اهتمامي بمريضي رافضةً تصديقَ تبريراتي الإنسانية بشأنه، كنوعٍ من التنفيس وقد أُجبرت على تركي وإياه وشأننا.

- لعلَّك تعوِّضين من خلاله الأب الذي حُرمتِ منه يومًا. ***قالتها سيلا بحنقها المعهود.***

- لم أره كذلك.

- لأنه عربيٌّ مثلك إذن، أو لأنه من وطنك، هذا هو الأقرب.

سمعتُ هذه الجملة ذاتها من أصلان أيضًا عند لقائنا الأول، وبعد سؤالٍ واحد أنه من موطني، فهل قرَّبني الوطنُ البعيدُ منه؟ أم أنني فرضتُ نفسي عليه لأنني أعلم من هو؟

{سَمحوا لكِ بما لا يُسمحُ به من أجلِ الإعلام الكاذب، فرحتِ ترِّوجين كلما زارَ غرفتَه وفدٌ وعدسةٌ للحقوقِ التي يحظى بها السجناء ضمن الشروط المسبقة؛ رغمَ أنك تعلمين بأنها الغرفةُ الوحيدةُ التي شاء لها القدر بأن تكون غرفةَ مشفى لا مقصلة}.

- عليه أن يتحدثَ إليهم عوضًا عن صمتهِ المقرف، عليهم أن يصدقوا أننا نعامل السجناء القتلة أمثاله برأفة وإنسانية. ***قالتها سيلا وقد رفض الحديث للجنةٍ تابعةٍ لجمعية تُعني بحقوق الإنسان حسبَ زعمهم.***

- لن يتحدث، لقد تحدثَ ولم يصدقه أحد، والإدارة وأنتِ ترفضون أن يعرِّفَ عن نفسه.

ابتسمت كأنها لم تستمع لكلامي مخفيةً كرهها له. هذا الكره المجاني الذي تحمله للجميع لا نحوه فقط بقسوةٍ غريبة.

أما هو فقد كرهه الجميعُ علانيةً لكنهم لم يقتربوا يومًا من لغتهِ خشيةَ أن يشيرَ بأصبعه نحو أحدهم قائلًا له: "سأقتلعُ عينيك قريبًا"، كما قال ل باف وقد استفزَّه عبرَ ترديده أغنيةً عربيةً محرفة.

- هو ساحر، لا يعقل أن يكونَ الأمرُ مصادفةً!! ***قالها لي مدير المشفى شاردَ الذهن كمن يستحضر صورًا تأتي من الماضي البعيد بشق الأنفس.***

- لا أظن، هو رجلٌ لا حولَ له أو قوة.

- لكنك تُؤكِّدين بأنه من قال لباف: سأقتلعُ عينيكَ قريبًا.

- نعم لقد ترجمتُ ما سمعته حرفيًّا.

- وها هو باف قد فقد عينيه، ليست مصادفة، الأمر ليس مصادفة.

ظلَّ يرددها قلقًا قبل أن يأمرَ موظفي المشفى بأن يتركوه لي بالكامل، ويصدرَ قرارًا يخولني به أن أعتني به وحدي، وكما أريد حتى موته المُتوقع سريعًا.

- لن يموت.

- الأطباء.

- الأطباءُ لا يعترفون بالسحرة، هذا ساحر لعين، ها قد مرَّت أربعةُ أشهرٍ عليهِ هنا ولم يمت.

- ألا تخشى أن يسمعكَ فيذهب بصرُك أيضًا.

أضحكتني هذه الأحاديث المتفرقة وسرَّتني كونها جعلت منه رجلا مُهابًا، وجعلتني مثارَ شكٍّ للحمقاوات اللائي ذهبن يتوددن لي خشيةَ أن أساعده بما يكرهن.

- ولماذا لم تصدقي بأنني السبب بما جرى لباف هذا؟ *مبتسمًا كان أصلان حينها*.

- لأنك لستَ ساحرًا.

- مشعوذٌ إذن؟!

- لا.

- قد أكون، ما أدراك؟

- إذن اسحرني أرجوك، وحولني لفتاةٍ تزنُ ستين كيلوغراما فقط.

- أخشى إن فعلت أن تختاري مريضًا وسيمًا غيري فلا أجد من أملي عليهِ رسائلي.

- استغلالي. *كدت أن أتظاهر بالغضب ثم عدلت عن ذلك وابتسمت.*

- دعيني أستغلك أكثر.

- هيا. *ورحت أُخطُّ ما أراد لي كتابته.*

- ***البارحةُ*** أمليتُ على ريم رسالةً طويلةً نويتُ توجيهها لوالدتك، لكنني عدلتُ عن إكمالها، وتوقفتُ فجأةً واستسلمتُ للنوم؛ مقتنعًا برأي ريم وكلامها عن الاعترافات المجانية التي لا تفيدُ أحدًا، في حينِ أنها قد تجرح المقابل فقط تاركةً غصتها في قلب المحبين لك.

قالت لي: "ما دامَت لا تعرف هذه الحقائق فلا تنزع منها حزنها عليك بكماشةِ التساؤلات الحديثة والحيرة القاتلة. لو كنتُ مكانَها لغضبت وشتمتُك، ثم لأصابتني حسرةٌ ما لأنني لن أقف على أجوبةٍ تشفي غليلي؛ بعد أكاذيب مات صاحبها وقد قذفها في حجري دون الاكتراث بمشاعري".

الفيلسوفة البدينةُ تزعم أنها اكتسبت ذلك مني، وتقمَّصت دوري في هذه الملاحظة، ولكنني لا أصدقها رغم تسليمي بأننا مهما شرحنا للآخر حقيقةً ما، وفصَّلنا فيها عبر رسالةٍ أو حتى عبر مكالمةٍ هاتفية بالشرح الممل، إلَّا أن المقابل سيصر على مقابلتنا وسؤالنا مجددًا وقراءة ملامحنا، وكأننا نُقرأ ويُستمع لنا من ملامحنا لا من خلال حروفنا وأصواتنا.

قلتُ لها ما لن أبعثَ بهِ إليها، وما تعرفهُ أنتَ وحدك عن علاقتي الأولى بعائلةِ والدتك وكذبي عليهم. وكنت على وشك أن أقول لها ما لا تعرفه أنتَ وهي عني... أمّا ريم فما زالت مصرة على أن لغتي لا تشبهني في تلك الرسالة، بل ولا تليقُ برجلٍ على مشارف السادسةِ والثمانين، لكنها تمتعضُ أيضًا حين أقول لها: كيف لي أن أقنعَ قلمي بأنني أصلان ولستُ معروفًا ظنًّا منها أنني أتفوه بهذا

مجازًا... قد يكونُ هذا بسبب قراءتها أعمالي السابقة، ومقارنتها بما كتبتُ لوالدتكَ على شكلِ رسالة فلم تفرق بين لغةِ القصيدة، والرواية، والقصة، والرسالة فظنَّتها ركاكةً... بيد أني أكاد أُسلِّمُ فعلًا أني فقدت مهارتي الكتابية فتلبسني معروفٌ هذا بالكامل.

حتى لو تلبَّسني فعلًا فهو لا يعلمُ أني حينما بُشِّرت بك قفزتُ كالأطفال في المشفى... ضممت القابلة وقبَّلتها ونقدتها خمسينَ دينارًا وسط دهشةِ الجميع من رفضها واستنكارها لما قمت به، وتكرارها بعصبية: "أستغفر الله أستغفر الله". رحتُ أدور في ممرات المشفى دون هدى، ودون أن أقول شيئًا رغم أن لدي الكثير، اتصلتُ بوالدتي صائحًا بصوتٍ تحشرجت به الدموع قبل المسرة: "لقد حضرَ أخيرًا يا أمي، حضر من زوجتي العفيفةِ القدِّيسة".

انتظرتكَ طويلًا فلمَّا حضَرت، وقد حضرتَ متأخرًا- والذنبُ يقعُ على عاتقِ والدتك التي لم تلتقِ بي مبكرًا من عمري- لم تسعني الأرض، وما إن ضممتك لصدري حتى شممتُ رائحةَ والدي من خلالك... كنتُ أبكي ثم أتوقف، ثم أبكي، ثم أتوقف، ثم أبكي، كأن لا أحد أنجبَ ابنًا قبلي. ورغم إصرار المشفى على مبيتك فيه تلك الليلة إلا أنني رفضت ذلك. حملتُك وانطلقت بك لمقبرةِ ***(سحاب)*** في ***(عمان)***. جنَّ الحارسُ لهذا المجنون الذي أصرَّ على دخولِ المقبرةِ في الثالثةِ صباحًا تصحبهُ ثلاثينية حسناء وطفل رضيع. لكنَّ خوفه من سمحَ لي بالدخول، ومن حرَّضه بعدها على الاستنجاد بالشرطة... حملتك رغم معارضةِ والدتك وخوفها عليك إلى قبر جدِّك. جثوتُ على ركبتي صائحًا: "لقد حضر جودت يا أبي. انظر، أعدكَ أن يكون أديبًا رغمًا عن أنفه".

لعلَّك تتمنى الآن لو كنتَ أديبًا، وتقول في نفسك: لقد خيَّبتُ ظنه.

لم تفعل. ولا يحق لك أمام نفسك أن تكون ما أردتُ منك أن تكونَه، فنحن الآباء علينا فقط أن نحلم بشكلٍ، ومسارٍ، وواقعِ أبنائنا كما نريد، وللأبناء حقهم في رفضِ أحلامنا وصناعةِ واقعهم.

لقد خيبت ظني فقط؛ لأن والدي لم يرَك ولم يضمك بين يديه.

أكثرُ ما يغيظني في الحياة ويؤلمني هو أنني لم أضعك بأحضانهِ، ولم أسمعه شاتمًا إياك... اسمح لي يا بني أن ألومك على هذه النقطة تحديدًا؛ لأنني إن سلَّمت بفلسفةِ الموت والولادة سألوم نفسي، وحينها قد تفقد الكثير من أهميتك لدي.

رجال الأمن لم يقتنعوا بكلامي حينما أخبرتهم أن ولدي لن يمرض من هواءِ المقبرة البارد، وتمتموا بعبارات الجنون والخبل أكثر من مرةٍ فيما بينهم. صحت بهم: والده قاوم المرض بعدما نزف دمه كاملًا في أول يوم ولم يمت، نحن من سلالةٍ نقاوم المرضَ والموتَ صغارًا، ولا نموتُ إلا على صدر القصيدة... تجاهلوا كلامي ولم يصدقوه ظنًّا منهم بأنني مجنون ولو رأوني الآن لصدقوا مزاعمي آنذاك.

- يا إلهي، هذه الجملةُ معبِّرة ومؤلمة جدًا، أنتَ أنتَ أستاذ أصلان.

- لو تحترفين السكوتَ احترافَك المداخلة المزعجة لَـ....

- سأصمت. *وضعتُ يدي على فمي فورًا.*

- ستمنحينني السعادة إن أغلقته باستمرار.

- مممممم.

- ***وثقتُ*** بك منذ اليوم الأول، تصوَّر أنني وثقت بك رغم أنني لم أقابلك حينها إلا من بضع ساعات فقط، وأصدقُ الثقة هي ثقة الأب

بابنه والعكس. فنحن نثق بأبنائنا لأننا نرى أفضل ما فينا من خلالهم، ويثقون بنا لأنهم يأخذون عادةً منَّا ما ينقص اكتمالهم.

وجدنا جدَّتك أمام البيت جالسةً بانتظارنا. وقعَ قلبي حينها ولم يخطر أبدًا في خاطري أنها بانتظارنا، نهضَت سريعًا وتلقفتكَ بلهفةٍ من يدي دون أن تجيب عن أسئلةٍ نسيتُ فحواها الآن، نظرتُ حينها لساعة الحائط فتمنيت لو أنها تسير بسرعة أكبر لأراك وقد كبرت، هذه العبارات قد تتفوه بها النساء لا الرجال في أغلب الأحيان، لكنني شعرت بها لعظم محبتك في قلبي.

لم تكن ابنًا فقط، كنتَ وجعًا أحاول أن أخفيه من خلالك.

أدركتُ حينها أنك الأمل الذي سينسي والدَك فشَله السابق في علاقات كارثية، والتفاؤل الذي قد انتظرتهُ جدتك ليرتسمَ على شفاهي... انتظرتنَا أمام المنزل لا لأنك المولود الذي سيغير الكون وقد أتى بعد رؤيا من صالحة ما ودرويشةٍ بحضوره، بل لأنها أرادت أن تشعرني بأهميةِ سعادتي من خلالها، إنها الأم وقلبها يا ولدي، الأم التي تختلف عن الجميع، وتعرف ما لا يعرفه أحد، الأم يا ولدي التي لا يمكن لقلبها أن يخونها مهما خانها. الأم يا ولدي فقط مَن لا يضيعُ الوقت بحضورها ولا يحسبُ بغيابها.

الشمسُ والبدرُ منذ الخلقِ ما اجتمعا...ووجه أمِّك بالضوءين يجتمعُ لم يكن هذا البيتُ يومًا يا بني مبالغةً في وصفِ جدَّتك، لم يكن مجازًا أردتُ له أن يزيِّنها في الشعر، لكنه الوصفُ الذي يتماشي مع الرؤيا المنبثقةِ من الأعماق، فالأمُّ التي تنفصلُ عنك جسديًّا بقطعِ الحبل السري، هي تلك التي تتوحدُ فيك عبر حبلٍ روحي أسمى لا يُقطعُ مطلقًا ولو كان بُمديةِ ومبضعِ الموت.

ورثتَ حظَّ والدتك من الحياة وحظي من النساء.. قد لا تعلم مدى سعادتي برؤيتك رضيعًا نهمًا للقبضِ على أيِّ ثدي ومحاولتك الرضاعة منه، وتذوق لبنه. أنت لم تنجح بهذا، لكن والدك رضع من جميع جارات وقريبات جدتك بحجة تعويض الدم الذي فقده... الغريب أن تأتي والدتُك وجدَّتُك بعد كلِّ هذا وتتساءلا بحدة عن سبب عشقي للنساء؟! أمَّا حدّتك فكانت حين نعتَّني بالأبِ الظالم بعدما رفضتُ زواجكَ ب حبيبتك ***(هند)***، وبالرجل الحجري حين لم أبرر سبب رفضي، ولقبولي فكرة رحيلك عن المنزل للأبد.

كلانا أدرك وقتها بأنك لن تفعل، فلم تفعل، ووحدي من احتفظ بسرِّ الرفض دون أن يفشيه لأحد.

- منعتهُ من حبيبته؟ ***خرَجت دون قصدٍ مني لائمةً نفسي بضرب يدي على فمي دون توقف.***

صَمتَ طويلًا، مغمضًا عينيه هذه المرة، لأنعت نفسي بالحمقاء طوال صمته قاطعةً على نفسي وعدًا حنثته ألف مرة بألّا أقاطعه بتاتًا، قبل أن يتنهد ثم يسترسل من جديد:

- ***الحبُّ*** يا صديقي ليس كافيًا للارتباط، ولكنَّ الثقةَ القطعية بمن نحب تكفي لنجاحه. هنا فقط عليك أن تتساءل عن تلك الثقة بمن أحببت، وهل كانت ثقةً ناضجة أم مجرد وهم. ***(إبراهيم)*** عليه السلام أحبَّ الله بعد أن عرَّفَه على نفسه، وصرفَ فطرَتَه قبل عينيه عن الشمس والقمر، لكنه ظلَّ متوجسًا حتى أراه الطيرَ وكيفيةَ خلقه... لم يعنِّفه حين لم يتردد بسؤاله، فالسؤال بابُ المعرفة الأهم؛ وإذ وثقَ بما وقفَ عليه لم يبالِ بعدها بمكيدةِ النار واثقًا بمن يحب، فكانت حينها البردَ والسلام. حتى أن ***(ميكائيل)*** نفسه ظنَّ أن الله سيأمره بإخماد النيران بأمطارٍ ونحوها، ولم يتوقع أن يتدخل مباشرةً في كنهِ النارِ وأصلها الذي لا نعلمه ليبطلَ

خواصها.
لقد وثقتَ بمن لا يستحق، وقدَّمت قلبك على طبقٍ من غباء لمن فاقتكَ ذكاءً، وشاهدتَ ما أرادَ قلبك أن تشاهده متجاهلًا أن علينا الثقةَ بقلبنا لكن بعد أن ندرك حقيقته أيضًا، فالقلب كالآلة التي يجب أن تجربها مرارًا وتكرارًا حتى تتأكد من عزمها وجودتها.
يؤسفني أن أقول لك أن عاهرةً صغيرة استطاعت التلاعبَ بك كيفما شاءت... لم أستطع إثبات وجهةِ نظري بطالبةٍ جامعيةٍ رقيقةٍ خجولة أحبها ابني وأراد الزواج بها، فكل ما كنت أملكه لرفضي لها هو إحساسي وخبرتي الطويلة في الحياة عموما والنساء خصوصًا.
تتقارب الأشياء المتشابهة حدَّ الغرابة، ولو أسقطّت الآن خبرتكَ وقد تجاوزتَ الخامسة والأربعين على مَن قابلتهم لعرفت مَن يشبه منهم مَن؛ رغم أن أغلبهم لم يلتقوا أبدًا. وكلمَّا تقدَّمتَ بالعمر قابلت الطبائع التي لم تقابلها من قبل وأشباههم بعد ذلك، فالخيرُ له وجوهٌ قليلة ظاهرةٌ للعيان، أمَّا الشر فله وجوهٌ يصعُبُ حصرُها، ولذا فاستخراج القليل من ذهنك يعرِضُ لك الكثير فورًا.
هند يا بني هي نسخةٌ حداثية عن طليقتي ***(نيران)*** فكيف لي أن أحدثَّك في العشرين من عمرك عن النسخة القديمة بينما كنَّا حديثي عهدٍ في الصداقة؟ كيف لي أن أحدثك وأسر لك بجرحِ والدك وغبائهِ وسذاجتهِ قبل أن يلتقي بوالدتك بسنواتٍ؟ بل كيف لي وقتها أن أبرهن لك أشياء لا يعرفها إلا من لا ترى أنني قد أكون منهم؟
ثق تمامًا أن عدم تبرير الأب أو الأمِّ لتصرفٍ ما وإصرارهما على الرفض أو القبول بشأنه ما هو إلا كلامٌ صادق لم يقل، أو لم يحن الوقت لقوله بعد، وقد تفعلُ الشيء ذاته مع ابنك يومًا فيراك ظالمًا أو متساهلًا؛ رغم أنك لن تتخذ قرارًا بعلوِّ شأنكَ إلا لعلوِّ شأنه.

دفعني حدسي وخبرتي للرفض، وأكدَّهما رائحةُ عطرِها الياسميني على جسدها. العطرُ هو الفاضحُ الأول لمكنون النساء، والدليلُ القاطع على أناقةِ الرجل... بعد عامين من رفضي فقط قابلتُ هندكَ في المحكمةِ برفقةِ رجلٍ مسن فظننته والدها بادئ الأمر، ثم عرفتُ من صديقي المحامي أنه صديقها.

- كيف لحسناءٍ مثلها أن ترافق رجلًا كهذا.

سألته مستغربًا فقال لي ساخرًا:

- المال يا صديقي من يُجمِّلُ ويذلل ويدلل و...

- يكفي.

الدنيا صغيرةٌ أكثر مما نظن، والدنيا من جمعتني بعدها بشابٍ يشبهك تمامًا قال لي: "تزوجتُها ثم تفاجأت في صباح اليوم الأول وقد غادَرت لمنزلِ ذويها رافعةً عليَّ قضيةً أستحي من ذكرها". قال لي والده حينها والذي بدا أنه يشبهني كثيرًا: "أحاول فقط الخروج بأقل الخسائر والفضائح يا أستاذي". رأيتها بعد ذلك في فيلا خاصة ضمن حفلٍ خاص لأحد أدباء الجهاز الهضمي، وقد رقصت مع أحدهم حتى لم يعتب على جهود خواصرها الجبارة أحد.

نيران فعلت ذلك بي يومًا، خدعتني ببراءتها فتزوجتها ليقذف أحدهم في أذني جملةً قاتلة: "أو لم يخبرك أحدٌ بماضيها العريق يا صديق؟"، لم أمتلك دليلًا بل إحساسًا وجملةً تجلدني كلما تذكرتها. منعتها أن تعمل، منعتها من الخروج، منعتها أن تتحدث للنساء قبل الرجال لكنني لم أستطع منع إحساسي أن يتعاظم داخلي، لم ترقص بالطبع شبهَ عاريةٍ في مجتمع قميء كمجتمع حبيبتك، لكنها بعد أن طلقتها عملت مباشرةً في الشركةِ التي بدأت حياتي بالعمل فيها

فقفزت من موظفةٍ تعملُ براتبٍ زهيد في قسم الاستقبال إلى مديرةٍ اعتبرت الشخص الثاني في شركة عملاقة.

قال يومها أحدُهم لنا بخباثةٍ دموية فيه: "ليتني أمتلكُ عجيزتها لقدمتها فورًا لمديرنا الفاسق على طبقٍ من الغنجِ، وارتحت من عناء الحسابات، والجرد، ومناكفة هذه الصناديق الورقية، رفعُ القدمين أسهل عندي من رفعِ قضيةٍ بسبب اختلاسٍ شيطانيٍّ صغير"... ضحكوا وامتعضتُ لأنها كانت زوجتي قبل شهرٍ فقط، ثم تابعوا ضحكاتهم حين علقَ على أمنيته آخر: "عليكَ ألّا تظلمها، إنه قذفٌ للمحصنات يا رجل، أظن أن الأمر اقتصر فقط على الجنس الفموي، ولم يتجاوزهُ لأبعد من ذلك، هو فاسقٌ فعلا لكنه أبن أصول!".

سكرتيرة ذلك المدير هي الشاهدة الوحيدة على الحقيقة، وهي مَن قالت لي بأن نيران دخلت باكية مرتميةً في أحضان ذاك الفاسق رغم استنكاره تصرفها بدايةً؛ شاكيةً مديرها المباشر، مقسمةً بأنه ظلمها. وهي أيضًا من أقسمت لي - أي السكرتيرة- أن نيران وقفت تفوح منها رائحة عطرٍ نازيَّةٍ وإياه أمام باب مكتبه صباحًا حين أشار لمكتبه الداخلي قائلًا لها: "هذا الباب ولا غيره من سيوصلك للمجد والقمة مُختصِرًا عليك الأميال... خطوتان للأمام وعشر خطواتٍ لليسارِ، ثم ثلاث لليمن فقط لتكوني في المكان المناسب".

- عشرةُ أعوام وأنا أتحايل عليه ممارسةَ أقذر أساليب الإغراء باللباس، والصوت، والعطر، والصدفةِ، ولم يحرك ساكنًا. كل ما فعله أن صفعني يومًا على عجيزتي ثم اعتذر عن هذا، وكأن اللعين رفضَ حتى إشعاري بلذة الخطيئة العابرة، أمَّا هذه اللعينة فبغضون شهرٍ فقط حصلت على جميع ما تريده. ***هذا ما راحت تفضفضُ لي به السكرتيرة.***

- كان عليه أن يصرف لك مكافأة حقيقة مقابل تلك الصفعة، لا أن يعتذر.

- الجميع قال لي هذا، تصور أن تلك السمراء. *وأشارت لإحداهن*. والتي تملَّصت من بين يديه بعد ألف قبلةٍ وضمة، كان في كل مرةٍ يبعث لها بمكافأة على جهودها العملية رغم فشلهِ معها!!

- مع أنك أجمل منهن حقيقةً.

- الجميع يقول هذا، حظَّ الجميلات دائما سيئ.

قد يكون من المُستهلك أن أقول لك بأن هذه السكرتيرة كانت تتحدث إلي وهي تمضغ اللبان؛ وتنظر بين الفينة والفينة للمرآة معدلةً خصلات شعرها، وتصبغ أظافرها بلون فاقع بأناةٍ بعد أن تنفخ على كلِّ واحد تنتهي منه كعدوٍّ لها، بيد أنها في الحقيقة كانت تفعل ذلك، ولا زلت حتى اللحظة، أجهل ما هو الرابط العجيب بين هذه المهنة وبين اللبان، وطلاء الأظافر، والمرآة والنظر إليها!

لم تكن جميلة لكن يتحتم عليك لأخذ أي معلومةٍ مجانية سريعة أن تتغنى بجمال ورقة المرأة قبل أناقتها، فإن كانت ممن يعرفن قيمةَ جمالهن من عدمه فهؤلاء تحديدًا امتدح جمالهن الداخلي فقط وكرر جملة: "الجمال جمال الروح" كل خمس دقائق أمامها.

بالطبع تركتُ العمل فورًا كأمرٍ متوقع لكن الذي لم أتوقعه أن نيران وبعد أن وصلت للقمةِ التي طمحت إليها خلال شهرٍ فقط، والتهمت ما التهمته من أموال تحوَّلت للعمل سريعًا عند صقر قبل أن تتزوجه. صقر الذي كانت شركاته تنافس شركات سمير بكلِّ الطرق المشروعةِ وغير المشروعةِ وبأموال مشبوهة، أمَّا الأعجب من أن يتزوج صقر طليقتي وتحظى هي بما أرادت من الحياة، أن يحاول شرائي بعدها بسنواتٍ بالمال لمحاولةِ الإيقاع بصديقي

سمير. وضمن خطةٍ بسيطة اتفقت عليها أنا وسمير جعلنا منه -بعد تجرُّعهِ الخديعةِ التي أوقعناه فيها بدل أن يوقعَ هو فيها سميرًا كمَّا ظنَّ -أضحوكةً في مجتمع الأثرياء حتى ضُرب به المثل في الغباء والسذاجة، حتى قيل في وصف غبي ما : "أغبى من صقر".

يتشابهون يا صديقي ولا تتشابه الظروف والحظوظ فقط، فكلٌّ ينتهزُ فرصته المتاحة له... يتشابهون يا صديقي سيما حين يظنون أنفسهم أذكى من غيرهم، وهذا ما حدث أيضًا مع عائلة أمك قد أخطؤوا بقراءتي صادقًا بعد أن أخطؤوا بقراءتي كاذبًا، وهذه هي مشكلة الذكي حينما يرى أن ذكاءه فقط كفيلٌ بالحكم على الأشخاص المقربين منه، فأغلبهم يتناسى فكرة التطور الفكري لدى المقابل مبقيًا الانطباع الأول أمامه طوال الوقت لا مَن أمامه حقيقةً، المشكلة ذاتها يواجهها السفلةُ حين يظنون بأنه لا يقترب منهم إلا من يشبههم.

لم أكن قد تزوجت والدتك حين وجدتُ أن بضعَ كلماتٍ قليلة قالها جدُّك أمامي مصادفةً كان نقلُها حرفيًّا للمنافسِ يعني مبلغًا دسمًا يكفي لمصاريف الفندق، ودفعِ إيجار الشقة المفروشةِ، واستئجارِ سيارةٍ فاخرة أخرى، وشراء بعضِ البدل والملابس الأنيقة. أمَّا الهدايا الثمينة فهي تمامًا كحليِّ والدتك يومَ زفافنا، لم تكن إلا هدايا مُزيَّفة.

مرَّ يومان من عمر هذا الحديث الذي توقف عند هذه النقطة، بعد أن مرَّت ستةُ أشهر على وجوده في المشفى. يومان ولم يفعل شيئًا سوى التحديق بي بذهول، ثم النظر نحو النافذة مُسرِّحًا بصره للبعيد. تجاهل كلامي بالكامل فلم يعد يحدثني إلا باقتضاب شديد، بل بدا وكأنه نسيَ تماما ما أملاه عليَّ من يومين رغم محاولاتي وحثي له أن يكمل.

صمته المفاجئ وشروده يدفعانني للتأمل بكلِّ شيءٍ حولي لأجدَ الكثير من الأشياء المزيفةِ حولنا. لعلَّها تبدأ بالابتسامة مارةً بكلامنا وملامحنا منتهيةً في الملموسِ من الأشياء.

{لو استطعتُ فقط تزويرَ بدانتي بعد فشلي الذريعِ بأن أنقصَ كيلوغراما واحدا لكنتُ الآن سعيدة جدًا. نستطيعُ تزوير المشاعر والكلمات وتزييف الكثير من الحقائق، وارتداء اقنعةٍ مختلفةٍ وخلعها باستمرار لكن أحجامنا لا تتغير إلا عند ميقاتها}.

فورَ صعودي الطائرةَ الأخيرة قرأتُ في ملامحِ من جلست بجانبي الدهشةَ من حجمي. أظنُّها قالت: كيف سنطيرُ وهذا الفيل معنا؟ راحت بعدها تمارسُ قدَّاسها بخشوعٍ ممتع. راقبتُ تمتماتها محاولةً فهمَ ما تقوله أو فهمَ اللغة التي تتحدثُ بها؛ وقد وجدتُ يدي ممسكةً بيدها، لم تكن يدًا ناعمة حين أجهشت بالبكاء، فوجدتُني أحتضنها بحرارةٍ دون وعيٍ مني، لماذا قمت بهذا؟ وما الدافع الذي حرضني على القيام به؟ هي مشاعرٌ لا تفسر... شعرتُ حينها برعشةٍ تدب في أوصالي، ورائحة عطر قويةٍ تتدفق إلى رئتي، وكأن روح هذه المرأة تنتقل عبر مساماتي. حاولت أن أترك يدها بيد أنها ضغطت على كفيَّ بشدة وراحت ترتعش أيضًا وكأنها في ملكوتٍ آخر. أردت طلبَ النجدةِ وقد تملكني الخوف لكنني تشجعت محاولةً الإلمام بحالتها أو حالتي.

أنفاسي المتقطعة، والأشواك التي شعرتُ بها تخترق شراييني؛ وانعدام الهواء في رئتي كلها دفعتني أن أتحرر من قبضتها وأجلسَ بعيدًا والجهد ينزفُ من رعشاتي... نظرتُ إليها بعد هبوط الطائرة وقبل أن يقتادوني للأرضِ فوجدتها تنزع عن رأسها شعرًا مستعارًا وعن عينيها رموشًا مستعارة، وتنزع عن وجه جلدها جلدًا آخر قد التصقَ به أو الصقته به... لوَّحَت لي، أو لوَّح لي، لا أعرفُ تحديدًا ما هوية الملوح! لكنني لم أشعر أنني خدعت، أو أنني حمقاء حينها، رغم أن الموقف بدا غريبا ولا يُصدق.

- لأنكِ فعلتِ ذلك من أجلكِ أنت. ***علَّق بها أصلان على حديثي بعد أن دب به النشاط والإحساس بوجودي فجأة.***

- أظن ذلك.

- بل هو ذلك، نحنُ نبحث عن حقيقتنا الضائعة في عيون الغرباء الدافئة.

- لم أنظر لعينيها أو لعينيه حينها.

- عين قلبك لا عينك.

- "أمَّا الهدايا الثمينة فهي تمامًا كحليِّ والدتك يومَ زفافنا، لم تكن إلا هدايا مُزيَّفة"، وصلنا إلى هنا. ***والتقطتُ الورقةَ والقلمَ مرةً أخرى منتظرة ما يريد مني كتابته بخط يدي.***

سرَّح بصره في أرجاء الغرفة ثم تسمرت عيناه على الساعة وتابع:

- ***لطالما*** استوقفني طقم الماس الذي تلبسه والدتك، قد لا تصدق أنني اشتريته حينها بألف دينار، في زمني كان الدينار يشتري يا بني ساندويشة شاورما رديئة... قلده جواهريٌّ أرمني في سوق اللصوص فبدا مطابقًا للذي اختارته والدتك من أفخر محلَّات

المجوهرات في الوطن... ألبستها إياه وسط دهشةِ الحضور. دارت العيون كما دارت الأسئلة حولي وعلى مقربة مني: من أين له هذا؟ واحدٌ فقط كان يعلم الحقيقة كاملة هو: سمير بيك. نصحني حينها طالما أنني مضيتُ بالكذب أن أصدق ما كذَّبت به. قال: عليك أن تتقمص الدورَ بالكامل حتى النهاية وتصدق أنك من تقنعهم به، كن الآخر حتى معنا، ولطالما ضحك من أحاديثي حول ما فعلته وما سأفعله لاحقًا، ورغم ذلك فقد احتفظ بالكثير من آرائه لنفسه رافعًا يديه كلما استشرته بأمرٍ ما... لطالما كرر مقولةً لم تتحقق رغم يقينه بحدوثها:"ستكون عاقبتك وخيمة يا صديقي".

بعد عشرينَ عامًا من زواجي اشتريت لوالدتك طقم الماس الحقيقي، ومن قلبِ المتجر الذي رأته فيه تحديدًا. لكنني كثيرًا ما كنتُ أضعهُ بدل المزيف على غفلةٍ منها بعد إخفائه؛ قبل أن أعيد المزيف لمكانه مخفيًا الأصل لترتديهِ عند حاجتها لذلك، وفي كلتا الحالتين لم تعلم أنها امتلكَت طقمين توأمين من الماس شكليًّا؛ ولا علمت أنها تلبسُ تارةً هذا وتارةً ذاك... فالجمادات لا تنطقُ يا صديقي إلا لنبي، والنفوس فقط من نستطيع تمييز أصيلها من مزيَّفها إن سعينا لذلك.
طقمُ الماس كقصيدةٍ شعريةٍ قلَّد صاحبها قصيدةً جزلةً مشهورة فرفض القارئ أن يرى التزييف، ورفضَ الحافظ لها أن يرى التقليد، ورفض الناقد أن يرى السرقات، أما المعارضُ لهما فنصيبه ضحكات الآخرين عليه.

قيمةُ هذا الماس لم تكن بقيمته المادية، بل بقيمته التي أشعرَنا صاحبُه بها. فعدم التفريق بين الأصل والتقليد لدلالةٌ على تفاهة النفس المتعالية، وقصورِ النظرةِ الخارجية عن رؤية الحقائق.

فالقَصرُ مهما عظُم فلا نشغلُ منه إلا ما يلزمنا منه، واللباس لا نلبس إلا ما نستطيع حمله على أجسادنا أو ما يناسب ذوقنا، والوطن الذي نقصده كمسافرين لا نتمتع إلا بما رأينا منه، والبحر الذي نسبحُ فيه لا يصيب موجه إلا ما ارتطم بنا... نحن نفس واحدة، وجرمٌ واحد، ومحالٌ أن نتعدد في ذات اللحظةِ والمكانِ إلَّا كنسخٍ الكترونية، لذا فإننا لا نحصلُ في كلِّ ما نملك إلا على الذي نلامسه وقتيًّا بأجسادنا، أو تراه أعيننا مباشرة وإن حيزت لنا الدنيا بحذافيرها.
شاءت لي الأقدار أن أتسلم جائزةً عن روايتي أثناء خطبتي والدتك، وقبل أن أتعرف بسمير بأيام والذي أقنعني بالعمل لديه براتب لم أحلم به من قبل. سمير تحديدًا يشبهني في الكثير من الأمور أبرزها: أنه يكره الجشع، ولا يحب الكاذبين رغم أنه يكذب للضرورة، إضافةً إلى أنه من محبي الشعر والأدب، ومن كارهي الطبقة المخملية التي وصل إليها من القاع كما كان يخبرني، وعبر مجهود خرافي من العمل والكد.

الحقيقة ورغم زواجي بوالدتك وحملها بك، ورغم عدم اكتشاف أمري إلا أنني انتظرت اللحظةَ التي سيكتشف العالم بها كذبي وخداعي... كثيرًا ما رددت بداخلي الجمل التي سأقولها لوالدتك وذويها عند اكتشافهم حقيقتي. كثيرًا ما تخيَّلت طريقتي في الحديث والإحداثيات للموقف وكل ما يتعلق بتفاصيله القادمة، كثيرًا ما فكرت بما لم يحصل يومًا، وكثيرًا ما فكرت بمبرراتٍ لم أحتج لها؛ سيما بعد أن تخلت عائلة والدتك عنها بالكامل بعد حفلِ زفافنا. خيَّروها بعد المشاجرة التي حدثت يوم الزفاف بيني وبينهم فاختارتني؛ وانقطعت عنهم وكأنها لم تكن ابنتهم يومًا. قد لا تصدق أنها لم تكترث لموت جدَّيك، ولم تحضر جنازة أيًّا منهما. قلت في نفسي: لعلَّ سبب ذلك هو حرمانها من الميراث، أو

بسبب تجاهلهم لها بعد زفافنا وصدودهم عنها. قلت هذا محاولًا فهم التضاد بين رقتها والقسوة التي كانت تظهرها نحوهم سرًّا، أو عبر ردودها الجافة فيما يخصهم.

- من العجيب أن تنقطع العلاقة بين فتاةٍ وذويها بهذا الشكل. ***قلتها بصوتٍ منخفض رغم تقصُّدي إسماعه هذا بيد أنه تجاهلني كعادته وأكمل حديثه كأن لم يسمعني.***

- ***ديواني*** الأول حقق مبيعاتٍ هائلة وشهرةً غريبة، وعليك تصديقي إن قلتُ لكَ الآن: إنني لم أكن أستحق هذا. كنتُ مبدعًا ولا زلت ولن أنتقص من قدري بهذا الشأن، ولكنني انشهرت بسببِ خطأ حدث صباح السادس من أيار من عام ٢٠٢٢م حيث استيقظت على محادثةٍ هاتفية مِن صوتٍ نسائي جاء فيها:" أستاذ ***(أوصلان)*** أنت مدعو للمشاركةِ في مهرجان ***(الحمامة)*** الدولي، نرجو منك تزويدنا بصورةٍ عن جوازك وسيرتك الذاتية كي يتسنى لنا التشرف باستضافتك". كنتُ سأصحح كلمة ***أوصلان بأصلان***. إلَّا أني تجاهلت هذا الخلط بين الاسمين فلم أعر الأمر اهتمامًا، وبعثت لها ما طلبت عبر الإيميل الذي وصلني وانتظرت الدعوة، رغم عدم تصديقي أنني أخيرًا دُعيت لمهرجانٍ ضخمٍ كهذا.

هالني بعد ذلك الاستقبال الحار الذي حظينا به كشعراء وأدباء في فندق ***(البترو)***، متعجبًا من وجودِ شعراءٍ أجانب من كافةِ أرجاء العالم؛ وشعراءَ عرب كنت أتمنى أن أحظى بصورةٍ يومًا معهم.

حتى ذاك الوقت كنت أتساءل بغرابةٍ كيف وجِدتُ أنا بين هؤلاء؟! لم تخطر ببالي دعوةُ جدتك قط، بل حدسي من راح يحدثني بوجود خطأ ما وسط كلِّ هؤلاء، ووسط هذه التحضيرات، والكاميرات،

والإعلاميين، سيما أنني لم أجد من بين الشعراء المشاركين الشاعر: ***(أوصلان حميد)***... والدُك يومها التقى بالمطربة الهابطة ***(ليدا)*** شخصيًّا، وفورَ التقاطي لصورةٍ بجانبها قبلتها أربع مرات. قلتُ لها:"هذه القبل فقط كي أخبر أبنائي يومًا بأن والدهم قبَّل أجمل امرأة في العالم". هذه القصة لا تخبر بها أمك ولا إخوانك الذين قبلتها من أجلهم. ثم عدت وقبلتها أربعَ قبلات أخرى قائلا: "هذه من أجل والدهم فقط". ضحكت باستغراب حينها قائلة: "لم أكن أعرف أن الشعراء خفيفو الظلِّ إلى هذا الحد". هل تساءلت عن سر الرقم أربعة في عدد القبلات؟ تساءلتُ قبلك عن هذا الأمر، وحتى هذه اللحظة لا أعرف لماذا توقفت عند الرقم أربعة، ولماذا لم تكن خمسة أو عشرة مثلا؟ وهنا يتوجب عليّ أن أسدي نصيحةً لك في غاية الأهمية "إذا هبَّت رياحك فاغتنمها". كلا لا تغتنمها. اعتذر عن هذه النصيحة فريم زورتني بنظرةٍ حادَّة جعلتني أتراجع عن نصيحتي هذه. ***قال هذا بعد أن رفعت حاجبيّ مندهشةً من نصيحته.***

لكن بالعودةِ للقبل وأعدادها سنكتشف أن الأمور الجميلة هي تلك التي لا نعرف تواريخها وأرقامها وحساباتها، فالرياضيات علمٌ جاف لا يصلُح أن تُخضعَه لقانون الجمال... عليَّ أن أضيفَ أمرًا غاية في الأهمية وهو أن ليدا طلبت بعدما نلتُ الشهرة التي حظيت بها السماحَ لها أن تغني لي قصيدةً، فرفضتُ ذلك بل ووبختها على هذا الطلب الوقح، مع أنني كنتُ داخليًّا أتمنى لو أهديتها ديواني كله سرًّا، ليس ذنبي يا بني بل ذنب دمائي التي فقدتها وعوَّضتها بدماء جميعِ أصناف النساء اللائي رضعت منهن.

- ***حالتهُ*** غريبة... وفق هذه الفحوصات كان عليه أن يموت منذ عشرين سنة على الأقل، بل قبل أن يولد أصلا، والأغرب من هذا كله أن يستطيع السير أيضًا. هذا الرجل معجزةٌ متحركة. ***قالها دن ضاربًا يده بجبهته من هول المفاجأة، وقد أصدر بفمه صفيرًا طويلًا.***

دن الهندي هو أقرب الزملاء لي في هذا المشفى، وهو الشخص الوحيد الذي أخبرته بقصتي مع أبي سند في مشفى الوطن، وهو الوحيد الذي شعرَ بندمي الحقيقي على ما اقترفته يداي ونفسي الشريرة، بل هو الذي طالبني مرارًا أن أتصل به وأعترف له معتذرةً؛ كي أريح نفسي من عناء الذنب.

- اتصلي به فقط، أنا متأكد أنه سيغفر لك ويتفهم حالتك النفسية التي أدت بك لفعل هذا. ***قال هذه الجملة بالعربية لا السنبارية إذ كان من عادته أن يخاطبني بها بطلاقة متوددًا لي بذلك ليشعرني بقربهِ مني وحنوِّهِ علي.***

- هل تريد مني أن أخبره أنني كنت السبب بطرده مخزِيًّا لأنني غرت من ابنته، وشعرت أنه ليس من حقها أن تمتلك أَبًا مثله؟ لطالما عاملني مثلها لكنني لم أحترم هذا الشيء، بل رحت أنتقم من خلاله من أبي الذي مات تاركًا إيّاي بين أمي وزوجها دون ذنب اقترفته. أنت لا تصدقني يا دن. أنا فتاةٌ مريضة أساءت لمن عطفَ عليها وقربها منه، فبدل أن تعامله بما هو أحسن افترت عليه.

- سيسامحك، صدقيني.

- لا أمتلك الجرأة لهذا، لا أمتلك الشجاعة الكافية لأن أعترف بهذه الخطيئة. قد كاد أن يُسجن أيضًا، ثم إنني لا أستطيع أن أتحدث وأعتذر عن شيء حدث قبل اثني عشر عامًا على الأقل، لعل أبا سند الآن قد واراه التراب، إن لم يكن نسيَ من أكون وما حدث له

حينها. ***{لا أستطيع أن أخبره بما أعرفهُ وما جرى لأبي سند بسببي}.***

- قلت لكم بأنه ساحر. *قطعت سيلا حديثنا الخفيت السري وراحت تحدِّقُ بشاشةٍ زرقاء بعنايةٍ بالغة.*

لطالما شعرتُ أنها تميلُ للحديثِ عنهُ مختلقةً المواضيع لأثرثرَ عنه وعن حواراتنا معا، رغمَ مقتِها الواضح له، ولأن الموت المجاني أحاطَ بنا من جميعِ الجهاتِ سواءً عبر ضحايا الحرب الهائلة أو ضحايا المشفى ذاته، فلم نعد نفرِّق بين عملِنا الحقيقي مع المرضى، وإن بدونا قساةً، وبين تعاطفنا مع حالةٍ خاصة وسط هذا الكم الضخم من الموت.

كان بإمكانها قبل يومين حقن أحد المرضى الذين تشرف عليهم بعقارٍ لينجو من الموت... راحت تنظرُ إليهِ بعيونٍ باردة حتى تشنَّجت عضلاته ومات، دون أن يغمض لها جفن... بقيَت الحقنةُ في يدها أمام الجثةِ الساخنةِ للحظات وسط ذهول دن الذي همس بها خوفًا لإعلامها لا توبيخها: لقد مات.

نظرَت إليهِ نظرةً لا معنى لها: لقد مات فعلًا.

- لماذا لم تحقنيه؟

- نسيت، كثيرةٌ هي الأمور التي علينا نسيانها. *ببرود قاتل.*

حقَنَتهُ ميتًا بعد أن تبسَّمت ثم أرخت عليهِ غطاءً طالبةً من دن التبليغ عن حالةِ الوفاة، ثم غادرت كأن شيئا لم يحدث.

- لقد قتلَتهُ بدمٍ بارد، أعلمُ أنها ليست المرة الأولى لكنها الأقسى. *اتسعت حدقتا دن حينها.*

- مَن ينجُ من العقاب مرارًا يغرق في الذنب.

- ألا تخافين على ذاك العربي منها؟ أنا أرتعبُ من وجودها حقيقة.

- تخافهُ أكثرَ من خوفكَ منها، لم تقترب منه مذ جاء إلى هنا.

راح حينها دن يرتعش وقد جلس في مكتبه الصغير لساعةٍ على الأقل خوفًا منها، بل وتفاجأت منه حين راح يحدث نفسه بصوتٍ مرتفع وهو يهتز في مقعده دون توقف، يسألها بصوتهِ الخشن الصادرِ من جوفه ثم يرد على نفسه بصوتٍ ناعم كطفلٍ يلاعب الدمى. راح يتحدث اللغة الهندية التي لا أفقهها لكنني علمت أنه إمَّا أنه يسأل ويجيب أو أنه ينتقل بين عالمين مختلفين في حواره، للحظةٍ كدتُ أضحك وأنا أراقب بطنه الكبير وهو يضرب بطرفِ الطاولةِ فيكادُ يقلعُها من مكانها قبل أن أشعر بأن المقعد سيتحطم تحت وزنه الثقيل... منظره وحركته أنسياني بأنني أبدنُ منه فلمتُ نفسي على سخافتي التي تفرضُ نفسها دوما في غير أوانها. ***{هؤلاء الهنود لديهم طقوس أقرب لحالات الجنون منها لممارسة الشعائر}.***

رجوته أن يهدأ قبل أن يستفيق من حالته الغريبة هذه، فأمسك قلمًا وراح يرسمُ وجوهًا غريبة بتقنية مذهلة. لم أكن أعلم مُسبقًا أنه يمتلك هذه الموهبة رغم أن الجميع يتحدث عن براعته الغريبة في عمليات التجميل، ورتق الجروح وإخفاء كوارث الحروق، قيل لي يومًا بأنه حاز على جائزةٍ عالمية قبل سنواتٍ طويلة بعد أن طلب إليه مخرجٌ ما في فيلم، وقد سمع ببراعته؛ أن يقوم بعمل فنيي التجميل لصعوبة الأشياء الموكلة إليهم، والتي لا يستطيعون إتقانها بسبب دقة وصعوبة عمل الوجوه المزيفة التي ابتكرها المخرج آنذاك.

"تخافهُ أكثرَ من خوفك منها" رحت أردد هذه الجملة في سري بعد القلق الذي اعتراني ليلتها، وقد تذكرت هذا الموقف بعد أن حاولتُ

تجاهله بالكامل مُسبقًا؛ لكن ثقتي بهذه الجملة قد تبددت حين أخبرني بعدها دن أنه شاهدها جالسةً بجانب أصلان واضعةً قدميها على طرفِ السرير.

ركضتُ باتجاههما مسرعةً خوفًا عليه، رأيتهما يتحدثان ولم أسمعهما؛ لأن الخوف منعني من كلِّ شيء حينها، ***{كيف ذلك؟ هي لا تتكلم العربية ولا يتكلم هو السنبارية!}***، يتحدثان، أنزَلَت قدميها ثم وقفت أمامه وما زالا يتحدثان. انتبها لوجودي فصمتا وقد أشارَ للحائطِ فنظرَت لمَا أشارَ إليه... كلا... أشار للساعة الحائطية.

- وتقولينَ أننا تحدَّثنَا أيضًا؟ *سألني أصلان مُستغربًا*.

- نعم، رأيتكَ تحدِّثها بأمِّ عيني، اعترفْ بذلك.

- كلا لم أفعل. *ضحك حتى بانت نواجذه فأرداني في الحيرة وكأن ما رأيته كان حلمًا*.

أنكرَت ذلك أيضًا غير مكترثةٍ بما وجهتهُ لها، لم عد أخافها فجأةً، بل استشعرتُ حذرها الجبنيِّ مني.

- أنت تتحدثين العربية، أعلم ذلك.

- كلُّ ما أعرفهُ عن كلام العرب هو الأشعار المترجمة التي سمعتُها وغيري منك.

- رأيتكِ يا سيلا، لقد رأيتك. *صحت بها*.

- واهمةٌ أنتِ يا عزيزتي ريم، كلُّ ما هناك أنني سأقوم بعمل الفحوصات التي تقدمتِ بها قبل أشهر للإدارة لإثباتِ ما لن يُثبت... يبدو أن مريضَك الخرِف أصابَك بالعدوى.

لم يصدقني دن أيضًا ناعتًا إيّاي بالمجنونة.

- ولماذا وافقت على إجراء الفحوصات؟ *سألتهُ بغضب*.

- من الممكن أن يكون شيءٌ ما حدثَ في الخارج بخصوص ذلك الشاعر المفقود، فأرادوا التأكد من أقواله أو أقوالك؛ فحوصات كهذه لا يُسمح بها إلا بقرار من أمن الدولةِ في هذه الجزيرة، لا بقرار إدارة مشفى يا صديقتي.

تنقلت بين وهم عيني ووهم ما رفضا الإفصاح عنه، فما هو الوهم؟ أهو ما لا نراه؟ أو ما لا يتحقق؟ أو ما لا يصدقه الآخرون؟ إن كان الوهمُ هو اللاموجود، ففي العقول المفكرةِ وجودٌ لأشياءَ لا نراها، فكيف للأذهانِ تصورُ شيءٍ لا تعرفه راسمةً إياه إن أرادت تصويره؟!. ثم إننا قد ننقلُ اللاوجودَ للوجود ماديًّا عبرَ حرفٍ ونغمٍ وخطٍ وملمس. لكننا لن نستطيع نقل الحدث الذي نراهُ للوجود مرةً أخرى. ما نراه على الشاشات الضوئية ما حدث يومًا، لكن أصل الشيءِ في ما نراهُ موجودًا غير موجود في الحقيقةِ لحظتها. كثيرةٌ هي الأشياء التي في الأذهان لا الأعيان... منها صورة أبي سند وهو يخرج جارًّا انكساره بسببي. اتجهت للإدارة للاعتراف بذنبي، وقفتُ أمام مديري بيد أنه رفض أن يستمع لأي شيءٍ بخصوصه ناعتًا إياه بالسارق المحتال.

- هو لم يسرق، أنا مَن سَ..

- أنتِ أو سواكِ، لا يهمني ما حدث، ما يهمني هي الحقيقة التي وضعنا يدنا عليها.

عندما صرَّح مديري بهذا تيقنت بأنهم كانوا ينتظرون شيئًا يدينه ليطردوه.

"أنت أو سواك" هذه جملةٌ اختصرها من أصل جملة طويلة هي:"سواء أنت أو سواك من كان خلف هذه الحيلة فقد أسديتم لنا معروفًا بطرده، لأننا انتظرنا هذا، شكرًا لكم على ما قدمتموه".

وجدتُ نفسي بعدها قد نُقلت لقسم آخر كإجراء غير مبرر وسط دهشةِ الجميع، ومعرفتي الحقيقية بالسبب وراء ذلك.

إنها أشياء تجعلني أغضب شاعرةً بالخزيِّ لمجرد تذكرها؛ محرضةً إيّاي على العصبية والتوتر الدائمين لذا وجدتني أصيح فور تذكرها بأصلان:

- أنا لا أصدقك. *صحت به كأنني زوجةٌ اكتشفت خيانة زوجها للتو.*

- لكننا لا نكذب على فراش الموت.

- كذبتَ كثيرًا، ولن يمنعك الفراشُ الأخير عن طبعك، أنتَ تكذب، لقد رأيت سيلا تتحدث إليك أيها الكاذب. *قلت هذا وقد رحت أحرِّك يدي بالهواء من فرط الغضب، بينما راح جسدي يرتعش ويتحرك بحثًا عن أي شيءٍ لا أراه.*

جملةٌ جعلتهُ يصمتُ أسبوعًا كاملًا دون أن يتحدث إلي، وموقف غضبٍ جعلني ألعن نفسي ألف مرة بالدقيقة لأنني قمت بهذا التصرف الأرعن.

لم أرَ عينيه خلال هذا الأسبوع إلا مصادفةً، أو إن نظر إلى الحائط، إلى الساعة دون أن يشعر بوجودي حينها، تجاهلني ولم يعد يتحدث، اكتفى بتقديم جسدهِ للفحوصات والعقاقير، ليسير بعدها بين النافذة والجدار صامتًا ثم يعود بعد دقائق منهكًا إلى سريره مغمضًا عينيه فقط.

- أعتذر منك أستاذي، آسفة، سامحني أرجوك، أنت تعرف أنني فتاة حمقاء. أنا ريمُك يا أستاذي فلا تعذبني وتعاقبني بسبب غبائي... رحتُ أبكي بحرقة على صدره دون أن يحرك ساكنًا. رحتُ أنتحب وأصيح به بين الفينة والفينة بأنني أكرهه، وأتمنى موته أو موتي كي أرتاح.

ظلَّ صامتًا كأن لم يسمعني، والدي أيضًا لم يسمعني حين جاؤوا به للبيت. هززتهُ كطفلةٍ لا تعرف أن للموتِ صمتًا باردًا مزعجًا لا يروي فضولًا.

- متى سيعود؟ سألتُ والدتي ببراءة طفلةٍ لا تعرف عن الموت سوى تهجئة حروفه.

ضمَّتني إليها باكيةً بقوةٍ منتحبةً على زوجها الشاب الذي فقدته في ريعان شبابها أيضا؛ قبل أن تضمَّ جادًا الذي تزوجت به ضمةً أقوى بعد مرورِ أشهرِ فقط باسمةً فرحةً لكلِّ وبكلِّ شيء، متناسيةً ذلك الرجل الراقد في قبره كأنه لم يكن يومًا حبيبها وزوجها.

لم أفرِّق بين مصطلحين مهمين في صغري، فالعم وزوج الأم الدخيل هو الأب الجديد المجاني، والأب القسري هذا هو الرجلُ الذي أخذ مني والدتي. أما ذاك الذي حملوه ميتًا فهو الرجل المنسي الذي بذرَني في أرضٍ امتلكَها غيره.

- هؤلاء إخوتك. ***قالها جاد متفاخرًا وكأنه يهديني سيارة "جيرنو الشمسية" بعد نجاحي في الثانوية.*** قدَّم لي أولاده من زوجته السابقة فارضًا عليَّ تقبل هذه الحقيقة الصادمة بوجهٍ مبتسم وبقلب حانٍ.

عرفتُ بعدها أن المصطلحَ الجديد هذا يختلفُ في مفهومه من عائلةٍ لأخرى، فهناك عائلةُ الفجأة بمصطلحها الخاص، وهناك عائلةُ الامتداد الطبيعي... فميمون امتلكَ عائلةً طبيعيةً وحياةً على نقيضها، بينما امتلكتُ حياةً طبيعيةً وعائلةً فجائيةً على نقيضها. عائلةٌ كعائلته لا تنجبُ الفتيات كثيرًا، وكأنَّ من خصائصها أن تبدو ذكوريةً بأسوأ ما للذكور من صفات، لكن عائلة العجّان امتلكت فتاةً لا تشبهُ أحدًا منهم بالملامح اسمها شهد، قيلَ لي في (مركز

البوليس) أنها تعمل موظفةَ بنك، ولا ذنب لها بما حدث من اختطافٍ وسرقة.

عفوتُ عن والدتها العجوز الداهية وعنها؛ رغم أنها هي الفتاة ذاتها التي حدثتهم أمامي بمتعةٍ بالغةٍ عن الشابِ الذي استدرجته لمرآبٍ خاص- قبل ساعات فقط من وصولها إلينا بعد مجيء والدتِها ومشاركتهم بقايا العشاء- مهددةً إياه بالفضيحةِ إن رفضَ ابتزازها له... راحت توجه كلامها لهم دون تشويق وكأنها معتادة على سرد مثل هذه القصص، وهم معتادون على سماعها. بدا الأمر كأنه يقال على سبيل الواجب لا الأنس.

- رميتُ ملابسَ ذاك الأرعن من السيارة فظلَّ الرجلُ الأبله هذا عالقًا بين سيارةٍ يجلسُ بها عاريًا، وبين ملابسٍ وُضِعت تحت عدسةِ الكاميرا في المرآب.

تحدثوا لساعتين على الأقل بعدها دون أن يشعروا بوجودي، أو دونَ أن أُشعرهم به، وتبادلوا الشتائم، والنكاتِ، والقصص الوضيعةَ بحميميةٍ بالغة.

- لو رزقتُ بثلاث منكِ فقط، لكان والدك الآن مرتاحًا. ***وراح العجّان يضم ابنته شهد من جانبها لصدره، ممرِّرًا يده على رأسها وشعرها بفخر.***

- رزقة البنات بركة وخير. ***وراحت العجوز تنظرُ نحوي باشمئزاز غريب بعد تفوههِ بهذه الجملة.***

- الحقيقة بأنها تتعب، لا أحد ينكرُ ذلك. ***قالها أكبرهم.***

- رزقها من عرقٍ، عرقِ... ***أراد ميمون أن يكمل لكنه سكت فجأة.***

- جبينها.

- أفخاذها. ***دفعها كبيرهم من فمه ضاحكًا لإغاظتها.***

- اخرس يا زوج الفاعلة. *ونهَضَت شهد ظنًّا مني أنها غضبت لكنها عادت ورمت على وجهِ أكبرهم ورقةً صغيرة تناولتها من حقيبةٍ معلقة.*

- اتصل بهذا الرقم، ستعمل لديه مشرفًا براتبٍ لم تحلم فيه أختك يومًا...

{ما الضيرُ أن أنتمي لعائلةٍ كهذه؟ الشتائمُ نسمعها في كل مكان ولا ضيرَ أن نسمعها من مسافةٍ أقرب، أو أن توُّجه إلينا مباشرة. أمَّا الرداءة والانحطاط فنخفيها عادةً خلفَ وجوهٍ مستعارة، لكنهم يملكونَ ما لا أملكه، قد أكون طرفًا فيه لكنني لن أكونَ داخِلَه مثلها بتاتًا... لا يحترمون أنفسهم ولا يحترمونها لكنهم عائلة حقيقة، أمَّا أنا فلا أجدُ ذلك الاحترام ولا أملك عائلة... لو كنتُ فإنني سأقبل بهذه الشتائم وهذه القذارة في المكان، سأقبل أن ينعتني أخي بالعاهرة والسافلة، سأتقبل أن يضربني إن عاد مخمورًا يومًا شريطةَ أن أجلسَ على مائدةِ عشاءٍ تضمُّ أبًا وأمًّا وأخوة ولأذهَب بعدها إلى الجحيم}.

- ستمارسين الرذيلةَ حينها. *تعجب أصلان آنذاك من حديث نفسي حين صرّحت به.*

- لن أراها رذيلةً طالما نشأتُ عليها ضمنَ حياة واقعية.

- لكنها رذيلة.

- خذ بوذيًّا من أبويه وضعه في أحضانِ عائلةٍ سنبارية.

- سيصبح سنباريًّا.

- وسينظرُ للبوذي بأنه الكافر الأول على الأرض.

- والعقيدة؟

- سيفصلها الآباء على مقاس أخلاقهم وقناعاتهم فقط وإن لم تناسب عقولنا. قد نتحرر نعم، لكن بنسبةٍ ضئيلة.

- قد أتفق، لكن عصرَ المعجزاتِ لم ينتهِ بعد.

لم أفهم معنى هذه العبارة جيدًا لكنني تناولتُ قلمي مجددًا وقد أغمضَ عينيه لأكتبَ ما شاء لي كتابته، "أسمَعُك أستاذي، تفضل".

نظرَ نحو ساعة الحائط فور صمتي، قبل أن يغمضهما مجددًا وقال بصوته الدافئ:

- **رحتُ** أشتري المزرعةَ تلو المزرعة، والفلل الفاخرة، والسيارات الفارهة، أو لأكون دقيقًا: رحتُ أستأجر كلَّ هذه الأشياء من دخلي الجيد، مُقنعًا والدتك أنها ملكي مستبدلًا ما شئت، ومعيدًا ما شئت، كي لا تشعر بالفروق الماديِّة والطبقية بيني وبين ذويها.

كثيرًا ما أفلستُ بسببٍ سفرٍ لم أستطع التنصل منه، وكثيرًا ما وقعت في حيرةٍ من أمري حينما لم أجد الحلَّ المناسب لتبرير كذبةٍ ما، لكنها رغم ذلك لم تشاهد إلا ما أرادت تصديقه. أجدُني الآن قد استطردت كثيرًا وأسهبتُ؛ فابتعدت عن موضوعي الأهم الذي كنتُ أحدثك به... سأعود للحديث عن مهرجان الحمامة فقد اقترب مني أحدهم قائلًا: أستاذ أصلان، إدارة المهرجان بانتظارك. حتى ذاك الوقت لم أكن قد قابلت القائمين الرئيسيين على المهرجان، فكل من قابلتهم قبلها هم منظمون ثانويون فقط، وظيفتهم منحصرة على ما قبل المهرجان.

ما إن دلفت لمكتبٍ أنيق في جناحٍ فندق خاص حتى توقفَ أحد الجالسين الثلاثةِ عن الصراخ للحظةٍ ثم عاود الصراخ ضاربًا ظهرَ المكتب بيده غير عابئ بي، رغم أنه أشار نحوي حالَ رؤيتي قائلًا: "هذه مسخرة حقًا، كيف لكم ألّا تفرقوا بين شاعر وآخر بسببِ واوٍ لعينة"؟!

حاولوا تهدئته قبل أن يطلب مني كائنٌ بشري من خلف مكتبه أن أجلس.

مشكلةُ الأثرياءِ هي شبيهة تمامًا بمشكلة الدخلاءِ على الأدب إن صار الأمر بيدهم؛ فالاثنان ينظران لمن يجهلانه على أنه نكرة، أو أنه سينصاعُ لا محالة لأوامرهما ومزاجهما إن شعرَا بحاجتهِ لهما، والاثنان يتعاملان مع هذا الشخص كما نتعامل مع أبنائنا العاقّين حين نغضب منهم.

- تفضل أستاذ بالجلوس، يبدو أنك لم تسمعني. *قالها أحد الجالسين بعصبية.*

- في الحقيقةِ لا، لم أسمعك ولم أسمعه. *أشرت نحو من أشار إلي.* وفي هذه اللحظة حقيقةً لا أستطيع رؤيتكم، "أين أنتم"؟

رحتُ أبحث بعدها عنهم خلف الباب، "أين أنتم"؟ وتحت طاولةِ الاجتماعات، وخلف المقاعد، "أين أنتم؟" حتى أمسكت سلةَ النفايات بيدي ورحت أصيح بداخلها بصوت يضيعُ في بئرٍ عميقة: "هل أنتم هنا"؟ ***المتنبي*** وحده لا والدك من يستطيع وصف وجوههم الذاهلة من تصرفي هذا. قذفتُ السلةَ في وجه كبيرهم بحركةٍ درامية مضحكة، وخرجت أصفُّر مرددًا أغنية لليدا: "ما تشرب المي المي وروح اشرب المويا يا خي" بصوتٍ عالٍ جلبَ أنظارَ جميع نزلاء الفندق، مادًّا الحرف الأخير في المقطع التافه الجميل هذا.

تركتُ حقيبتي بما فيها في الفندق وقصدت مكتبَ سفرٍ فارًّا قاصدًا العودة لوطني، أحدهم أمسك بيدي وأنا في سيارة الأجرة التي أوقفوها قسرًا وطلب مني الخروجَ معه كالطفل الوديع. لم أبدِ مقاومةً لخوفٍ تملكني.

- ستشارك بالمهرجان هيا.

- الحقيقة أنني لا أريد، أريد المغادرة فقط إن سمحت لي. ***خلت هذه الكلمات من روح الدعابة رغم أنني حاولت أن تتحلى بها.***

- ستشارك أولا في المهرجان، ومن ثم سأصطحبك بعدها لجهنم إن أردت.

- أريد منك اصطحابي للجنةِ إن كان بمقدورك هذا.

- جهنمُنا أفضل من جنتك التي تحلم بها.

- حتى للجنة وجهنم فلسفةٌ خاصة في كلام أصحاب النفوذ.

- سأتفق معك.

- لستُ مهمًّا ويبدو أنك على درايةٍ بتشابهِ الأسماء هذا.

عدتُ للجلوس مع الثلاثةِ قسرًا، وقَدَمُ أحد حراسهم على فخذي ويده على رقبتي؛ بعد إجباري على الجلوس معهم بأدب واحترام. جلستُ خوفًا من صفعاته دون أن أنبس ببنت شفة؛ إذ صفعني هذا الحارس قبلها وأهانني أمامَ المارة بشكل لا أستطيع نسيانه ما حييت، في الوقت الذي لم أدافع عن نفسي، لم أقم بأي ردةِ فعلٍ للذود عن كرامتي التي أهدرها.

الحقيقة أنه ومساعدوه أبرحوني ضربًا ثم داسوا على رأسي، وأعادوني بعد ذلك بكل احترامٍ للمكتبِ بعد أن سمحوا لي بتغيير ثيابي... لم أبكِ، ولكنني تمنيتُ أن أفعل، فالبكاءُ يشعرك أحيانا بإنسانيتك رغم كلِّ شيء، ويزيح عنك شبح الحيوانية والبلادة أمام إهانةٍ كهذه.

الرمزُ أو القدوة يا بني ليس كما نتصوره، فالكثيرات من البطلات تعرضن للاغتصاب، والقهر، والشتائم، والكثير من الأبطال قد مُورس في حقهم اللواط، والضرب، والشتم لكي يتخلوا عن

مبادئهم... لا أعرف إن استسلموا مثلي سريعًا أو قاوموا جلَّادهم، لكنني قلت هذا حتى لا تسقط بفخِّ الانعزاليةِ، والانغلاق، أو الجنون مثلًا إن حدث موقفٌ مشابه معك، فالضعف أن تقبل الإهانة بصدرٍ رحب لا أن تتقبلها قسرًا، فقوتنا محدودة، وطاقتنا محدودة مهما ادَّعينا غير ذلك، ومن هنا جاءت الجماعةُ كي تحتضن الفرد وتحميه، فلمَّا تحولت لسحقه ضاع الفرد، وقد ينتهي إن ضاعت كرامته، هذا يحدث فقط إن قبلت.

- ستشارك رغمًا عن أنفك، لا لأنك تستحق، فأنت نكرة، بل لأنك رفضتَ وتطاولتَ رغمَ قِصرِك بعنجهية العظماء يا لُكيع.

- خطأ بالاسم يا سادة وبإمكانكم استثنائي ما دام أنه خطأ. جميلٌ وصفك لي، أشكرك عليه. ***وابتسمت بدوري ببلاهة.***

- كلا، أريد أن أستمع لشعركَ وأنت تنشده بين يدي. ***تجاهل تعليقي.***

المسرحُ الذي دلفته بعدها بدا مخيفًا وأصوات الجماهير وهمهماتهم بدت كطنين رهيب... لم أكن أحلم يومًا أن أقف أمام جمهور بهذا العدد، سيما إن الشاعر يا بني بحاجة للكم الكبير من الجمهور، حتى وإن لم يفقهوا شيئًا من شعره، بل حتى لو جلسوا في خرابة قذرة على الأرض، مفضلًا إياهم على نخبة قليلة من عشاق الشعر تحيط بهم مقاعد فارغة، فنجاح الشاعر بعدد جمهوره رغم أنف المُدَّعين الذين يريدون إيهامنا بأن الشعر للخاصةِ دون العامة.

جلستُ في مقاعد الشعراءِ منتظرًا دوري، مستمعًا للشاعرِ الرابعِ الذي راح ينادي بالإنسانيةِ والسلام، ثم التطبيع مع الكيان الصهيوني، وقد صفق الجميعُ له بحرارة... نظرتُ إلى قصيدتي بين يدي والتي اختارها جلَّادي من بين جميع القصائد، والتي كانت تتحدث على لسانِ امرأة تشكو شرقيتنا، وتهزأ بكل أكاذيبنا

ومفاخرنا وتاريخنا المزور. لطالما فعلت هذا وانتقدت أولئك المفاخرين بتاريخ أجدادنا وحضارتهم الإنسانية والعلمية؛ كارهًا لكلِّ الدعوات التي تعيدنا دومًا للخلف دون الاستفادة منه في واقعنا المرير، إذ بدت لا تتعدى كونها إبر تخدير، وجلسات تنويم مغناطيسي بلا فائدة.

العائدون للماضي والمتحدثون عنه إن أحسنَّا الظن بهم، صنفان يا بني: الأول يفعل هذا هربًا ورفضًا لضعفه وشحذًا لآماله المتعبة من جديد كلما استكانت عزيمته، والثاني لأنه يخشى الحديث عن المستقبل؛ يخشاه لأنه على درايةٍ أنه يتطور وتتطور أفكاره، وأحكامه، وفلسفته معه. تراه يتجنب أن يتحدث فيُؤخذ عليه بعد سنواتٍ حديثه الذي بات جزءًا من الماضي؛ يُحاسب عليه دون مراعاة أنه قيل مُسبقًا وفي لحظةٍ ما، ضمن ظرف ما، وبعقليةٍ ما. تصوَّر أن تمتدح شخصًا بإخلاص ونقاء وبعد سنواتٍ تكتشف أنه قد غرر بك؟! إن تكرر هذا الأمر فأنت بعد ذلك ستلتزم الصمت بما يخص الحديث عن المستقبل أو الحاضر المستمر، وتتمركز في الماضي للانطلاق بحديثك وفلسفتك لأنه الأوضح والأميز بالكامل.

كتبتُ تلك القصيدة التي تهاجم الشرقيَّ مقتنعًا بما فيها يومًا لكنها بدت لا تشبهني في تلك اللحظة، ولا تعبر عني وسط جمهورٍ يصفق لمطبِّع وعميل، ولا في مهرجان خُصصَ لتزوير الحقائق والمسلمات، فأنا الآن ذاك الشرقي، والبدوي، والصحرواي، بكلِّ ذرةٍ في جسدي... ثارت نعرات القبيلة وحميتها في دمائي، ثار ابن عباد وعروة وابن سنان على ورقي بمنابرهم، وخيماتهم، وخيولهم، وأغاروا على صوتي يتداخلون بنبراتي وشعوري حتى كنتهم جميعا في تلك اللحظة.

نوديتُ فاستلمت المنبرَ واضعًا قصيدتي في جيبي، ثم هدرتُ بقصيدةٍ ألعن فيها بقايا الولايات الأمريكية بنظرةٍ استشرافيةٍ والكيان الصهيوني ومن والاهم.

صفقوا بحرارةٍ أيضًا... لماذا يصفقون لما يتعارض مع ما صفقوا له قبل قليل؟ سألتُ نفسي فضحكتُ ضحكةً أضحكت الجمهور، هي ضحكةٌ يا ولدي لن تجدها اليوم مهما بحثتَ عنها لأنهم قتلوها إلكترونيًّا بعد دقائق من حدوثها، فلم يسمعها إلا من رآها وخشي من سردها للغير.

هم لا يخافون البكاءَ صدقني، بل من ضحكةٍ صدرت عن شفاهنا رغما عن أنف البكاء..

اتجهتُ نحوَ الباب الرئيسي هاربًا بعد هذه الضحكة لا ألوي على شيء.

وقد يهربُ المرءُ خوفًا من أو على شيءٍ ما... من ماضيهِ أو حاضره، من شبحِ فكرةٍ أو جرم، من نفسهِ إن لم يطاردها وقد هرَبَت منه. وللهاربِ لحظةُ حقيقةٍ تسمى الاستسلام تجبرُ المطارِدَ والطريدة أن يقفا وجهًا لوجه، ليتساءلا حينها: لماذا هرَبت؟ ولماذا لحقتُ به؟

هربت من نفسي كثيرًا، هربت من واقعي أكثر من مرة عبر الدراسة أحيانا، وعبر الانتقال إلى مشافٍ أخرى في الوطن أحيانًا أخرى... شبح أبي سند تراءى لي دوما على غلاف عُلب الأدوية التي تذكرني بما قمت به، كلُّ علبةٍ كانت تصيح بي: أنت السارقة لا هو. غيَّرتُ تخصصي حينها لأتجه للتعامل مع الأجهزة لا الأدوية، لكنها لم تكن أرحم منها حينما تفاجأتُ بأنَّ عليها تصوير رجلٍ فقدَ عقله جراء صدمة عنيفةٍ تعرض لها.

قالت لي ابنته: كان يحبك كثيرًا ويفتخرُ بدأبك الغريب في التحصيل الدراسي، لكنه للأسف لم يستطع تحمل التهمة التي قذفوه بها، ورفضِه من المستشفيات التي تقدم للعمل إليها بعد ذلك. ففقد عقله كما ترين... ضممتها متعاطفةً كذبًا معها ناظرةً نحو أبي سند الذي بدا كأنه وُلدِ في الأمس، فتراه يضحك ويصرخ ويتحرك بعشوائية مبكية؛ ضممتها ولم تكن تدري بأنني المجرمة التي طعنته في عقلهِ ليفقده، أو أنها هي الدافع الأهم لارتكابي هذه الجريمة المروعة... كدت أن أقذفها عني وأصيح بها قائلة: أنتِ السبب، أنتِ من امتلكتِ أبًا لا يحق لك امتلاكه، بينما لم أمتلك أنا هذا الأب.

لم أستطع الاعتراف لدن أنه جُنَّ بسببي، وأنه فقد عقله بعد شهرين من تلك الحادثة. لقد قصصت الجزء البشع فقط من الحقيقة، وأخفيت الأبشعَ لأنني لو علمتُ الغيب لما قمت بالبشع أصلا. ***{وقد***

نستهين بالتصرفات والإساءات الصغيرة غير مدركين أن الكثير منها تخالف قانون الفيزياء فيأتي ردُّها أقوى بكثير من فعلها}.

بعد أن انتهيت من تصويره باكيةً، وقد ظنت ابنته بأنني أبكيه جاهلة أني أبكي نفسي؛ أمسكَ بيدي محدِّقًا بعيني، اقترب ليوشوشني فأملت رأسي ناحيته فقال: لقد رأيتك يومها.

- رأيت ماذا؟

- رأيتك وأنت تحرقين الستارة.

وقع قلبي فأردت تخليص يدي من قبضته، وابتعدت بجسدي عنه، بيد أنه جذبني أكثر مبتسما، وهمس بي مرةً أخرى: لقد أسديت لي خدمة العمر، أنا سعيدٌ يا ابنتي، سعيدٌ أن بدينةً مثلك تصرفت كالأطفال يومها.

لم أرد سماع المزيد منه فقد كانت كل كلمة خنجرا يزرعه في روحي، لذا أردت الهروب، أردتُ الهروب دومًا لكنني لم أفلح.

لم أفلح أيضًا قبلها في الهروب من قبضة العجان... لكن باب العجّان تحديدًا لم يمنع المطاردَ أيضا من الدخول، ولا الطريدة من الهروب بعد طرقاتٍ تحولَت لخلعه أثناء محاولتهم الفرار من رجال الشرطة وقد داهموا المكان فجأة. لم أصدق أن المكان اكتظَّ بهم بعدَ الجلبةِ السريعةِ؛ وإغلاقِ منافذ الهرب للوكرِ الذي كنت فيه. بكيتُ حينها كما لم أبكِ من قبل، سجدتُ شكرًا لله على القيودِ التي وُضعت بأيديهم، وعلى تحوُّلِ الوجوهِ التي نُزِعت مخالبُها ببشريةٍ حملِيةٍ بعد المداهمة.

تحتَ وجومِ الأم وابنتها فرَّ ميمون بلحظةٍ كالقردِ من بينهم بينما ارتمى ثلاثةٌ منهم ووالدهم على الأرض دونَ حراك، وعلى وقعِ

صوتِ سيف الذي تناهى لمسامعي كسمفونية حينها وهو يقول: "الفتاةُ في الداخل، نعم هي في الداخل، ***رضا العجّان*** جاءَ بها إلى هنا". رحتُ متحسسةً جسدي كأنني ألمسه لأول مرة في حياتي، ***{سيف ابن العجان من جاء بهم، سيف الذي سمعتُ صوته ولم أرَ وجهه أبدًا... لقد أنقذني من الهلاك من حيث لم أتوقع}***.

- دعوه يذهب، وفتشوا المكان، تفضلي سيدتي سيصحبك الأمنُ للمركز.

قالها المحقق الذي ترأس عملية المداهمة للقبض على هذه العصابة فورَ النظر إليَّ كمن عرفَني، بيد أنه عاملني كشخصٍ لم يلتقِ به يومًا، أو كشخص لا يريدُ له أن يذكره بأشياء لا يريد أن يتذكرها. فقد ظنَّ أنه عندما جاء إلى المشفى غاضبًا ومهددًا مُقسمًا بشرفِ أمِّه وأبيه الذي لطخته إدارة المشفى بوحل السرقة أنهم سيخافون منه، وسيقبِّلون قدميه كي يصفحَ عنهم وعن التهمة الباطلة التي ألصقوها بوالده، أو أنهم سيحاولون التوسل إليه بعدم تنفيذ تهديداته بمحاسبة المتورطين والمسؤولين عن هذه التهمة، بل وإغلاق المشفى إرضاءً لكرامةِ والده. لم يفهم حينها أن سلطةَ مدير المشفى وعلاقاته المتغلغلة في الدولة أقوى من سلطةِ محقق بسيط مثله، وأن سلطة هذا المدير لا تنظر بعين الرأفةِ لموظفٍ مسن يمقته الجميع، ولا تكترث ببراءته أو عدَمها. كان عليه أن يعلم بأنَّ والده جملٌ قد وقع أمامَ سكاكينٍ انتظرت هذه اللحظة بفارغ الصبر.

لم يفهم بادئ الأمر هذا وهو في داخل أروقةِ المشفى، لكنه فهم بعد أن تلقى اتصالًا لم يتجاوز الثواني القليلة هذا سريعًا. صمتَ محدقًا وكأن على رأسه الطير برجال الإدارة وموظفي الأمن الذين أحاطوا به؛ صمت كأن غيمة ما أهرقت مياهها دفعةً واحدة على

رأسهِ فاعتذر من المدير الإداري للمشفى عن حماقته ورعونته الطائشة وقبَّل رأسه وكتفه، وغادر دونما عودة.

وها نحن نلتقي مجددًا لكن الموقفَ هذه المرة مختلفٌ بالكامل إذ سُمِحَ له أن يصرخَ، ويشتمَ، ويأمرَ، وينهى، لذا حين التقت عيني بعين العجّان أثناء خروجي وقد نظرَ إلى الأرضِ قبل أن ينظرَ إليَّ مجددًا قائلًا:

- بإمكانك أن تقولي لهم بأنك ضيفتنا.

صرخ به المحقق وضربه على صدره فارتطم بالحائط قبل أن يقول له:

- اخرس.

راح يتوعده وهو يجره مكبلاً للخارج وسط حراسةٍ مشددة غير أن العجّان ظلَّ يصرخُ موجهًا كلامه لي قائلًا:

- مصيرُنا بين يديكِ يا ابنتي.

ثم يلتفت ليخاطب زوجته غاضبًا وقد ارتسمت على وجهها كل معالم البؤس والحزن: لقد فعلها سيف، فعلها اللعين سيف بنا.

لقد قال لي: يا ابنتي، ظنًّا منه أن الأمرَ هيِّنٌ بادئ الأمر، وأن جريمته اقتصرت علي. لم يفكر أنه مُطارد مذ بدأ، وملاحقٌ كمجهولٍ جاءت لحظته، قال لي: يا ابنتي!! ماذا لو كان والدي الذي لم يعد من موته كالعجّان؟. ماذا لو تبادلتُ وابنته الأدوار يوم وُلِدَت؟ فكانت ابنةَ أمي وزوجِها جاد وكنتُ أنا ابنته شهد؟ شهد التي قالت لي بعد أن جلست بجانبي في المركز الأمني بعد أن فرضت نفسها أو فرضوها عليَّ لغايةٍ في نفوسهم: "كل ما هناك هو أنني وجدتُ نفسي منبوذةً مِن قريناتي قبل عائلاتهم. مجرد أن تقولي بأن

اسمكِ شهد العجّان فهذا كفيل بأن تكرهكِ البشريةُ جمعاء. لن تراك معلمتك إلا كمتسولة مصيرها الشارع، ولا زميلتك إلا كسارقةٍ مؤجَّلة... أما صاحبُ المتجر فلا يراك إلا نهدًا جامحًا سيفتك بالأتقياء يومًا رغمَ رغبته الجامحةِ المشتعلةِ في عينيه أن ينقضَّ عليه فاتكًا به، أولئك الذين يستغفرون لرؤيتك كأنهم شاهدوا شيطانًا بعينٍ ثالثة لا تصلح لغض البصر، هذا كفيلٌ أن يلاحقكِ أحدهم لكي يحظى بك كجاريةٍ تصوَّرَ أن الحصولَ عليها أمرٌ هين، فما إن ترفضي حتى تغتالك الأقاويل والإشاعات التي لا تمت للحقيقةِ بصلة. هي اللعنةُ منذ جئتُ للدنيا كابنته، فلاحقتني في أزقة الحارة، ومقاعد الدراسة، وشهواتِ الرجال الذين يرفضون أن تكوني زوجةَ أحدهم متوسلين لك بشرفك أن تكوني عاهرتهم ضمن مفهومهم الأخلاقي الحقير... الشاب الذي سمعتِ أنت قصته حين أخبرت عائلتي عنه أمامكِ مثلًا لاحقني دون أن يعرفني، فكلما صددته حاولَ أكثر، وفي اللحظةِ التي أرادني بها مقابل أيِّ شيءٍ على السرير افترستُ ماله وذكورته بذات الشخصيةِ التي صورني من خلالها. بدا خائفًا من الفضيحةِ رغمَ أنه من سعى إليها أكثر من خوفهِ على ذكورته المهدورة بسبب فتاةٍ ضعيفةٍ سلبت ماله وكرامته، وعند نزولي من سيارته راح يشتمني وكأنه تذكَّر أنني فتاةٌ لا وحش.

شتمني وقد منعتُ نفسي من سؤاله: وهل ظننتَ أن مثلي ستتحلى بأخلاق قديسةٍ بصفاتٍ ما، وعاهرةٍ بصفاتٍ أخرى ضمن مقاييسك؟! أنا جزءٌ لا يتجزأ من صورتك التي رسمتها عني، كان عليك فقط أن ترسم صورةً شمولية أكثر دقةً لي. وقعتُ فريسةً أحيانا، وأوقعتُ نفسي إن دفعَتني لذلك، وأجملُ الفرائس للرجالِ هي من ترتضي أن تقدِّمَ لحمَها بعد مطاردات مضنية، الثمنُ حينها

سيبدو كبيرًا ليرضى المفترس باللحمِ المشوي على نارٍ هادئة، وترضى الفريسةُ أن تُطهى كما أريدَ لها.

- وما ذنب الضحايا؟ ذنبي أنا؟ ذنبُ مَن لم يلتقِ بكم يومًا؟ *صحتُ بها.*

- ما ذنبُ الخروف أن يولدَ ليُرعى ثم يُذبح؟

- بدونا خرافًا ضمن منطقِ انتقامك من واقعك.

- ألم تظلمي أحدًا من قبل؟

لم يصفعني سؤالُها على ذاكرتي لتتناثرَ بسببه بعضُ الحكايا أمام ناظري، فلطالما تناثرت عبر جلدات الضمير المتفاوتة، ***{لقد سرقتِ ممحاةَ زميلتك يومًا بدماءٍ باردة، وخنقتِ صوصًا بدماءٍ أبرد. لقد مارستِ العادةَ السرية صغيرةً فظلمتِ نفسك، وقبّلت البدينَ الوحيد الذي لاحقك عائدةً من المدرسة}.***

هذا ما قد أذكرهُ يومًا لصديقةٍ قريبة، وما قد أكتبه في مذكراتي إن شابَ رأسي ووهن العظمُ مني، لكنني لن أذكرَ بأنني كنتُ السبب بطردِ أحدهم شر طرد من مشفى الوطن ليفقد عقله بعدها، ولن أذكر أنني راودتُ مريضًا ستينيًّا عن نفسه، وأردتُ تغليقَ الأبوابِ فلمَّا همَّ واستعدتُ رشدي مستغفرةً صرختُ به معنفةً إياه على وقاحته؛ صافعةً إياه بكل ما أوتيتُ من قوة على وجهه.

لحق بي يومها مرعوبًا نحو باب الغرفةِ صائحًا راجيًا خشية الفضيحة:

- لم أقصد يا ابنتي، خلتكِ قد أُصبتِ بالدوار فأسرعت لمساعدتك، أرجوك ألّا تضخمي الأمر.

- ابنتك؟! أنتَ وضيع.

- أعتذر يا ابنتي، أعتذر.

- لو لم تكن مسنًّا فقط.

غضبتُ لأيامٍ وأيام مقنعةً نفسي بأنه من حاولَ رغمَ عفَّتي فصددته ووبخته بما يستحق. تجاهلتُ منذ اللحظةِ الأولى بأنني من أغويته... ***{كان عليك أن تفعلي، وحده من حدَّق بنهديك مشعلًا خطهما الفاصل كلما اقتربتِ منه، كان عليكِ أن تشعري مرةً بخشونةِ كفٍّ تمتد إليهما على غيرِ وجهِ حق، لتفرقي بين عدة أشياء لم تحدث}***.

لا نجهلُ أنفسنا لكننا نزور الحقائق كي نرضيها، فلا نعتبُ بعدها إلا على الغير... ***{ لقد رأيتِ مديرك وقد فرغَ من ملاطفة إحداهن متوجهًا لتلك العجوز. أنتِ من طالبتهِ بالتدخل حينَ عرفتِ أنها لا تملكُ من المال ما يكفي لأن توضعَ على جهاز(التبخيرة). خفتِ اللحاقَ بأبي سند فرحت تتملقين له لإثبات إخلاصك المطلق لمبادئه وطريقته القذرة في الحياة. الشتاءُ لا الليلُ فقط من دفعها للطوارئ، وحينَ تخليت عن إنسانيتك وتقمصتِ دورَ المحاسب إرضاءً لمديرك طردها بلطفِ القاتلين... أنت ممرضة، وظيفتك أن تساعدي لا أن تحاسبي.***

كان بإمكانكِ أن تضمِّيها لقائمة الخصم، وكان بإمكانك أن تدفعي حاجتها، لكنك مثلهم تمامًا وقفتِ تراقبين الانكسار في خطواتِ مريضةِ ربوٍ عجوز؛ لتسمعي في صباحِ اليوم ذاته أن عاملَ النظافةِ كنسَ شيئًا داخلَ غطاءٍ ورقي من على الرصيفِ، ليجد تحته جثَّةً هامدةً لامرأةٍ لم تساوِ حياتُها إلا ما نقص من مالها}.
هو قتلٌ دون أداةٍ وشهود، قتلٌ دون أصابعٍ اتهام توجه إليك، ودون محاكمةٍ تقام للقصاصِ منك.

- إذن لم يضربوك رغم واقعةِ الاختطاف والسلب؟ *أيقظني من حديث النفس المحقق سند وهو على دراية بالجواب أكثر مني.*

- كلا سيدي. ما حدث لي في ذاك الوكر هو ما أخبرتك به فقط.

- هل أشهرَ سلاحًا أثناء إجبارك على الدخول؟

- فقط أمسك بيدي وجرَّني رضا العجّان هذا عنوةً للداخل، كنتُ مرعوبةً فانقدتُ له.

اصطدمتُ حينها بصفيحٍ وأكياسٍ بلاستيكية وأخشاب بناء، ثم تعثرتُ بالسلالم التي تهبطُ وتنزل منها بذات الوقت، ثم وجدتني في غرفةٍ يجلسُ فيها شبابٌ أربعة لم يكترثوا لرؤيتي أو صراخي.

- يا والدي الجيران لديهم آذان. *قالها أكبرُهم.*

- نسيت شراءَ المخدِّر فاضطررتُ لهذا. *أجابه العجّان بغير اكتراث.*

- فيل بهذا الحجم لا يُخدر بسهولةٍ، هذه البدينةُ تحتاجُ لأن تضربَ على رأسها بعصا هاون ألف مرة كي تفقد وعيها، هذا إن أجدى ذاك نفعًا معها، ومن ثم جرِّها إلى هنا.

- تذكِّرُني بضيفتنا العام الماضي.

- تلك لن تنسى.

ميمون هو الوحيد الذي عارضهم قائلًا: كلا هذه أنحف قليلًا، هذه فيل أما تلك فمن فصيلة الحيتان. *ضحكوا جميعا على تعليقه حتى ظننتُ أنهم لن يتوقفوا عن الضحك.*

{لا تصرخي، ولا تتساءلي: لماذا أنا تحديدًا؟ عليكِ مقاومتهم}. لكنهم لم يقتربوا منك! ولماذا يقتربون من فيلٍ بشري لم يقترب منه أحدٌ يومًا؟

لم تقرئي اللهفةَ في عيونِ رجلٍ من قبل. لم تغتصب كلمةٌ وقحة واحدة أذنك يومًا. لم ترفضي الذي لن تقبليه لو حدث لكنه رغم ذلك لم يحدث، ميمون أرادَ إخافتك لا أكثر، أراد أن يرى الخوفَ الذي قد يشعرُ به عندما يلتقطه البوليس كجرذ فرآه في عينيك لتشاهدي ما رآه في عينيكِ من خلال عينيه بعدها... سلاحهُ قضيبه في تلك اللحظة، سلاحه الذي لم يستعمله معك، ولا مع غيرك أصلا لأنه كان يتسلى على عكسهم فقط، وجسدك الهدف الذي لن يصوبه نحوه لتستسلمي أو ترفضي، أما أنتِ فسلاحك بدانتك، حتى قرعتهم الكاذبة على جسدك كانت لترويعك وللتسلية لا لاغتصابك، فالاغتصاب من نصيبِ المرغوبات أمَّا أنتِ فلا حاجةَ للإثم بك.

- للبدانةِ إذن فوائدها. *ضحك أصلان ضحكة متقطعة*.

- بدوتُ بدينةً في كل شيءٍ حتى عقلي.

- الخوفُ عمومًا يغلق منافذ التفكير، هذا واقع.

- هروبكَ من المسرحِ كان جرَّاء فكرةٍ سريعة، الخوف من فتحَ لك منفذًا للهروب.

- فكرةٌ خائفة تلتها فكرةٌ شجاعة.. دعينا نكمل عمومًا. ***ركضتُ*** حدَّ الطيران في الهواء بمستواه المنخفض بيدَ أني توقفتُ فجأةً لشجاعةٍ دبت في أوصالي حين تذكرتُ موطنين يفصل بينهما نهر الأردن... سرت بسلحفائية ثم جلستُ في مقهى قريبٍ طالبًا من النادل فنجان قهوة مخاطبًا إياه بثقة:

- قهوة حلوة من فضلك و(بوجه). ضع أكبر قدر من السكر عليها، ثم قم بتحريكها ثم ضع ملعقتين من السكر، ثم قبل أن تسكبها في الفنجان ضع ملعقتين من السكر، ثم ضع ملعقتين أخريين في الفنجان واسكب القهوةَ عليهما، ولا يضيرني لو وضعت بجانب

الفنجان القليل من السكر.. ضحك النادل قائلًا: "كان من الأسهل عليك طلبَ فنجان سكرٍ برشتين من القهوة". صفقتُ له كما صفق البؤساء للشيءِ ونقيضه في المسرح.

نيرون المجنون من أوائل منظري التصفيق، ومن أوائل الذين صُفق لهم بعد قتلهم الأبرياء، أمَّا المصفقون فهم أشد خطرًا علينا وعلى كرامتنا الحضارية من الجبابرةِ، ناهيكَ عن المتبارين بالذِّل وخفضِ الجناحِ لمن لا يطالبُهم بذلك، هؤلاء جنسٌ ثالث.

بعضُ النفوسِ جُبلت على العبودية، فتراهم يتذللون فرحين لمن يرأسهم أو من يملك المال، لتراهم وهم يهجمون على النجوم الورقية متباركينَ بسخافتهم... أتذكر يومَ حضر صقر في عزاءِ أحدهم وقد احتلَّ كرسيَّ النيابةِ لعدةِ دورات متتالية بسبب مالهِ وفساده، فقامت إليه الجموعُ مرحبةً ومهللة. شاءت الأقدار أن يجلس بجانبي وسطَ ترحيبِ الأذناب به، لم يكترث حينها لهم بل راح يرمقني بنظرةِ الكاره.

هؤلاء هم الأقدر على تمييز الصادق من الكاذب، وتمييز الآنفِ من الذليل، تشاغلت عنه ولم أنظر لوجههِ، غيرَ أن أحدهم راح يعرفه بالبعضِ فذكرَ اسمي من جملةِ من ذكرهم، فأوقفه ووجهَ لي كلامه:

-أظن بأننا التقينا سابقًا في مهرجانٍ شعري. ***قالها مع أنه يعرفني أكثر من طليقتي.***

لإغاظةِ هذه النفوس تحديدًا تكلَّف ابتسامة ثم أجب باقتضاب شديد، وإن استطعت أن تجيبهم بنصف اقتضاب فافعل.

- ممكن!.

تشاغلت ثانيةً بالهاتف، ثم نهضتُ بعد أن تظاهرتُ بإجرائي اتصالًا هاتفيًا:

- آهٍ يا أبا ليلى، لقد اشتقتك أيها الماجن النبيل.***{لم يكن هناك أبو ليلى من أساسه}***.

هكذا، وبهذا الأسلوب فقط سيحترمك من هم على شاكلته. فاحترامه لنفسه أو احترام الناس له مقترن فقط بمدى جودة الصمغِ الذي سيُثبِّت عجيزته بكرسيه فقط، يدرك هذا، ويدرك أن قيمته لا تشبه قيمتك إلا إذا امتلكَ ذاته لا كرسيه. ولأجل هذا رفضَ الإمام ***الشعراوي*** الجلوسَ على كرسي الوزارة في عهد ***السادات*** واستبدله بالأرض قائلًا: "متى قلتم لي ارحل فسأرحل دون أن أصاب بذاك الداء، حينها فقط لن أشعرَ بالإهانة".

متطوعو التذلل لا يمكن وصفَ شخصياتهم وثقافتهم ولا حتى أساليبهم، فكأنهم شذّوا عن قاعدة الوصف، لكن موقفًا واحدًا كفيلٌ أن يعرفك بأحدهم، سيما حينما ترى المتعةَ في الحديث عن عبوديتهم وخوفهم الكاذب والمبالغِ فيه من الطبقة العليا، أو السلطة، فمن الطبيعي أن ينتشي أحدهم برجفةٍ أو رعشةٍ سببها ممارسة الحب لكنني ما زلت أتعجب من تلك الرجفات والرعشات التي سببها عشق الخضوع المصطنع لأرباب العمل والقرار.

الصحافةُ الإلكترونية من نَشَرت صورتي مرفقةً معها خبرًا عن شاعرٍ هاجمَ أهداف المهرجان السامية. المعلِّقون من ساعدوا على تضخيم الخبر ثم الدخول في جدالاتٍ بين مؤيدٍ ومعارض.

المعارضون لي هم أنفسهم أيضًا من صفقوا لي بعد أن تدخَّلت الحكومة بإعادتي للوطن بعد أسبوعٍ من السجنِ بتهمٍ ملفقة.

الجبناء لا يحاكمون الكلمةَ الحرة مباشرةً ضمن تهمتها الحقيقةِ أمامهم كي يتم سجنها بناء على ذلك، بل يلفِّقون لها التهمة الكاذبة كُرهًا بذكر كلمةِ حرٍّ وأحرارٍ وحريةٍ وما شابهها... لا يتقبلونَ تهمتها، ولا يمنحونها البراءةَ إن حوكِمت.

أغلبيةُ الزعماء والساسة الكاذبين، والصادقين أيضًا منهم لديهم حساسية من حروف الحرية لا معطياتها فقط، لذا لا يُمكنكَ سماعها في خطاباتهم أو حواراتهم لأنهم لا يتناولونها إلا إذا تحدثوا بمفهومها عبرَ لغةِ أعدائهم لا لغةِ شعوبهم، فالحريةُ يا صديقي من تنفي وجودهم كأفراد، وتجذِّر وجودنا كجموع ضمن ثقافة القطيع.

اتهمتُ بالتحرشِ بفتاةٍ بدل اتهامي بالإساءة ضمن قصيدتي، ومن الغباءِ أن تتهمَ شاعرًا وُجِّهت له الأنظارُ فجأةً باغتصاب فتاةٍ مُشَّهرًا به؛ رغم أن الجميع يعلم ما تهمته الحقيقية، بل رغم أنك تعلم تأكدهم من كذبك.

الفتاةُ لم تكن جميلة فاعترضت على هذا.

- سيدي المحقق، إن أردتَ أن أعترفَ بجرم الاغتصاب فسأفعل، لست من أولئك الذين يُطيقونَ العذاب والتنكيل بهم، ولكنني أرفض الاعتراف باغتصابي هذه الفتاة تحديدًا، أرجو منكم إحضارَ فتاةٍ جميلة، وأقسم أنني سأعترف باغتصابها بل واغتصاب عائلتها بعد ذلك، أمَّا أذا أردتَ أن تقدم لي معروفًا لن أنساه طوال حياتي، فلتتهموني باغتصاب المطربة ليدا.

لم يضربني أحد حتى من توقعت أن يفعلها مجددًا، لم يضربني لأنه هذه المرة لم يشعر بخوفي، ولم يشعر بأنني أراه كما أراد لي أن أراه، حملتُ حينها ضفتين يفصل بينهما نهرٌ في عزيمتي بينما لم يحمل في عزيمته إلا التبعية، وعليهِ فإننا قد نُظلمُ في أوطاننا

بالتأكيد لكننا لن نقبل أن نُظلم بسببِ أوطاننا، وعليهِ فإن الخوف يتشعب في كثيرٍ من الأحيان بسبب فراغ يومِنا مِن مُهم، وخلوِّ أحلامنا من أهدافٍ سامية، وعدم إيماننا الكافي بمبادئنا وبما نعتقد بحقِّه الأبلج في معتقداتنا، لكنه يتلاشى - أي الخوف- أمامَ موقف عظيم لا خيار لنا أمامه إلا الرفض.

عندما ثأرتُ لنفسي التي لم أكن أثق بها يا صديقي هُزِمت وأُهِنت خائفًا، وعندما ثأرتُ لقدسيةِ الأوطان والشعوبِ وجدانيًا انتصرت، حتى وإن كان ذلك في نفسي التي آمنت بها أخيرًا فقط.

رأيت المحقق حينها صغيرًا أكثر مما يجب، ورآني أكبر مما يظن... لذا لم ترعبني تحذيراتهم ولا تهديداتهم... ضرب الطاولةَ مرارًا كي أتحدث عن أي شيءٍ يدينني، وظللتُ أكرر: هاتوا ورقةً كي أوقع على ما تشاؤون من اعترافاتي.

ألطفُ القساةِ من سألني عن سببِ تلك القصيدة الثائرة؟

- أما هذا السؤال فدعني أجِبكَ عليه لأنه يستحق؛ لكنكم الآن بحاجةٍ لاستدعاء جميعِ كتابكم كي أملي عليهم أسبابي، كاتبُ القلمِ المسكين هذا لا يمكنه تدوين ما سأقوله عن أسبابي. *وأشرت لكاتبهم الذي يدون أقوالي.*

إنها أسبابٌ توارثناها عبرَ أجيالٍ وأجيال دون أن تتلاشى بنصفِ حلٍّ من حلولهم الثعلبية، وعليهِ فقد نزلتُ أرضَ الوطنِ بطلًا قوميًّا. صنعوا مني بطلًا خلالَ أسبوعٍ فقط، فكلُّ ما كنت أحتاجه دون أن أدري للشهرةِ قصيدةً ثائرةً وفضيحةً جنسية لا غير.

تلقفت الفضائيات سيرة حياتي وكفاحي الكاذب الذي لم أعلم من أين جاؤوا به، وتناوَلت الفضائيات المأجورة المعارضة لي فضائحَ تمنيتُ لو قمتُ بها فعلًا، ورأيتُ صورًا لي مع حسناوات شقراوات

وسمراوات تمنيت ولا زلت لو التقيتُ بهن حقًّا. ذكروا أبسط الأشياء قبل كبيرها وعظيمها قبل تافهها بدءًا من لباسي الداخلي حتى ساعة يدي، حتى ***واو*** الخطأ ذكروها ولعنوها وشتموها، بيد أنهم ولا أدري ما السبب لم يتطرقوا لقبل ليدا المربَّعة أبدًا للأسف، مع أنها الذنب الوحيد الذي ارتكبته هناك.

أسبوعٌ واحد بدا كفيلًا لنقلةٍ نوعية لم أتوقعها من قبل.

في أولِ ظهورٍ لي قلت الحقيقة، وقلت ما حدث معي تحديدًا باستثناء الضرب والإهانة اللذين تعرضت لهما، وبعد شهرٍ على ما أعتقد كانت قصائدي ملهمةً للرافضين الذل، والقهر، والكيان الصهيوني.

بيعَت روايتي وديواني بعدها كأكثرِ الكتبِ مبيعًا في العالم العربي، وتفرَّغ النقاد لدراسةِ الرمزية والانزياحات والبلاغة في شعري، ناهيك عن وصفهم سردي الروائي بأنه مُبتكرٌ وشاذٌ عن السرب.

حمَّلوا شعري ما لا يُحتمل وشرحوه بطرقٍ جعلتني أكتشف بأنني لم أكن أفهمُ ما أرمي إليه في قصائدي... لقد فهِموا نصوصي أكثر مني وجعلوا مني عبقريًّا وفيلسوفًا... أكبر مآسينا الثقافية أننا بارعون بصناعة الأصنام لتقديسها، وليِّ أعناق النص ببراعة غريبة؛ ناهيك عن تحميل ما لا يُحتمل الحملَ الجمالي المشوَّه. وقد لا يبدو هذا غريبًا لكثرةِ ما حدث ويحدث؛ إنمَّا الغريب أن تجد مَن يصدق هذه الأكاذيب ويدافع عنها كحقائق ومسلَّمات.

- لكنك عبقري. ***عقَّبتُ على ملاحظتهِ، وقد تعبت يداي من الكتابة، فرحتُ أنفضهما في الهواء.***

- لم أصنع عقارًا ولا اخترعتُ آلةً لأنعتَ بهذا، الكلام وحده لا يدل على العبقرية.

- وتحريك الأمواج الهادئة، والضمائر، والقلوب؟

- كثيرون باستطاعتهم أن يفعلوا هذا إن أَمِنوا العقاب.

- لكنك سُجنت.

- وسجن الكثيرُ أيضًا، هي معادلةٌ يصعب وصفها.

كانت هذه من أواخر الجملِ التي سمعتها منه قبل أن يقاطعني بعد أن نعتُّه بالكاذب، ليقتصر عملي بعدها على برنامج الدواء وشتم سيلا التي لم تنفك تنكر ما شاهدتُه من حديثهما.

- ولنفرض أنني تحدثت إليه، ما الذي يزعجك بهذا؟

- إذن تحدثتِ؟

- لنفترض، ولنفترض أن أحدنا على دراية بلغةِ الآخر، ما الذي يغيظك أنتِ؟

- أنت كاذبة، وقاتلة أيضًا، هذا ما يزعجني.

- وأنتِ أيضًا.

- سأكون إن اقتربتِ منه مرةً أخرى.

- لا يهمني هذا الخرِف لأنني لستُ حمقاء مثلك، قد أتعاطف معك حقيقةً؛ لأنه على ما يبدو الرجل الوحيد الذي لا يراك بدينةً بعينيهِ المغمضتين.

فكرتُ بالانقضاضِ عليها لكنها بعد أن همَّت بالمغادرة استدارت فجأةً فألقمتني جملةً خدَّرت قواي:"بالمناسبة: مريضك لم يتجاوز الستين بعد، هو أصغر بكثير من ملامحه الذائبة، الفحوصات تقول هذا لا أنا. *غمزتني بعينٍ جامدة باردةٍ ومضت*.

أعرفُ أنها أرادت شيئًا ما بهذه الجملة. أعرفُ أنها كاذبة لكنها أكَّدت لي اهتمامها الخفيَّ به غير المبرر.

لم يعد يتكلم بتاتًا ولم أعد أرى عينيه إلا نادرًا. انتظرتُ طويًلا قبل أن أدخل غاضبةً لغرفته واضعةً يدي على أزرار ساعةِ الحائط مشغلةً إياها بعد أن ضبطتها من جديد صائحة به: الآن سنبدأ باحتساب وقتِ هذه القطيعة.

لا أعلم لماذا فعلتُ أو خطرَ لي ذلك، وما الذي دفعني له! لكنه حدَّقَ إلي بذهول قبل أن يهزَّ رأسه بالنفي.

- سامحني.

-..

- سامحني أرجوك.

- اجلسي، أريدُ أن أبعث برسالةٍ لنزار... أوقفي الساعةَ أولًا.

- قبَّاني؟!! *تساءلت وأنا أعيدها لحالتها الأولى وأكاد أطير من الفرحة.*

- ابني. *ولوَّح في الهواء مودِّعًا الوقت.*

- لكنك لم تنهِ رسالة جودت!

- تجاهليها، مزِّقيها، فلم أعد أرغب بإرسال رسالة له، أريد فقط أن أبعث برسالةٍ لنزار.

- لقد كتبتَ له من قبل، كتبتَ رسالتين، وستحذف هذه أيضًا.

- لم أكن صادقًا كما ينبغي فيهما، أريد أن أكتب رسالةً أخرى، أريدُ للقلمِ أن يطاوعني لك أصلان لا معروف، آن لقلمي أن يقتنع بهذا.

- سأجن عمومًا إن لم يقتنع، لكنني سأفعل، لا خيارَ أمامي، جاهزة. ***جلست بثقة والفرحةُ تكادُ أن تمنحني أجنحتها لأطير في الغرفة...*** تفضل.

لم يتريث كعادته أو يغمض عينه بل حدَّق بي بنظراتٍ هادئة كمن يعرف تمامًا ما يريدُ قوله. بنبرةٍ هادئة قال:

- ***بُني***، خشيتُ أن أموتَ دون أن أكتبَ لك، جلدني هذا الشعور بسياطِ الندم؛ ولو وقفتُ على أسرارِ الموت وتنبَّأت ببرزخهِ مُختارًا ما أتمنى حصولَه فيه حينها، لقلت لك: " كنت سأشعرُ بالذنبِ طوال موتي لأنني لم أخصّك بحديثٍ أخير يُشعرك بأفضليتك عندي". تقول لي ريم بأن الموتَ أحكَم سيطرته عليَّ جادًّا هذه المرة فقاومته مُمددًا في غيبوبةٍ استمرت عشرين يومًا على الأقل في سريري بكلِّ ما أوتيت من عمرٍ باقٍ لي.

- هل أكتبُ بأنك دخلتَ في غيبوبة؟

- بالتأكيد، أريدُ أن أكونَ صادقًا.

- حاضر. ***قلتُها متعجبةً من ذكره لغيبوبةٍ حدثت منذ أشهرٍ على الأقل وليس من أيام كما ذكر برسالته هذه، ولكنني كتبتُ ما قاله حائرةً بمقصده. {لعله اختلط عليه الوقت والزمن، أو ظن بأن فترة انزعاجه مني غيبوبةٌ أفاق منها}.***

- ***تعبتُ*** فجأة أثناءَ كتابةِ رسالة طويلة لأخيكَ لم تكتمل، وكنتُ قد كتبتُ قبلها ما يشابهها ولم أُكمل، وها أنا أعود كي أكتب غيرَ تلك التي أردت إرسالها... هذه الغيبوبة شتتني بالكامل. عشرون يومًا من جمود العقلِ بدا كافيًا لجمودِ أفكاري وقلمي عدا عن جمود جسدي الميكانيكي.

أكتب لك لأنني رأيتكَ قائلًا في نفسك وقد قدَّمَت ريم رسالتي له: "ها هو يفضل أكبرنا علينا مرةً أخرى، حتى بعدَ موته".

هذه الجملةُ التي زارت غيبوبتي وأول لحظاتِ صحوي، فقررت أن أفضلك أنت، وأراسلك وحدكَ أنت؛ لا خوفًا من محكمةِ العدلِ الباطلة بين الأبناء، بل خشيةَ أن تصدِّقَ وهمًا ما أردتَ له أن يحتلَّك جرَّاء غيرتك من أخيك، لا لأكذوبةِ تفضيلي له التي لا يحق لك رفضها إن اعتبرناها حقيقة.

من حقِّي أن أفضِّلَ بين أبنائي من يُفضلني، ومن حقه أن يُفضَّلنَي حالَ فضلته، فالحب لا يخضع إلا لقانون واحد، هو قانون اللا أدري.

ولأنك قد ورثتَ طبعًا سيِّئًا من جدَّيك لأمِّك وهو الأنانية؛ فقد أردتَ أن يكونَ كل شيء من نصيبك من اللحظةِ الأولى. لم أخبرك سابقًا أن صوتَ بكائك رضيعًا أول ما نبَّهني إلى أنك لا تشبُهني.

- هذا الطفل لا يبكي كما يبكي أطفالنا. ***هذا ما وشوشت به سميرًا بعد ولادتك***.

- هل هو مريض؟

- كلَّا صوت البكاءِ ذاته يختلف عن صوت بكاء أحفادنا.

انفجرَ سمير ضاحكًا من هواجسي هذه آنذاك، ولم أستطع أن أشرح له أنني بسبب كرهي لبكاءِ الأطفال تحديدًا كنت أفرِّق بين بكاءِ رضيعٍ في عائلتي وبكاءِ رضيعٍ آخر... الشعراءُ يمتلكون حسًّا صوتيًّا في قلوبهم أدقَّ من الحس الموسيقي لدى موسيقيي الصوت، أخبرت والدتي بهذا فأطرقت طويلًا قبل أن توافقني على هذا. الأسوأ من الأنانية في طباعك كان الذكاء التمثيلي ثم تطوُّرُه للذكاء الذنْبِيّ.

هندُ التي تعرف تماما أن أخاك كان يحبها؛ وأن علاقتك بها خيانة له، هي من أوكلت فاعلة خيرٍ لتخبرني بأنك تنام في شقتِّها تلك الليلة.

- أظن أنها العمارة الخمسون بعد المنعطف الثاني- الطابق الثالث.

تلاعَبت بك كما تلاعبت به، ثم أحبَّت أن تنهي مسيرتَها الاحترافية بطريقة الأفلامِ الملَّونة.

عرفتُ صوتَ نيران من أول كلمة، لكنني لم أعرف أنها خالتها إلا بعدها بساعة، بيد أني تظاهرت بأنني لم أعرف فاعل الخير الذي لا يجلب الخيرَ أبدًا.

صدَّقتها لأنني أعرفك، لا لأني أعرفها مُسبقًا، لذا حين فتحَتْ لي الباب لم تتفاجأ بأنني لست متفاجئًا لرؤيتها.

- إذن هي ابنتك؟! *قلت هذا ودخلت الشقة دون أن تأذن لي.*

- كلا، لكن يمكنك القول أنني من ربيتُها، فأنا خالتها، وهل يضيءُ القمر دون الشمس يا صديقي؟

لم أناقشكَ بعدَها بما يخص تلك الليلة... ولم أقل لك بأنَّ أمر الدخول والبقاء والخروج أحياءً مغامرة مدروسة وتحتاج للكثير من الحظ لكن لم يكن هناك من خيارٍ أمامي... ولعلَّلك قد ظننت أن صمتي عن موقفٍ كهذا عقابٌ لك.

في الحقيقةِ كان هذا في بادئ الأمر، ثم تحوَّل لقناعةٍ بأن الحديث معك ما هو إلا مضيعة وقت، فلن تتغير، ولن أغيرَّك مهما قلت.

الناصحُ الذي لا يلمسُ تغيرًا مباشرًا في المقابل فليدرك أن كلامه ذاهب أدراج الريح، أما إن لمسَ تغيَّرا لحظيًّا ويوميًّا بسيطًا، ثم عاد المقابل لتكرار الخطأ فليتمسك بالأمل وليلزمْ التكرار فالتكرار،

وهذا لا يعني أن الإنسانَ لا يتغير بل يتغير بالتأكيد لكن البعض لا يتغير إلا بعد صدمةٍ أو صحوةٍ مفاجئة، لا من خلال الحوارات والنصائح.

لم أستطع تركَك لصدمتك منها طالما علمتُ بالأمر لأنني أبٌ، فانتشلتك منها، مدركًا أن صدمةً مجانيةً أخرى بانتظارك قد تساعدك على التعافي من أمراضك.

تظاهَرتُ بالصدمة في تلك الشقة، وتظاهرتُ بوقوعي في الفخِّ الذي نُصِبَ لي بعد أن جعلوكَ طعمًا لي فوقفتُ منتظرًا قدومَ من أتوقعُ قدومه.

أرادت نيران إطالةَ مدة وجودي في الشقة ظانةً أنها بهذا ستحكم عليَّ قبضتها، وتنفذ خطتها فقالت تستفزني:

- لا زلتَ تافهًا، يبدو أنك قد نسيت أنك الآن في ضيافتنا، كم أنت وقح يا أخي! *قالت هذا بعد أن نعتها وابنة اختها بالمومسات*.

صقر بدا ضمن جمهورِنا حين خرجَ من إحدى الغرفِ باتجاه الصالة ضاحكًا بسخرية، بينما جلسَ شابٌ آخر في غرفةٍ ثانية أخرجته أنا منها بعد ذلك دون أن يبدي أيَّ مقاومة تذكر.

- كان عليك أن تؤجِّل ضحتك وظهورك بعض الشيء، لكنك أخطأتَ خطأ ثلاثةٍ يا صديقي، فوقَعتَ في الحفرة ذاتها التي حفرتها لي.

سبقت جملتي هذه أصوات رجال الشرطة بنصف دقيقة على الأقل؛ أتاحت له حينها أن يوليّ هاربًا وسط اندهاش العاهرتين من تصرفه.

أما أنت يا بني فلم تُستجوَب من قبل رجال التحقيق، بل وأقفلَ ملفُ هذه القضيةِ، وأتلفت الأفلام التي سجلت لك مع هند، لا لأنك بريء ولست طرفًا بجريمةٍ أخلاقية تستحق العقاب عليها حتى وإن بدت مدبرة، بل لأن والدك كان الشاعر الأشهر فاستغلَّ علاقاته داخل الدولةِ لتصبح بريئًا من جريمةِ الزنا وإفساد علاقة زوجية وهمية، وجريمةِ مخدرات ضُبطت في سيارتك... لو وقعتَ لكلفتني ثروتي حينها، أو سمعتي أو كرامتي أو نفسك، وكلٌّ مر.

عليكَ أن تدركَ هنا أنني فضلتك على الجميع، على نفسي، على إخوتك، فضَّلتك على نفسك أنت، فقد أصبحتُ فاسدًا بسببك، وعملت بخلاف قولي، وحملتُ ذنبًا ما كنت أحمله لولاك، فالخطأ إمَّا أن يُقسَّمَ على طرفيهِ طالما اتفقا عليه، أو أن يُمنحَ الطرفان البراءة طالما أنه عمل مشترك بينهم؛ مهما كانت نوايا الأطراف.

سترِبُط الأمرَ بآخر فورًا معتقدًا الآن أن الرصاصة المجهولة التي أطلقت عليَّ في ***قصر المعارف*** في وطني بعد هذه الحادثة بشهرين تقريبا نتيجةً حتمية لهذه الحادثة.

مَن أطلق النار عليَّ هو جدُّك لكن بيدِ رجلٍ آخر. لم يقبضوا على هذا الرجل ليعترف عن محرِّضه، لكنني عرفته فيما بعد، وعرفتُ أن جدَّك قد ندم على زواجي من والدتك، وأن عملي مع سمير أثار حنقه وكراهيته بالكامل، لكن ما شجَّعه على القيام بهذا هو أن موتي كان صفقةً مجزيةً بالنسبة إليه لا أكثر.

(شيك مفتوح) إن سهَّلَ لهم هذا الأمر.

رجل سلَّةِ القمامةِ وغيره من أعدائي لم يستطيعوا تقبُّلَ وجودي على كوكبِ الأرضِ التي يظن هو وأشباهه بأنهم يملكونها؛ رغم مضي ثلاثين عامًا وأكثر على الحادثة، فما إن امتلك نفوذًا حتى

راح يُفتش في دفاتره القديمة عن أعدائه على ما أظن، أو أن أحدهم قرأ على مسامعه قصيدتي ***سلة القمامة*** الطازجة آنذاك فظنَّها موجهةً له مع أنها في الحقيقة موجهة له ولهم.

قيل لي بعدها أن صقرًا يعمل مستشارًا لديه بعد فراره من الوطن ووقوعه كالطير على أشباهه. فكتبتُ مقالًا صغيرًا بعدها -سيما وقد شدَّدتُ حراستي- عن الصقر الذي لا يهبط على الأرضِ بتاتًا قاتلًا نفسه إن استطاع بعد صيده بسبب أَنَفَته. هنا يضع المروِّضُ قماشةً سوداء على رأسِهِ كي لا يرى نفسه ضمن فترةِ معيَّنة ليتحول هذا الصقرُ مأمورًا عند آمره، هذا قد ينطبق علينا أيضا، على الرافضين والطامحين إن جاءوا.

الصقرُ الآخر من تتركه بين الدجاج، فيعتاد الأرض، ولا يقبل مرتفعًا وإن رفعته.

أجملُ وأسوأ ما في تلك الحادثة أنني قابلتُ بسببها حبيبتي، أو خطيئتي الكبرى.

- أشتهي الآن أن أعتذر للمجرم وأمدحه بقصيدةٍ عصماء على تلك الرصاصة التي أحضرتني لهذا المشفى. ***وشوشت بها الممرضة الحسناء التي عشقتها فور رؤيتها في مشفى الوطن الذي نقلت له بعد إسعافي.***

- ستجعلني من الغاوين رغم أنفي على ما يبدو. ***قالت ذلك والحمرةُ تتقافزُ من وجهها الساحر.***

عشقتُ مرتين، ولن تعارضني بنظريات الحب والعشق القديمةِ وما شابهها، فقد ارتضيتُ حينها بالنسبة لواقعي أن أكون شاذًّا قلبيًّا ومغرِّدًا خارج السرب، مع أنني لم أصدق حينها أولئك الرجال الذين تحدثوا عن الحب الواحد أو الحب طويل الأمد، الحبُّ الواحد

لا يكون إلا للخالق الواحد فقط يا بني وسوى ذلك فنحن متعددو الوجهات والجهات.

أخذوا قوانينَ الحبِّ من أفواهِ مجنونٍ، وخائنٍ، وناسك، فلا أدري كيف ينظِّرُ للحب أضدادٌ فيتفق العقلاء عليه، متجاهلين ما أرادوا تجاهله... أما أنا فقد عشتُ حقبتين انتقاليتين كما ستحيا أنت وغيرك لتبدأ بالمقارنةِ بين حاضرك وماضيك، فجدتي لم تمانع زواج جدي من غيرها ومجتمعها كذلك، لكن جيلي الذي مات أغلبُه جمَّد هذه الفكرة ليصبح التعدد تراثًا.

جيلُكم الآن لا يتزوج إلا متأخرًا وعبر زواجٍ هشٍّ ينهار عند أول ريحٍ عابرة تضربه، طالما أن أبواب الحضارة المتآكلة انفتحت على غاربها لنا.

بسببِ رفضِ المرأة التعدد آنذاك، ومشاركةِ زوجها بأخرى، ومع انتشار الفقرِ وتزايد الأصواتِ المطالبةِ بالمساواةِ الكاملةِ، وتحت ضغطِ صندوق النقد الدولي الذي انهار عام ٢٠٥٥م جاء القرار الذي يمنع زواج الرجل مرةً أخرى في معظم دولِ العالمِ الثالث، ومن المضحك الآن أن تعود المرأةُ ذاتها وبعد أربعين عامًا من تحررها ومساواتها قانونيًّا مع الرجل؛ وبعد نيلها لما أرادت للمطالبةِ بفرضِ اللباس المحتشم والزواج التعددي، وأن تتعالى الأصوات مطالبةً بتدخل القانون لفرض هذا ولو بالقوة.

المرأة في ذلك الوقت كانت تميل للرجل الشرقي، والقوي، والمستبد، وصاحب الأفكار الغريبة وتفضله في حياتها وسريرها، مع أن الكثيرات كنَّ يفضلنه بحياتهن، ويشعرن بالأمان بعشقهِ وصداقته شريطة ألّا يكون زوجَ إحداهن، لكنَّها ومع ذلك ظلَّت تنادي بعكس هذا حتى خسرت قيمتها الحقيقية فعادت تطالبنا بالعودة للنقطةِ الأولى من جديد، حتى أنه من الطرائف أن إحدى

الجمعيات النسوية العريقة رفعت شعارًا بعد ذلك؛ يحتوي على جملةٍ واحدة: "اقمعونا أرجوكم". ومن المضحك يا بني أن يفهمَ الرجلُ المرأة في جميع العصورِ أكثر من فهمِ المرأة لنفسها.

تساءلتُ بعد تلك الجملةِ إن كان الرجلُ فعلًا على درايةٍ بالمرأة إلى هذا الحد؟ لست مقتنعةً بالتأكيد بأنه يفهمها أكثر من نفسها كما يدعي، أو أنه يفوقها ذكاءً وعاطفة. هو نفسه لا يعلم أنني تحولتُ من معجبةٍ قارئةٍ لشعره لتاجرةٍ تحاول كتابةَ وتسجيل كلِّ موقف وحدثٍ وحرف يصدر منه؛ كي تتاجرَ بها يومًا. منذ التقينا وهو يحدثني بالأسلوب ذاته، وينظر إلي النظرة الحانية ذاتها معتقدًا أنني تلك البلهاء التي كادت أن تسقطَ مغشيًّا عليها بعد أن تعرفت على شخصه في قسم الدخول.

لم يلاحظ أيًّا من تحولَّاتي النفسية والفكرية، وجشعي الفكري الذي لا ينفك يحرضه على ذكرِ أي فضيحةٍ وأكاذيب سابقة؛ قد تساعد على ترويجِ ما نويتُ تدوينه في كتاب، حتى أنه لم يلاحظ أن وزني بدأ بالتناقص لدرجةٍ كبيرة بعد أن عزمتُ أن أتحولَ من فيلٍ لفقمة. ما زال يراني كما أراد، هو من أشار إلى هذه الفلسفة لكنه لم يستفد منها.

{انظري كيف تحولتِ خلال شهورٍ من فتاةٍ لطالما دعت الله أن يُشفي مريضها الشاعر إلى فتاةٍ ترجو فقط ألّا يموت قبل أن يدلو بدلوه، من فتاةٍ أرادت إثبات شخصه عبر فحوصات حاربت للموافقةِ عليها، وبين فتاةٍ لا تريد لهذه الفحوصات الآن أن تظهر للعيان. ليس خوفًا عليه، بل خوفًا من أن تخسر الكنز الذي بين يديها، موته لم يعد مُتعلقًا بحزنك عليه، بل بحرصك على ما تريدينه منه، فليكن هذا، لقد نالَ من الشهرةِ والمال ما لم ينله شاعرٌ قبله، ألا يحق لي وأنا القارئةُ الأولى له أن أمصَّ إصبعي من بقايا ثرائه؟}.

لن يفهمنا الرجل رغم حيرتي حين يلامسنا بكلماته على لساننا أكثر منَّا، لن يفهمنا طالما أننا نتغير ونتقلب أكثر منه. ننضجُ سريعًا،

ونتأنثُ سريعًا، ونعشقُ سريعًا، ونكره سريعًا، بينما يسيرُ في أفقيته بخطواتٍ ثابتة لا تمكِّنه اللحاقَ بنا بكل تلك المنعرجات والمتاهات النفسية... الثياب تحديدًا مَن تدلك على الفروقات الشاسعة بين النساء أنفسهن: فروقات الذوق، واللون، والإحساس، والشخصية، فمن النادر الذي لا حكمَ له أن تجدَ تشابهًا بأبسط الأشياء بيننا، بل من السهل أن ترى التشابه بين الرجل والآخر في الملبس رغم فروقاته البسيطة.

وقد يظنُّ الرجلُ أنه فهِمها بيد إنه وإن تساوى معها في عصرنا بالكامل فقد لازمه الشعورُ بالأفضلية منذ القدم، لذا تغيَّرت أفعاله ولم تتغير أفكاره.

ميمون نفسه، ورغمَ كلِّ شيءٍ، ظنَّ بأنه فهِمني أكثرَ من نفسي، رغم أنني لم أتكلم معه في الوكر؛ بكائي واستجدائي ثم صمتي المطبق، ثم نظرات الشفقة التي وجهتها لوالده، ثم الحديث الذي دارَ بيني وبين شهد دفعه لهذا التفكير، توسَّلَ للبوليس بأن يحدثني لدقائق. بدا غبيًّا حين لم يعلم أنهم أرادوا ذلك ليستخلصوا منه ما أرادوه من معلوماتٍ من خلالي بسلاسة.

لم أستطع الرفضَ بعد أن أجبرتني والدتي وزوجها جاد أن أساعدهم خدمةً للعدالةِ والمجتمع، أضحكتني كلمة ***العدالة***، هذه الكلمة الفضفاضة التي تحتمل الظلمَ في معانيها أيضًا، وتحمل الكثير من الوجوه المتناقضة داخل أحشائها.

العدالةُ أن يسجنَ طاقمُ المشفى الذي طردَ مريضةَ الربو من قسم الطوارئ، والعدالةُ أن يسجن المدراءُ والشاهدون على ذلك... العدالة أن أشعر بالخزيِّ بدل أبي سند وأطرد مكانه... العدالةُ ألّا تُعاقَب شهد العجّان طفلةً لأنها ابنة ابيها دونَ ذنب، ويُرَحب بابنةِ

القسيس والإمامِ دون سبب، متجاهلينَ أن الجدران تخفي قبل وجوهنا حقائقَ النفسِ ناهيك عن حقائق الأعمال.

ماتَ والدي مرتين، مرةً عند موته، ومرةً حين تزوجَت أمي بآخر... العدالةُ أن تحظى بزوجٍ جديد، والعدالةُ أن يعودَ لي أبي، وما بين العدلين فقد وجدتُ نفسي أميلُ فقط للطعام. أردتُ التهامَ أي شيء من أجل لا شيء، أو لعلي أردتُ تخزينَ الماءِ والطعام والشراب داخلي لأنني قد أجوعُ يومًا لا محالة. أكثر شيءٍ حركته في حياتي بدل عقلي وأطرافي هو فمي.

لم يزعجني وصف بدينة بالقدر الذي ادعيته. انزعجتُ من أبٍّ يمسك يد ابنته، من أبٍّ يوبِّخُ أولاده، من أبٍّ سافر ولم يعد تحت رجاءِ ابنائه بالعودةِ لهم، من أبٍ مقعدٍ، وعاجزٍ، ومريضٍ، وتافهٍ، ووضيع فقط، من أي أبٍّ ومهما كانت صفاته وطباعه.

فرَّغتُ أحقادي يومًا ب أبي سند رغمَ حنوِّه وتشجعيه الدائم لي، فلما ندمت على ما فعلت عاد لي مجنونًا متهمًا إيّاي أمام ابنته أنه رآني أحرق الطاولة والستارة... دفعته عني ولم أسمح له أن يكمل كلامه... لم أرد حينها تصديق أنه رآني فعلًا، ولم أرد أن أستمع للمزيد من الكلام فقد كنت أخشى أن يقول لي أيضًا: "وقد رأيتك تضعين الأدوية في حقيبتي".

لو قال هذه الجملة لأكَّد لي بأنه تعامل معي كفتاة مريضة نفسيًّا لا أكثر. فتاة يلزمها أن تعطف عليها، ولا تغضب منها مهما فعلت لأنها ليست عاقلة ولا سوية.

عقله الباطن من استخرج كلمة "بدينة" التي لم يقلها لي سابقًا، وهي بالتأكيد السبب الرئيسي لعطفه علي، فلمَّا فقد عقله وصفني بها دون تردد.

ليته لم يقل لي هذا، وليت عطفه كان فقط لأنه رآني ابنته فعلًا التي لم ينجبها لا شفقةً عليّ، وليتني لم أعرف أنه كان ينظر إلي داخليًّا كما ينظر إلي الآخرون، حتى وإن كان يتصرف بعكسِ ما يبطنه.

لا فرق إذن، لا فرق بين من يحتفظ بنظرته لك في داخله، وبين من يصرح بها... كلاهما يصلان لنقاط متشابهة في النهاية.

طردوه وطلبوا من رجالِ الأمنِ تفتيشه فجاء موظفٌ كارهٌ له وحاول النيل منه أثناء ذلك. شعرتُ بأنه سيهوي من شدة القهر لكنه تحامل، ووسط العيون الشامتة ووسط العبارات التي تتهامس متفاجئة كذبًا بأن كيفَ لمسنٍّ مثله أن يسرق؟! راح يسير إلى الخارج مطرودًا ومنبوذا... ولأنني كنت منبوذة أمام نفسي أيضًا فقد أردتُ بدايةً أن أنكرَ حادثةَ اختطاف العجَّان بمجملها وأدَّعي أنني صديقة لشهد. وددت بشدةٍ أن أفعلَ وأصر على هذا أمام المحقق سند قبل أن يتجاهل أمانيَّ بالكامل.

- لن يؤذوك، صدقيني، لا تخافي منهم، لدينا من الدلائل ما يكفي لشنقهم.

- لكنهم لم يختطفوني، كنت ضيفة.

- لا زلتِ خائفةً إذن، عليكِ قول الحقيقة دون التفكير بانتقامهم أو تهديداتهم، سأكرر مرة أخرى: ستكونين في أمان. صدقيني.

- هم عائلة ط..

- عصابة وقتلة، وشبكة دعارة، لقد بحثنا عنهم طويلًا. ***قاطعني آمرًا مُلقِّنًا إيّاي ما علي قوله عنهم.***

- سيف؟

- سيف؟!!!

- هو مَن أرشدكم للمكان، لم أره.

- من؟

- سيف.

- غريبةٌ أنت حقًا.

- هو ابن العجّان، أليسَ هذا صحيحًا؟

- سنتبادل الأدوار، بإمكانك الجلوسُ مكاني.

سند أيضًا لم يفهمني فقد ظنَّ أن إنكاري لحادثةِ الخطفِ بدايةً، وفضولي للحديث عمَّن انقذني رغم أنه ابن العجّان سببه الخوف، لذا فقد تمسَّك بهذه النقطة وراح ينسج عليها مسارَه القادم بما يتعلق بالتحقيقات... لم يفكر بتَاتًا إلا بما اقتضتهُ الضرورةُ والمنطق قبل روتينه أن يفكر به.

قد أبعثُ له يومًا برسالةٍ أدحضُ فيها قناعاته أيضًا رغم أنني لم أفكر بهذا مسبقًا. من الجميلِ حقًّا أن ترسلَ لأحدهم رسالةً بعد أعوامٍ طويلة لتبين له كم كان مخطئًا عندما فكر وقرر وتحدث بلسانك!

سأقول له: سيدي المحقق سند المحترم، أنا ريم، أنت لا تذكر ريم هذه بالتأكيد. هي أبدن ضحيةٍ أنقذتَها في حياتك، وهي التي ظننتَ بأنها يومَ أرادت أن تبرِّئ العجّان وأولاده كانَ بسببِ خوفها منهم. ريم التي لفَّقت تهمةَ والدك الذي فقد عقله بسببها، وهي الشاهدة على تغيير موقفك بأقل من دقيقة، والحافظة لتقاطيع وجهك حين ارتضيت الاحتفاظ بعملك على حساب كرامة والدك.

لعلك لم تعد تتذكر العجّان مع أنه لا يُنسى. العجّان هو رئيس العصابة التي قبَضتَ عليها وأودعتَ أفرادَها السجن فترفعتَ بسبب

هذه القضية وأصبحت بطلًا جراء القبض عليه. هو الرجل الذي راحَ يبكي بحرقةٍ لأن ابنه مَن وشى به لديكم صارخًا: "لولاه، لولا ابن الكئيبة لما عرفتم طريقي يومًا، لا تتفاخروا بتحقيقاتكم الواهنة، وتبنوا بطولاتٍ كاذبةٍ على ظهورنا، لولاه -فقط- لما استطعتم اكتشافَ فأرٍ قرضَ مؤخراتكم"... وهو والد شهد، تلك السمراء الجميلة الطازجة كخوخةٍ على غصنٍ أخضر. تلك التي حققتَ معها طويلًا، ثم طويلًا، ثم اقتنعتَ ببراءتها دونهم بقلبك الكبير الحاني، قلتَ لي: لا ذنبَ للفتاة.

- ولا لأمِّها أيضًا.

- لكنها!!

- ولا لأمها أيضًا.

حدَّقتَ بي، أقرُّ بأنك فهمتَ مقصدي عندما فهمتُ مقصدك تماما، لذا فقد سبقتك بخطوةٍ لم أقررها سوى لإغاظتك، فأنا لا أحبُّ الأمهات بتاتًا يا سيدي سيما حين يتزوجن بآخر. لذا تمت الصفقة كما شئنا، وكما شاءت العدالةُ الظالمةُ أن تكون.

لم أخبرك حينها عن مشيئتي بتبرئتهم جميعا. ولو كنتُ الدليلَ الوحيدَ لبراءتهم لفعلت وصممت على ضيافتهم لا اختطافهم، لكن وجوه الضحايا التي اكتظت بها غرف التحقيق، وحالة الجلبةِ، والسرعةِ، والفرحةِ في وجوهِ أهالي الضحايا، والدلائل المادية المضبوطةِ من سلاحٍ، ومخدراتٍ، وحاجياتٍ مسروقة؛ جعلَتني أسيرُ مع الجموعِ لأنني الشعرةُ التي لن تقصمَ ظهر البعير. أردتُ عكسَ ما أدليتُ به لأنها المرةُ الوحيدة التي تساءلت فيها عن حقيقتي وماهيتها، لأنها المرة الوحيدة التي رأيتُ التشابه الغريبَ بين أراذل الناس ومن دفعوهم لهذا... قل لي سيدي: بماذا تختلف

عنهم أنت؟ لقد برَّأت شهد لقوامها وأنوثتها ولوعدٍ قطعتهُ على نفسها أن تكون بين يدك متى أردت لها ذلك. قد لا ألومك حقيقة فالفتاة جميلة جدًا، بينما سجنتَ ميمونًا لفحولته الكاذبة رغم أن دوره اقتصر على التهريج في ذاك الوكر وبشهادة الضحايا جميعهم، فبماذا أختلفُ أنا عنكَ وعنهم؟ بماذا أختلف وقد ماتت العجوز بسببي؟ وفقد أبوك وظيفته وعقله بسببي؟ أو بسببك أيضًا حين ارتضيت ألّا تثبتَ براءته خوفًا ممن لا أعرف... والدك وبراءته وعقله وُضِعت في كفة، ووُضعت أنت في كفة فرجحتَ أنت يومَ تخليتَ عنه.

الحياة الآثمة أيها المحقق قد تقرضنا أشياءً ثم تستردها عبر نظام الربا؛ فلعلها أقرضتك التخلي عن حق والدك لتستردَ دينها منك بعدها بفراشِ شهد. ولعلها أقرضَت شهد فراشك كي تسترد دينها منها في مكان آخر... قد تسقط هذه الديون والقروض فجأةً فقط إن عدنا لفطرتنا السليمة، ومحقنا الشر الذي يراودنا بين الفرصة والفرصة المواتية للظفر بها.

بماذا يختلفُ عنَّا أكثرُنا استقامةً حين يمارسُ الصمت؟ أو حينَ لا يغضبُ إلا لنفسه؟ بماذا يختلف حين لا يتوجه للأراذلِ لثنيهم نصيحةً وإقناعًا عن أعمالهم المشينة؟ قل لي: ما هو الفرق بين وجهٍ لم يتقعَّر نصرًا للفضيلةِ وبين وجهٍ غارقٍ في الرذيلة؟

نمارسُ الظلمَ حسبَ قناعاتنا وما نبرره لأنفسنا لنشرِّعَه حلالاً وتعاطفًا، ونرفضُ الظلمَ الواقعَ علينا وإن مارسنَاه بأساليبَ أخرى على الغير... ***{أمَّا "ليس لها ذنب" فوحدك من تعلمينَ بأنها جملةٌ لقِّنَت لجميعِ الضحايا ثم ترددت على ألسنِ غيره، لكن لا بد لك من موافقته عليها بالكامل، فالحقيقة هي: ألّا ذنب لها. بل لا ذنبَ لهم جميعًا طالما أن الذي يفصلُ بيننا أخلاقيًا هو جالدنا متى أراد}***.

لعلَّه الآن بالطبع لا يريد أن يتذكر شيئًا مما أودُّ قوله، فإن قرأ نفى وأنكر مقسمًا على عدالته وموازينه الدقيقة، ثم ثارَ يعدد بطولاته أمام أبنائه متناسيًا صمته وانكساره أمام والده، لذا لن أتركَ له رسالةً لن توقظ في نفسه ما أماته مذ قرر بأن من حقه ممارسة الصمت، وتبرئة واتهامَ المتشابهين لاختلاف شكلِ أجسادهم.

- الوحيدُ الذي لم يَتعرف عليهِ أحد هو ميمون، بإمكانك مساعدتنا.

- لديكم أدلتكم.

- لا تكفي لسجنهِ طويلًا، هذا إن لم يبرَّأ بالكامل لحملِ والدهِ أوزاره.

جلسَ ميمون أمامي مكبَّلا مشدودًا بالكامل إلى مقعدٍ في غرفةٍ خلت من سوانا... بدا غبيًّا أو يائسًا حين راح يعتذر لي عن تصرفه المشين معي.

- لستُ غاضبة الآن، لم يعد هناك شيءٌ يغضبني.

- أنا لم أفعل شيئًا، كلُّ ما فعلته أنني ولدتُ لهم فراقبتُ ما يفعلون.

- سيف راقبهم، وفعلَ أمرًا آخرَ.

- لقد تركنَا صغيرًا، قبل أن أولد أنا، تحررَ مبكرًا... لم أره مسبقًا، والدي فقط مَن قد يتعرف عليه، حتى أمي نسيته بالكامل.

{لم أره أيضًا لكنني سمعتُ صوته الشبيه بصوتِ شاعري}.

-"هذه طرقات ضيف لا اللعين سيف"؟ ***نظراتي تزامنت مع السؤال كمترقبة.***

- يقولها دومًا عندما يُطرق الباب لأنه لا يُطرق إلا نادرًا، فأبوابنا لا تُطرق لا من ضيفٍ ولا من أخ.

- من البوليس إذن؟

- كلا، هذه المرة الأولى التي تداهمنا بها فرقة رجال الشرطة، بالعادة تُطرقُ من عابرٍ ضلَّ سبيله أو أحد ضحايا شهد.

- لماذا وشى بكم؟

- لا أعرف، كل ما أعرفه أنه حاولَ كثيرًا ثنيَ والديَّ عن عالمهما قديمًا قبل أن يختفي ويعودَ قبل أشهرٍ بجوازٍ آخر لا يحمل اسمه ولا اسم عائلة العجّان، لم يلتقِ أحدٌ به منا سوى والدي الذي فتح له الباب متفاجئًا وقد شُبِّه له.

- نعم، أنا سيف. *قالها سيف والعجّان يحدق به غير مصدق ما يراه.*

- هذه المرة الوحيدة التي لم أقل فيها "هذه طرقات ضيف لا سيف"، لو كنتُ أعلم أن عدم قولها سيأتي بك لأعرضتُ عنها قديمًا.

- هل ستحتضنني؟

- هل أنت بحاجةِ حضنِ سافلٍ مثلي؟

صمتَ وظلَّ مترددًا باللحاق بوالدي للداخل لكنه دخلَ أخيرًا، وبعد حديث قصير خرج ولم يعد إلا تلك الليلةِ بصحبةِ البوليس؛ أي بعد شهرٍ من لقائهما هذا والذي جاء بعد وقت طويل، لعلَّه كان أحد الواقفين في الخارج أو في المركز فلم أعرفه.

- لقد أنقذني عمومًا.

- أنقذكِ منهم، أقسم بأنني لم أقترب يومًا من فتاة. كلُّ ما أفعله هو المراقبة، وأحيانا إخافتهن، لم أمسَسك كما إنني لم أمسس غيرك.

المسكين ظنَّ أن براءته بين يدي. ليتها كانت كذلك، وليت أن براءتي كانت بين يدي أبي سند بدل أن تكون براءته في يدي. كان على الأقل سيفعل شيئًا لإنقاذي بدل التفرج علي كما تفرجت عليهِ حينما طُرد خارجًا لا حول له ولا قوة.

لكنني لا أملك شيئًا حتى هذه اللحظة إلا قلقي وحيرتي. حيرتي التي تنظر من خلالي إلى أصلان الغارق في غيبوبته المفاجئة. تركني كعادتهِ وحيدةً ومضى في فراشهِ نحو غيبوبةٍ إلى حيث لا أدري.
سيلا تصرُّ بأنها أنفاسه الأخيرة، أشعرُ أنها تقولها بحزن ثم تتصنعُ القسوة، وكلمَّا شعرت بهذا الشعور تناقَضتُّ ولم أعد قادرةً على فهمها؛ أو فهم حالتها هذه.

- لقد تآكل من الداخل، عليكِ أن تجهِّزي كفنَه كي تدعو لك روحه بأن تتحفي أكثر.

- سخيفة.

- سيموت.

- وأنتِ كذلك.

- لكنني سأجد حينها من يبكي علي، أما هو فلا أظن.

هل سأبكي عليه إن مات؟ سؤالٌ أثارته هذه اللعينة فأعادني لتناقضٍ داخلي أحياه. قد أبكيه بحرقة كشاعرٍ تأثرتُ بكلِّ ما فيه، وقد أبكيه فرحةً من الداخل إن حصلتُ على جميعِ ما لديه، وقد أصمتُ لأن الصمتَ هنا أصدق ما قد أفعله أمام نفسي.

رحت أتنقل بين ملفات حاسوبي لأجد ملفًّا هو من أوائل الملفات التي أملاها عليَّ في الشهرِ الأول حينما أقنعته بضرورةِ كتابةِ

ملخصٍ لحياته، وقبل أن يتوقف ثم ينتقل بعدها ويدفعهُ الحنين لكتابةِ رسائلَ لذويهِ بدلًا عنها.

رحت أقرأ بصوتٍ منخفض كسرًا للملل الذي أحياه بسبب غيبوبته:

"**لم** أكتب يومًا من أجلِ الكتابة، ولا امتهنتُ الفضفضةَ الكتابية، إذ لستُ من أولئك المرددين للجملةِ الغربية "أكتب كي أعبر عن نفسي"، فقد عبَّرت عن مشاعرَ من لا مشاعرَ له، ولو تسنى لي لعبَّرت عن مشاعر الكائنات الفضائية التي يحاولُ العلماء جاهدين التوصّل للغةِ خطابٍ معها بدل الرسومات والإشارات المتداولة بيننا منذ مراسلتها لنا إلى هذه اللحظة، لا أنكر أن كتابة الرسائل أحيانا وتوجيهها يندرج تحت الكتابة المباشرة الصادقة في أغلبها بين متجاذبين، بيد أنها حينما تخلو من الإخبار والنصيحة، وبث الأشواق، ستكون الأقرب للحديث الحقيقي بين اثنين يشكو أحدهم ظرفًا ما للآخر... الغاية من حديثنا للآخر عن معضلة أو حيرة ما تؤرقنا؛ في الأغلب سببها أننا حينما نتحدث نبدأ من الصفر، نرتب أفكارنا ونتسلسل بالحديث من نقطة البداية بصوتٍ واضح مفسرين وشارحين؛ غير تاركين شاردة ولا واردة في موضوعنا إلا ذكرناها كي يفهم المقابل ما نريد له أن يفهمه، أو ليفهم الأمر كما نفهمه نحن... بعد أن نقوم بهذا نجد أننا عرفنا الحل لمشكلتنا؛ وأزحنا الحيرة بقرار اليقين الذي سنتخذه بعد هذا الحديث؛ رغم أن المقابل لم يتفوه بعد بأي حرف ردًّا على ما سمعه منا، يحدث هذا لأننا فقط عندما شرحنا الأمر كاملًا وجدنا أننا شرحناه لأنفسنا قبل شرحه للآخر، فوجدنا الحل مختبئًا بين السطور الصوتية، رغم أن اكتشافه كان سهلًا من البداية.

لكنني ما زلتُ أحاول إقناع هذا القلم مذ وصولي لهذه الجزيرة اللعينة بأنني أصلان لا معروف فيأبى أن يقتنع.

يختلف هذا الأمر بين مُتَناقِشين يتمسك كلٌّ برأيه؛ أنت هنا أمام هدر للوقت بسماع الحقيقة وعكسها في الدقيقة الواحدة وعلى لسان الاثنين، فالنقاش مضيعة للوقت إلا إن كان طرفاه قد جلسا بحثًا عن الحقيقة لا التفرد ودحض المقابل، وهذا ما لا يحدث إلا نادرًا، وها أنا الآن أجد نفسي بعد خمسةٍ وسبعين خريفًا على الأقل امتهنتُ فيها الكتابةَ غيرَ قادرٍ على كتابةِ شيء الآن إلا نفسي. لقد أفلستُ تمامًا وعجزتُ عن التفكير؛ مجرد التفكير بقصيدة، أو قصةٍ، أو روايةٍ لا تشبه ما كتبت يومًا. ولا تكرر نفسها وتكررني، ناهيك أن لا جدوى من كتابة أشياء لا تهمُّنا شخصيًّا في الوقت الضائع.

عضلاتُ العقل الفكرية كعضلات الجسد وإن كان عمرها الفتي أطول قليلًا، عضلاتنا تدفعُنا للركض والقفز بحيوية ثم تبدأ بالتناقص العزميِّ وتبطأ حركتها الميكانيكية؛ فنستسلمُ لواقع الحذرِ مِن القفز من الأسوار العالية أو حمل الأشياء الثقيلة بما يتناسبُ مع عمرنا... نلمسُ ذلك فنخضع لواقعه، أما عضلات العقل فلا نلمس ضعفها إلا عند نقطةِ الصدق والتسليمِ بأننا لم نعد نقدم شيئًا.

أشعرُ الآن بتأنيبٍ ضميريٍّ لانتقادي أدباءَ كبار تراجعَ مستواهم في أواخر حياتهم فبدوا وكأنهم بدؤوا من جديد... أشعرُ بهم حينَ أدمنوا الكتابةَ فلم يستطيعوا هجرها ولا استطاعوا مجاراتها، فلا هم استراحوا إن صمتوا، ولا استراحوا إن كتبوا.

الجميعُ يسعى للقمة مدركينَ تمامًا أن القمةَ هي النهاية.

لم أصلها بل توقفتُ على مسافةِ أميالٍ منها. رأيتُ الكثيرَ ممن يستحق ولا يستحق أمامي فلم أستطع اللحاق بهم، فكانت قمتي البعيدة أشبهَ بنقطةِ البداية، كلتاهما ما أرى ولا أستطيعُ الوصول أو الرجوع إليهما.

الحقيقة أنني لم أحب الوصول للقمة في لحظاتِ ما قبل الوصول إليها؛ فعدت أدراجي حين رأيت أن معظم من عليها كان من الأنانيين والانتهازيين والمتسلقين الكذبة؛ وغيرهم ممن صنعتهم قوى الشر، فأحببت القاع أكثر لأن ساكنيه من البسطاء والطيبين الذين تمنيت أن أكون بينهم.

الطيبون لا يحتاجون بالعادةِ إلى إظهار طيبتهم، ولا يحتاجون منَّا أن نتحدث عن مزاياهم، فإن تفاخروا بذلك أو قبلوا المدح فلخللٍ قد حدث في طبيعتهم وتحوُّلٍ طرأ عليهم، فالصورةُ النمطية للطيب أو الخبيث لا تتغير مهما سعى الآخرون لتزويرها، لقد أُنتُجت آلاف الأفلام لتحسين صورة ***الفأر*** في أعين الأطفال واليافعين وإظهاره بمظهر الذكي المسالم والمرح، لكنَّ ذلك لم يحدث، فالفأر لم يزل هو الفأر القميء المقرف في أعين الجميع.

لذا فعليَّ أن أبدأ من النهاية الأهم لأنها الأقرب، ولأنني أحياها الآن بكامل وعيي وصدقي، سيما وأن الزمن لم يلتهم أدقَّ تفاصيلها بعد. سأبدأ لأنها المرةُ الأولى التي أستمعُ فيها لرأيٍّ مخالفٍ وأقتنع به رغم أنه جاءَ على لسان ريمي الصغيرة التي لم تتجاوز الثانية والأربعين بعد... لعلِّي شختُ كثيرًا أو أصابني الخرف فانقدتُ لرأيها بكتابةِ سيرتي كما أشارت عليَّ مذ ولدتُ وحتى اللحظة، عوضًا عن تلك السيرة التي ضاعت مني في بنغازي.

كنت قد بدأتها يومًا بهذه العبارات: "ماتَ أعزُّ أصدقائي، مات مسمومًا كما عرفتُ بعد ذلك". وها أنا أبدأ بها مجددًّا. عانقني ابنه فورَ وصولي المشفى، وراحَ يبكي على كتفي بحرارة، حاولتُ أن أقولَ الكثير مما اعتلجَ في صدري حينها لكنني توجهتُ نحو سمير الممدد على طاولة الموتى مغلقًا الباب خلفي؛ واقفًا أمامه دون أن أقول شيئًا مهمًّا رغمَ أني تكلَّمت معه كثيرًا، وعاتبته على

رحيلهِ الصادمِ كثيرًا، وبكيتُ كثيرًا... وقفتُ بعدها على قبرهِ أحدث الناسَ عن فلسفةِ الحياة والموت التي تحيرني، وعن الإنسان الذي يحضرُ فجأةً ويحيا دفعةً ويموت خلسةً، عن الأماني التي لا تتحققُ في كثيرٍ من الأحيان إلا عند الموت.

اصطحبتهُ يومًا ***لميونخ***، تجولنا في مدنها وأرصفتها الإلكترونية، وركبنا السيارات النفاذة، والغواصات المكوكية قبل أن أجهِّزَ نفسي بعد يومِ راحةٍ لأمسيةٍ في مسرح ***السينود***.

كان أمامي حينَ بدأتُ بالقراءةِ لكنني لم أجده بعد دقائق، وتابعت القراءة رغم أنه لم يعد، وشارفتُ على النهاية، وأنهيتُ، وصفقَ لي الجمهور، ولم يعد... رأيتني أثناء ذلك جالسًا في مكانه حيثُ يفترضُ به الجلوس، لقد رأيتني جالسًا بينما كنتُ ألقي شعري مِن على المنبر، للحظةٍ شعرتُ بأنه تنكر بهيئتي ممازحًا، ثم عدتُ واختفيت من أمامي دون أن أعرف من اختفى من على ذلك الكرسي، أنا أم هو؟

خرجتُ أبحثُ عنه في أرجاء وخارج المسرح يصحبني بعضهم فلم نجده، اتصلنا بالفندق وأخبرنا البوليس عن رجلٍ مضى على اختفائه يومٌ كامل فلم يجدوه ولم أجده.

كنتُ في الخامسةِ والسبعين حين اختفى من يكبرني بأعوامٍ، وقد عادَ طفلًا تاه في صخب المدينة، بينما عدتُ طفلًا لا يفكر، ولا يقرر، ولا يعبر... قضيتُ شهرًا في استراحةِ الفندق منتظرًا أيَّ شيء، دون أن أفكر بشيءٍ سوى أنني لا أريد أن أسمعَ خبرًا سيئًا.

ثم دخلَ فجأةً مبتسمًا وهو يدورُ ويحركُ يديه كمن يطير متجهًا نحوي.

- صديقي أصلان.

فتحَ ذراعيه وراح يضحك بتصاعدية وينادي: "يا صديقي، يا أصلان".

وقفَ أمامي فلم أنهض. الحقيقةُ أنني نسيتُ اختفاءه وقلقي، كلَّ قلقي عليه ورحتُ أبتسم وكأنه عاد بعد دقائق من غيابه، تحسس وجهي وقد أمسكه من جهتيه ناظرًا إلي.

- أنت بخير؟ *قالها مُتلهفًا*.

- بخير.

سحبني من يديَّ ورحنا نرقص سويًّا كمجنونين في القاعة بينما راح يدندنُ لحنًا ***شُروقِيًا*** قديمًا.

- أين كنت؟

- هناك.

- أين هناك؟

- في مكانٍ ما.

وقفتُ فتوقف ثم تذكرتُ غضبي منه فصحت به: أين كنت لقد

- هسسسسسسس يكفي أرجوك.

نظرَ بعيدًا ثم صاح: "أنت، أنتَ أنتَ نعم، أحضر لي فنجانَ قهوة سادة، ولصديقي الجميل فنجان قهوة حلوة من فضلك و(بوجه). ضع أكبر قدر من السكر عليها، ثم قم بتحريكها ثم ضع ملعقتين من السكر، ثم وقبل أن تسكبها في الفنجان ضع ملعقتين من السكر، ثم ضع ملعقتين أخريين في الفنجان واسكب القهوةَ عليهما، ولا يضيرهُ لو وضعت بجانب الفنجان القليل من السكر.

ضحكت حينها: لستَ في عمَّان.

- آه، مشكلة هؤلاء أنهم أتقنوا كلَّ شيءٍ إلا العربية، قد يموت العربي هنا دون أن يفهمه أحد. ***مشيرًا للنادل الذي لم يفهم كلمة مما قاله.***

صاحَ في القاعة: هل من مبارز؟ لا.. لا، أقصد: هل من مترجم؟

ظننتهُ مخمورًا بادئ الأمر لكنه لم يكن كذلك، أقسمَ لي أنه لم يضعها يومًا في فمه، ثم أقسمَ ألّا يقول لي رغمَ تحايلي عليه سبب اختفائه المفاجئ.

- ولن أخبرك مهما حييت عن الأمر.

- إذن هي امرأة.

- هذا ضمن اختصاصك أنت.

- واختصاصك؟

- الغياب يا صديقي، الغياب.

التقينا في منزلهِ المتواضعِ بين أحياء فقيرةٍ بعد عودتنا وكأن شيئًا لم يكن. وبعدِ حديثٍ عابر سألني فجأة:

- مَن سيحملُ الآخرَ لقبره برأيك، أنا أم أنت؟

- لماذا لا نموتُ سويًّا ونتركُ الآخرين يتولون هذه المهمة؟

ضحكتُ بينما دمَعت عيناه فجأةً ثم قال بصوتٍ حزين.

- حدثني عن أي شيء، عن أي شيء لا أعرفه عنك، أو لا تريد لي أن أعرفه.

أراد مني أن أقول شيئًا ما تحديدًا حينها بيد أني لم أعرف مقصده.

- كتبتُ قصيدةً جديدة.

- لا..لا أريد شعرًا، حدثني عن شيءٍ لم تتحدث به، أي شيء.

- أتذكرُ حين دبَّ الشجارُ بين عائلتي وعائلةِ زوجتي يوم زفافي في الفندق؟

- نعم بالتأكيد.

- أنا من دبَّر الأمر.

ضحكَ معتدلًا في جلسته: "أنت؟"

- آخر ما معي من نقود دفعتها للفندق وأيُّ علاقةٍ جيدة بيني وبين عائلتها أو علاقةٍ جيدة بين عائلتينا تعني اكتشافهم لحقيقتي فورًا، لذا وجبَت القطيعة فكانت القطيعة؛ بل وبشكلٍ لم أحلم به وأتوقعه، وكأنَّ الحظَّ يقول لي: أنا معك ورهن أمرك. "تستطيعُ أن تكذب على كلِّ الناس بعضَ الوقت، ولكنك لن تستطيع أن تكذب كل الوقتِ على بعض النساء"

- لكنك كذبت على زوجتك أعوامًا طوال قبل أن تصبح أكاذيبك حقيقة.

- لأنها تختلف عن ذويها. هي لم تهتم لأمر المال يومًا، ولا تنتمي لجشعهم... كان يكفيها أن أحبها لا أن تتفاخر بما أملك، فكل ما أرادت أن تملكه هو قلبي فقط، وقد امتَلكته.

- وكيف اختلقتَ ذاك الشجار؟

- فهمُك للمقابل يعني وقوفك على ما يغضبه، وأكثر ما يغضبُ الأثرياء السلطويين أن تتجاهلهم في الوقت الذي عليكَ فيه احترامهم، أو أن تعاملهم بإنسانية. لكنَّ المشكلة التي وقعت كانت

بسبب مبارزةٍ رقصية بين أمي وأمِّها. لعلَّك لا تعلم بأن حلبةَ الرقص أحيانًا تثيرُ النعرات والكراهية بين الأقوام!

- ويبدو أيضًا أن ليلتك الأولى كان حلبةً للشجار. *قالها وضحك*.

- بَكَت طوالَ الليل دون توقف، لاعنةً حظَّها وكلما حاولت الكلام صرخت بي: كنتَ تستطيع إيقاف تلك المهزلة، قد كنت راضيًّا عن إفساد أمِّك حفل الزفاف، أشعرُ لكنني لا أعرف السبب، قل لي ما هو السبب؟

- وطَلَبَت الطلاق؟

- بل وأصرت بكل قوتها مستبدلةً ثيابها بعد أن قررت العودة لمنزل ذويها.

- لم تقل لي هذا مسبقًا.

- أنت طلبت أن أحدثك عن شيء لا تعرفه.

- نسيت. *ضحك مجددًا*.

- كنتُ عازمًا ألّا أكذب مجددًا عليها طالما أنني لن أضطر لبناء عالمٍ وهمي من جديد طالما تزوجت بها، لكنني بعد أن يئستُ من إقناعها قلت في نفسي: "هذه المرة فقط ثم عد صادقًا".

الغريب يا صديقي أنني كررت هذه الجملة في نفسي ألف مرة، آخرها البارحة.

نسجتُ لها طبعا حينها قصةً خياليةً عن سبب الشجار مدعيًا توقعي لها منذ البداية فلم أتفاجأ مما حدث، ولأنها تحبني، ولأن المرأة إن أحبت بصدق تصدق كلَّ ما قيل لها، وحيثُ إن الكلام ظلَّ دافئًا فقد صدقتني، واعدًا إيَّاها ألَّا أغضبها ما حييت بعد أن اختارتني بدلًا

عن عائلتها... لكنني أغضبتها مرارًا وقرأت بعينيها مرارًا تلك الجملة التي لم تتفوه بها: " قاطعت أهلي واخترتك أنت، فلم تصن ودًّا ولا وفيتَ بعهدٍ قطعته لي". تمنيت أحيانًا أن تتفوه بها كي أجيبها بأنها من عائلة تمتلك قلوبًا حجرية، وددت مرارًا أن أسألها: هل أستحق فعلًا أن تقاطعي عائلتك بالكامل لأجلي؟ ألا تشتاقين لهم بعد مرور هذه السنوات؟ ألم يشتاقوا هم لابنتهم؟ تمنيت لكنني كنت أخشى أن أرى رقَّتها تتحجرُ يومًا أمامي إن فتحت بابًا كنَّا قد أغلقناه بعد حفل الزواج مباشرة، فلم يُفتح من يومها. تفاجأتُ بها يومًا وقد جلستْ على طاولتي فجأةً، وكأنها هبطت من السقف مسلِّمةً على صديقتي الحسناء الجالسة مقابلي بحرارة.

- لم أستطع فراقك فاضطررت أن ألحقك لدمشق يا عزيزي. ***قالتها وقبلتني على خدي.***

- لكنني عدتُ من دمشق قبل قليل لنلتقي مصادفةً في عمَّان. ***والدهشةُ تغمرني.***

- هل نحن في عمَّان الآن؟ غريب! ***وجَّهت كلامها لصديقتي راسمةً الدهشةَ على ملامحها.***

طلبتُ لها فنجان قهوةٍ شاعرًا بالخزي، وحمرة وجهي تأبى أن تنزاح عن سمائه، بعد أن انسحبت صديقتي بهدوء ململمةً أغراضها دون أن تنبس بحرف واحد.

- لماذا تخونني؟

كنتُ سأكذب لكنني للحظةٍ تراجعت، وأطرقت مليًّا.

- لم أخنك جسديًا ولا خيالًا مع إحداهن، أنا أتحدث فقط.

- ألا أصلح لحديثك؟

- لا.

- لماذا؟

- لأنك لم تصدقي إلا كذبي.

هذه أصدق كلمة قلتها لحنان مذ أحببتها، وكأنني حينما تفوهت بها كنتُ أشعر بصدقِ كل حرف فيها، فقد كانت تصدق ما تراه بعينها لا قلبها، وما تُريد أن يقال لها. فكأنها الرغبة بإجبار المقابل أن يُرضينا، لأننا نريد ذلك، فإن تملَّكنا الشك ونفينا أفكار المقابل لم يصدقنا لأننا لم نقل ما يتناسب مع تقييمه للموقف، أو ما يريده تحديدًا.

الحقيقةُ أنني جلستُ مع هذه الصديقة لأنني أريد من يمدُحني كما أريد، فقد كنت مغمورًا أبحث عمن يتحيز لي، لا من يعاملني بإنصاف المستورِدين لآرائهم عبر الغير.

- هذه صديقة فقط.

- هل تقبل أن أصادق؟

- لا.

قاطعني بعدها سمير باكيًا دونَ أن أدرك ما الذي يفكر به، فقد بدا غريبًا أثناء رجوعنا، وأغربَ حين التقينا، لا أعرفُ ما السبب وراء تغيُّر ملامحِ سمير حينها! بل وتغير ملامحه وصوته فكأنه بدا رجلًا آخر! قد أقول بأنه أصبح يشبهني أكثر مما يشبهُ نفسه، كدتُ أن أسأله أو أقول له شيئًا، بيد أنه سبقني قائلًا:

- هل أنت بخير؟

- أشعرُ أنني كذلك إن لم أكن مخطئًا، لكنني الآن أشعرُ أنك أنت لست بخير.

- صديقي أصلان.

- قل. *صمتَ ولم يتحدث بعدها*...

هذا النص غير المكتمل حيرني بداية لأن أصلان عندما وصف بيت سمير وصفه بالمتواضع والقابع بين أحياء شعبية؛ بينما هو ذاته من حدثني عن سمير الثري الساكن بقصرٍ ما، لكنني كعادتي كنتُ أحيلُ السبب لهذه التناقضات أو الأشياء غير المترابطة والمنطقية للحالةِ النفسية والفكرية لشاعري. توقف ذلك النص عند جملة "صمتَ ولم يتحدث بعدها" وهي الجملة ذاتها التي قالتها لي سيلا وقد وجدتها أمامي فجأة: "ولن يتحدث"، وقد تسمَّرت بعينينِ حزينتين واقفةً بوجهها الستيني؛ وقد ظهرَت تجاعيدُه فجأة بين ليلةٍ وضحاها.

- قلتِ: لن يتحدث؟

نَظَرت إليهِ طويلًا قبل أن تلتفتَ نحوَ ساعةِ الحائطِ الواقفة ثم نحوي، قائلةً بصوتٍ حزين:

- لعلها توقفت للأبد.

تحدثَت بالعربيةِ وسط دهشةِ مخاوفي التي احتلت جميع أطرافي، فلم أجرؤ أن أنظر نحوها خشيةَ أن تلتهمني.

مرَّت صورةُ باف من أمامي، مرَّت بعينيه الوقحتين مرةً، وعينيه المعصوبتين مرةً أخرى، مرَّت بصوته مستهزئًا وبنبرةٍ وقحة، وبصوته مستغيثًا وقد راح يتخبط في ممرات المشفى فاقدًا عينيه بحالته الجزعة الفظيعة.

- كنتِ وراءَ ذلك؟ ***قلتها وقد ابتلعت رجفتي عبر مساماتي وجاهدت والعرق يتصبب مني كي أبدو طبيبعة.***

- وراء ماذا؟

- ما حصل لباف؟!

- أفعالهُ من كانت وراءه ولست أنا.

- أنتِ من حرَّضه على الاستهزاء به.

- بل مَن حذَّره أن يفعل. *رافعةً كتفيها بتعجب*.

لم أكترث لما حدث مع باف قبل هذا. لم تشغلني الأقاويل بربط حادثةِ الاستهزاء بفقدهِ لعينيه، وإحالتها للسحر والسحرة في اليوم التالي. لم أكترث منذ إقامتي في مسكني والمشفى لشيءٍ قبلها أو بعدها إلا لهذا الممدد أمامي، و ها قد دخلَ في غيبوبةٍ قد تكون الأخيرة.

مرَّ بجانبي يومًا مُكبَّلا، وقد نقل من السجن لمشفى الجزيرة أثناءَ ترجمتي لقصيدةٍ له على مسامع دن، وباف، وسيلا. مرَّ بجانبي ولم أحفل بملامحهِ الضائعة؛ وقفَ خلفي مُستمعًا للجملةِ العربيةِ ورديفتها من السنبارية قبل أن يسيرَ مُنقادًا إلى غرفةِ الإدخال.

- تعجبني هذه القصيدة، أشعرُ أن قائلها يمتلك أجنحةً يحلق بها في أوطانكم. *قالتها سيلا منتشية*.

- لعله يمتلكُ كلَّ شيء.

سارَ ببطء قبل أن يستدعوني لقسم الإدخال، وقد رأيتهُ موليًا ظهره بعد أن لاحظهُ الجميعُ إلاي.

- سجين آخر؟

- قل: ميتٌ آخر.

- ما الهدفُ من علاجِ قتلةٍ ثم إعدامهم؟

- ليموتوا بصحةٍ جيدة. *قالها ضاحكًا باف*.

- أتراهنون بأن هذا الرجل ليسَ جنديًّا؟

لم يكن جنديًّا، بل شاعرًا وجدته جالسًا في المقعدِ مغمضَ العينين شارد الذهن... استوقفتني عيناه بالكامل لحظةَ أن نظرَ لي مصرًّا أنني من وطنه. ***{أعرفُ هذا الرجل، لقد التقيته من قبل في مكان ما}***.

كان يعرفني، نظراته لي توحي بذلك، ثقته بعد صمتٍ طويلٍ بكلمات وجهها إليّ توحي بذلك، دهشةُ حارسه الذي اقتاده للمشفى، والذي أقسمَ أنه لم يتحدث يومًا توحي بذلك. ***{أعرف هاتين العينين، وهذا الصوت كما أعرف نفسي}***.

راح ينقل بصره بيني وبين سيلا بغرابة ودهشة بعد نظرات برودٍ عابرة تظاهر بها، لكنني لم أكترث لهذا، ولم تسترد مخيلتي هذه النظرات إلا بعد أن شعرت باهتمام سيلا المفاجئ به، وبعد ستةِ أشهرٍ من وجوده في المشفى.

جاؤوا به من البحر، اقتادوه للسجنِ مباشرةً كتاجرٍ بشري، فاستسلمَ لواقعهِ الجديد ثائرًا بالصمت ليبقى صامتًا بين جدرانه الأربعة.

وجدَ نفسه معروفًا دون أن يعلم من معروف هذا؛ وقبلَ أن يجدَ وجهًا تلبَّسَ وجهه دون أن يراه، حتى أنه راح يقنع قلمه بأنه ليسَ معروفًا كلَّما لجَّ عليه، أو خانته العبارات. أمَّا ما مرَّ من أعوامهِ الخمسةِ والثمانين أو مرضهِ فلم يشفعا له بالإفراج عنه أو حتى إعدامه في جزيرةٍ يعدُّ الموت أسهلَ ما فيها.

نشبت الحرب بسبب المياه، والطاقة الشمسية والهوائية، ثم تحولت لتصفيةِ حساباتٍ بين دولٍ على وشك الانهيارِ ودولٍ نهضوية، ليجيء دورُ الدكتاتور الذي أطالَ عمرها بغيةَ تفريغِ بعضِ البلادِ

المهزومةِ من سكانها لاحتلالها يومًا... قيلَ بأنه جُهِّزَ للسلطةِ من قبلِ ولادته؛ ثم نقل للجزيرة طفلًا حتى غدا الحاكم لها دون منازع.

سألتُ سيلا يومًا: هل تحبون زعيمكم؟

قالت ضاحكةً: مع أنه ليس زعيمنا لكننا خُلقنا لنحبَّه.

لم أفهم مقصدها بأنه ليس زعيمها مع أنها سنبارية سيما وقد استمعتُ كثيرًا لأحاديثها مع باف شاتمةً زعيمَها كارهةً دفاعَ الآخر عنه، وتعجبتُ كثيرًا من قاتلٍ ينتقدُ قاتلًا يشابههُ بالهواية ذاتها: هوايةِ القتل المجاني.

- ألم يقتلوا أبناءنا؟

- وهل كان عليهم أن يشكروكم لقتلكم أبناءهم؟

هذا هو الجواب الذي كان يُخرسها بعد كل حديثٍ بيننا؛ أي إن انتقدتُ قسوتها مع أسرى الحرب المرضى، قبل أن يبدو الجفاءُ ظاهرًا بيننا بعد أن علمتُ بأنها وراء موت الكثيرين منهم.

تيقنتُ بحتميةِ إجرامها حين راح يحدثني دن عن الحقنةِ التي ماتَ صاحبها وهو بانتظارها فحصلَ عليها بعد موته. ظننا أنها القسوةُ والكراهيةُ فقط دون أن تترجمَ اليدان ما تبديه النفس، لنجدَ بأننا نجهلُ ما يعلمه الجميع، ويصمت عنه الجميع، ويرتضيه الجميع. فاليدان هما نقشُ النفسِ المحبوسِ على الملموس من الأشياء.

حدثتني بالعربيةِ وسط دهشتي وحيرتي ووجومي، وغادرت المشفى دون أن يعرف أحد سبب اختفائها المفاجئ.

لم يعرف أحدٌ إلى أين ذهبت؟ أو أينَ اختفت دونَما عودة؟ لكنَّها قد ذهبت يومها بألفِ سؤالٍ وحيرةٍ قاتلة، تاركةً كلَّ شيءٍ حتى حقيبتها الفارغة.

{حمقاء أنتِ حين تجاهلتِ اهتمامها به من خلفِ الكواليس، لطالما وقع بصرك على فحوصاتهِ وحالته بين يديها لشهرين على الأقل، وقد قررت عمل هذه الفحوصات. لطالما وقفت خلف بابِ غرفته بعد ذلك، ولطالما صادفتها أمام ذات الباب. حرصتِ عليه منها خوفًا أن تقتله، لكنك تجاهلتِ بأنها لم تفعل وكان باستطاعتها ذلك. لقد وقَفت بجانبك حين حادثكِ أول مرةٍ بعينينِ ساخرتين قبل أن تتحولا لعينينِ فضوليتينِ ثم حزينتين... صدَّقتِ نفيَه للحديثِ معها رغم أن عينيك رأت كلَّ شيء، ثم تناسيتِ الأمر كأن شيئًا لم يكن، وها هي الآن تغادرُ وكأنها جاءت من أجله لتضعك في غيبوبة الحيرة، مزامنةً مع غيبوبته التي قد لا ينهض منها}.

سيلا تحب الشعر بل وتهتم بأشعارهِ المترجمةِ حتى أنها كانت تحفظ الكثير منه قبل مجيئي. تقربها مني بدايةً كان بسبب اهتمامنا المشترك بالشعر، أيعقلُ أن يكونَ قد عرَّفها على نفسهِ حينها وصدَّقته فأحبت أن تستمعَ لشعره؟

{انهض، قل شيئًا عن أيِّ شيءٍ، أيِّ شيء، فلا زلتُ أجهلُ سرَّكما؟ قل لي ما مبرر علاقةٍ قاتلةٍ بشاعر؟ ما يبرر حزنها أو غضبها عليكَ فجأةً ثم رحليها الأخير}.

المشفى كساعةِ الحائطِ في غرفته لا حركةَ فيه رغم أن في داخله شخوصًا تتحرك، لكنه الخواء الذي يسكنني مجددًا، وكأنني وصلتُ إليه الآن من سفري حائرةً خائفة.

الهدوء ينتشرُ في أروقة المكان رغم الضجيج حولي. وحده دن من يجالسني سائلًا عن مريضي الغائب، أو من يحدثني عن سيلا الغائبة مقسمًا أنها لا بد قد قُتلت على يد أحد أقرباء الضحايا.

- جميع فحوصاته سلبية، معجزةٌ أن يستمر.

- استمر سابقًا، فما أدراك؟، هل كنت تعلم أنها تتحدث العربية؟

- كلا، ولم أشاهدها في غرفته إلا تلك الليلة التي أخبرتك عنها، كررت هذا ألف مرة يا صديقتي.

- أكاد أجن.

- تضخمين الأمور عادةً، لكنني ما زلتُ مصرًّا بأنه ساحر، لقد سحرها كما سحركِ.

- سحرني؟

- جلوسك بجانبه، وكتابتك لتفاهاته، إما أن يكون سحرًا أو جنونًا؟ ما الذي يمتلكه معروف هذا لكي يخبر الناس عنه إن لم يكن ساحرًا؟

- ليس معروفا، هو أصلان، هل تمتلك أنت شيئًا قد تُحدث الناس عنه يومًا؟

- لا أظن. *قالها بعد تفكير عميق.* هل يمتلك هو؟.

- جميعنا نمتلك، لكننا في الغالبِ لا نبرع بتقديم ما نملكه لمن يستحق.

- تقولين هذا لتأثرك بعربيته على ما أعتقد.

- وسيلا؟

- لأنه سحرها.

- سحرها مجددًا؟!!

- تمتلكُ قلبًا صخريًّا، بل لا تمتلك قلبًا البتة، ومع ذلك فقد بكت عليه كما وصفتِ لي ثم غادرت دون عودة، لقد سحرها ونفاها من المشفى.

- ليس ساحرًا.

- وما السر في تغيرها إذن؟ لقد توقعتُ أن تقتله يومًا، ولكنني لطالما رأيت اهتمامها بفحوصاته ومراقبةِ حالته، أنتِ لم تشاهديها قبل أيامٍ حين بدت غاضبة بسببه.

- بسببه؟

- نعم، غضِبت لأنه في الستين من عمره، قالت لي: "الفحوصات تثبتُ ذلك" فقلت لها: وهويته أيضًا، ما الجديد بذلك؟ حينها ضربت على الطاولةِ وشتمتنا جميعًا.

قالت لي هذه الجملة سابقًا فلم أفهمها، لكنني لا أثق بها، ولا أثق بأيٍّ من سكان هذه الجزيرة ومن عليها. كما إنني لن أصدق العلمَ الحديث الذي يجيء من مشفى كهذا مهما كان دقيقا لإثبات أو نفيِّ عمرِ شخصٍ أعرفه أكثر من نفسي، هي محاولات بائسة لم تسفر عن نتيجة حقيقية.

الجميع يكذبون لأسبابهم الكثيرة، ولأعذارٍ اختلقوها مبررين تزوير الحقائق، والجميع يحاولون منذ القدم الميلَ للخرافاتِ إن تعلق الأمر بشيء لم يفهموه، واستعصى على عقولهم.

ما يحيرني بحديث دن أنه حدثني باللهجة والنبرة ذاتها التي كنت ألمسها كلما حدثتني بها سيلا عن شاعري، أي نبرة الكراهية والفضول، نبرة الحب والحقد في آن واحد، نبرة الخوف منه وعليه.

لولا بدانتي وعدم انجذاب الرجال لي لقلت بأن دن يغار علي من أصلان، ويكره وجودي المستمر عنده، واهتمامي به، لكن كراهيته الغريبة له تحديدًا قذفت أمام عقلي ألف سؤال بلا إجابة أيضًا! ***{لعلَّه يغارُ على البدينات فقط لأنه بدين بعضَ الشيء؟}***. طردتُ هذه الأفكار السخيفة من داخلي بعد أن قفزَت إلي صورته حينما رأيته يومًا يقف أمامه محدِّقًا إليه ولم ينتبه لوجودي حينها إلا بعد أن ناديته لأكثر من مرة كي يستفيق من شروده. انتبه فزِعًا ووضع يده على قلبه جراء خوفه... برر لي وقتها بأنه ظنَّ بأنني سيلا وصدقته، لكنني لا أصدقه الآن سيما حين راح يدفعني شعوري أن سيلا ودن أخفوا شيئًا عني، أو أنهم عرفوا عنه أشياء لا أعرفها.

رحتُ أتقلب في سريري أكاد أجنُّ والتساؤلات تجلدني بقسوة: مَن سيلا وما علاقتها بأصلان؟ بل ومَن دن؟

من دن الذي يكره أصلان لهذا الحدِّ أيضًا ويتلذذ بتكذيبه ونعته بالساحر؛ وشيطنته رغم أنه متسامحٌ مع أرذل المخلوقات على وجه الأرض؟ من بينها الصراصير! كيف لهم أن يعرفوا أشياءَ عن شاعرٍ تائه لا أعرفها أنا؟ بل ما هي الأشياء التي يعرفونها؟ ولماذا يعرفونها؟ وما هو الرابط بين ثلاثة كلّ منهم عاشَ في أوطان مختلفة بأزمان وأمكنةٍ وظروف مختلفة ومتباعدة؟!

فهمتُ الكثيرَ من الأشياء أهمها بأنني لست أنثى مرغوبة من الرجال، وفهمتُ أن حجمي لا يتناسب مع قلبي بتاتًا، عدا أنه لا يتناسب مع من هم في حجمي أيضًا.

المرةُ الوحيدة التي رأيتُ فيها نظرةَ رجلٍ تحاصرني كانت من ستيني يرقد على سريرٍ في مشفى الوطن، تحاشيتُ نظراته الأولى الوقحة متمنيةً أن تتلوها نظرةٌ ثانية، ورابعة، وعاشرة، ثم سمحت له بتفحصي بالكامل، سمحت لعينيه بالتهامي بالكامل، ثم رحت

ألامسه بنهدي أثناء الفحص سامحةً له أن يقترب ويبتعد، ثم سمحت له أن يمرر أصابعه على يدي وذراعي ورقبتي.

حلمتُ بعدها أن أرقصَ عاريةً أمامه، أردتُ ذلك بشدة، فكرت بالأمر كثيرًا وانتقيت الموسيقا اللازمة؛ والساعة المناسبة غير أني لم أفعل... وددت ذلك ولو عرف جميع أهل الأرض أنني فعلت ذلك، بل في الحقيقة كنت أريد أن أحظى بهذه الفضيحة إن حدثت.

وددتُ لو كان بإمكاني أن ألقمه نهدي ليشربَ من سراب حلمتين غير مرغوبٍ بهما، مُعيدًا لهما الصبا وقد ذبلتا من الإعراض عنهما.

أشتاقُ لتلك الدماء التي كانت تنتشرُ في مستنقعات جلدي حين أرى لهفته وشبق نظراته حينما يراني، أشتاق للحيرةِ بين الفضيلةِ والرذيلةِ، وصراعي بين قتلي لأنوثتي، وقتلي لأخلاقي....لكنه حين شدَّني إليه دفعته رافضةً صافعةً صارخة... رحتُ مولولةً بين ردهات المشفى خائفةً من مريضٍ مسن أراد التحرش بي.. ***{حمقاء، أنتِ حمقاء}***، فعلتُ هذا لأنني بحاجةٍ لأن أقول للجميع: بأنني أنثى، أردتهم أن يعلموا أن رجلًا ما اشتهاني، أن رجلًا أراد ممارسة الحب معي لأنني أستحق ممارسة الحب، أن رجلًا ثارت غرائزه بسببي.

فضَّلتُ الخبرَ على الحدثِ نفسه، فلم يكترث أحدٌ لا للخبرِ ولا للحدث... فضلت الأصابع التي قد تشير نحوي بأنني تعرضت للتحرش، على الأصابع المتحرقة للعزف على جسدي فلم أظفر بأيٍّ منهما.

غادرَ المشفى لآخر تاركًا سريره الذي لم يشهد عناقًا ولا قبلةً، غادرَ بعد أن رفضَ الجميع تناقل تلك الفضيحة وكأنها خبرٌ عابر، وكأنهم لم يصدقوا أنني أنثى قد يشتهيها رجل ما يومًا.

حتى سند لم يسألني إن كان العجّان أو أولاده قد اغتصبوني، مع أنه سأل جميع الضحايا هذا السؤال الجميل.

ماذا لو قلتُ هذا في التحقيق؟ كان علي أن أقوله لأثبتَ للجميعِ بأنني محط اشتهاءٍ أيضًا... ليتهم فعلوا ذلك، ليتهم فعلوها لأتساوى في دور الضحيةِ مع الضحايا في يدِ من لا يرحم كي أبدو ضحيةً طبيعية.

العجّان كان ضخمًا، طويلًا، شعره الأبيضُ الناعم أبرز ما فيه، لكنه بدا أضخم في قاعةِ المحكمة التي حوكم على جرائمه فيها. ظلَّ مصرًّا على أنه الوحيد المسؤول عن ارتكابِ تلك الجرائم.

- اغتصبتُ، وخطفتُ، وسرقتُ، وحدي. وتاجرت بكلِّ شيء، وحدي، كل شيء سيدي، وحدي، ولو كان باستطاعتي الآن أن أسرقَ المطرقة التي بين يديك وأبيعها لفعلت، أنا أعترف بأنني الشيطان نفسه. ***وجه كلامه للقاضي حينها*.**

أُخرِسَ مرارًا كما أُخرسَ الحضورُ المتفاعل مع تعليقاته وتصريحاته الغريبة.

- أنتَ متهم بتشكيل عصابة وظيفتها... ***وجه له القاضي هذه الجملة قبل أن يقاطعه*.**

- وهل العائلةُ عصابة يا سيدي؟ إذن نحن في بلدِ العصابات الكبيرة، إنهم أولادي، جاؤوا من هذه التعيسة. ***وأشار لزوجته الجالسة في***

القاعة غير متبين من مكانها جيدًا. عبرَ عقد زواجٍ شرعي، وعلى سنة الله ورسوله حضرهُ مأذون وشاهدان فاسقان.

- أنَّا أحذِّرك من...

- حذِّرني من الآن حتى يوم القيامة فلن أحظى ببراءتي لأدبي، ولن تصفح عني لو رقصتُ لك في هذا القفص. ***وحرَّك يديه وخصره ببراعةٍ متناهية متناسقة كمن يرقص.***

كثيرًا ما أجِّلت القضيةُ لهذه الحوارات والشهادات المشابهة، وعدم القدرة على ضبط لسان العجّان سيما حين تنثال البذاءةُ من لسانهِ مع أنفاسه. كثيرا ما عُقدت تلك المحاكمات بسريةٍ غير أن أهالي الضحايا والرأي العام من ضغطا على القضاءِ لتكون المحاكمة أمام الملأ الغاضب.

- هو اعترافٌ إذن؟

- لم أنكر مذ قبضتم علي شيئًا، لكنني لم أقتل أحدًا.

- هذا ما ستقرره هيئة المحكمة.

- بل هذا ما أقرره أنا، أنا أعلمُ بنفسي منكم، أنا المتهم وأعترف بأنني فعلتُ كلَّ شيءٍ إلا القتل، لماذا أقتلُ يا سيدي نساءً قدمن لي المال والجسد والاهتمام؟

- الاهتمام؟

- طالما أنك الأقوى فأنت صاحب القرار.

تابعتُ أغلبَ جلساتِ المحاكمة. وتلاقت عيني بعينِ العجّان وميمون كثيرًا... قابلت شهد وجلستُ بقربها في كثير من المرات دون أن نتحدث، لم تبدِ حزنًا أو مشاعرَ رقيقة أثناء شهادتها التي تساعدُ

على إثباتِ أكبر كم مِنَ التهمِ على ذويها بعد أن عقدت ووالدتها صفقة مع التحقيق لذلك... فعلت ذلك الأم أيضًا معترفةً عليهِ وعلى أولاده... صرخ بها العجّان حينها: منحوسة، تزوجت بمنحوسٍ وأنجبت مناحيس.

قيل أن الشهادات السرية من الضحايا برَّأت ميمونًا الذي لم يخرج من السجن رغمَ تبرئتهم له من حوادث الخطفِ والاغتصاب، فدوره في كل ما حدث اقتصر على السكوت، أما المحاكمات العلنية فبدت أنها لن تنتهي بعد أن تشجَّع الصامتون بتقديم شكاوى جديدة بحقِّ تلك العصابة.

- وأولادك؟

- خيرُ خلفٍ لخيرِ سلف.

ضحك الحضور من جوابِ العجّان الذي راحَ ممسكًا بالقضبان كمن يريد الخروج منها.

- وأولادك؟

- لا ذنبَ لهم.

- في القتلِ؟ أم الاغتصاب؟ أم الخطف؟ أم السرقةِ؟ لا ذنب لهم بماذا تحديدًا. *قالها مدعي النيابة مستهزئًا*.

- لا ذنب لهم وقد ولِدوا لرجلٍ اسمه رضا العجّان وامرأة اسمها ***صفية الكيس***... لو ولدوا لأبيك لكانَ أحدهم مكانك الآن. *أشارَ للقاضي حينها*. حتى الكئيبة. *أشار لزوجته*. فقد كان بإمكانها أن تتزوج من سافلٍ غيري، سافلٍ أقل سوءًا وشرًّا، لكنها مُنيت بي فجاءَ هؤلاء نتيجةً لالتقاء التعساء والسفلةِ على ظهرِ هذه الأرض... أليس "لكلِّ فعلٍ ردة فعل تساويه بالمقدار؟"

حين قيلَ له بصوتٍ عالٍ: أنتم متهمون.. قاطعه فورًا.

- أعرف ما تهمتي تمامًا، لكنني لم أقتل أحدًا.

- كل الأدلةِ...

- كلُّها طاردتني أعوامًا وأعوامًا وأكثر دون أن تحصلوا عليها، وها هي الآن بين أيديكم بسبب سيف اللعين.

كثيرًا ما ذكر سيفًا في المحاكمة، وكثيرًا ما راح ينظرُ باتجاه الحضور إن ذكره كمن يتوقع مجيئه، ثم يضرب على القضبان برأسه أو يديه مكملًا كلامه.

قبل المحاكمةِ الأخيرة جلستُ بجانب شهد التي بدت مبتسمة بغرابة.

نظرت إلي ثم قالت: غريبٌ عالم الرجال هذا.

- والنساء أيضًا.

- والنساء أيضًا، لكن عليَّ ألّا أقول هذا، مَن هي مثلي كان عليها أن تفهمَ كلَّ شيءٍ عنهم فلا تتعجب من تصرفاتهم.

- رجال القانون قساة.

- لا أتحدث عنهم، بل عن هذا. ***وأشارت لشابٍ يجلس أمامنا في قاعة المحكمة***.

- ما غريبه؟

- يريد الاقتصاص لنفسه من خلال والدي، حضرَ ظنًّا منه أن هذه المحاكمة مَن ستنصفه. ***ضحكت فاستدار الجميع نحوها إلاه***.

- أحدُ ضحاياكِ أم ضحاياهم؟ ***قلتها ببرودٍ استغربتُ منه ذاتيًا***.

- آخر ضحايّاي.

- آخرهم؟

- بدأت أشعر أنك صديقتي. *ضحِكت ثم تابعت*. لقد أخبرتكِ عنه.

- أخبرتِ الجميعَ عنه..

- وفصَّلتُ لك. *قالتها بنوعٍ من السخرية لم أفهم مغزاها.*

- نعم فصَّلتِ لي على ما أعتقد. *قلتها من باب المجاراة.*

- لم أفصِّل، قلتُ ما قلته لك استدرارًا لعطفكِ أيتها البلهاء.

- لكنكِ لم تفعلي، بل أثرت اشمئزازي حينها... أنتِ الآن خارجَ تلك القضبان لأن جسدك من استدر عطف المحققين لا عطفي.

ضحِكت مجددًا ثم مالت على أذني قائلة: هل أخبرك أحد يومًا بأنك شجاعة؟

- وهل أنا كذلك؟

- نعم، قد رأيتك في البيت، وفي المركز، ولم تكوني خائفة.

- هل كان علي أن أفعل؟

- فتاة مخطوفة كان عليها أن تخاف. *قالتها بنبرة جدية*. بل وألّا تجلسَ بجانبي الآن، عليكِ أن تخافي مني، فأنا ابنة الأشرار. *ووضَعت كفيها حولَ فمها نافخةً الهواء في وجهي مصدرةً عواءً طفوليًا.*

- هل ضاجعكِ بعنف؟ *أشرتُ نحوه.*

لم يصدُمها السؤال بل طريقتي في السؤال التي بدت تذكيرًا بحقيقتها... نَظَرت لظاهرِ كفها بتمعن وقد راحت تقلِّبُه ثم لعيني مباشرةً بحدةٍ قائلة:

- أمَّا هذا فلا.

حاولتُ إغاظتها فقلت: رقمٌ زائد أو ناقص لن يضيرك بالتأكيد.

- أنا من كنت أختار.

- المشتري أم الضحية؟

- أن أكونَ فريسةً أو مفترسةً.

لا أعلم ما الذي دفعني لأن أحادثها بهذه الطريقة بالرغم أني لم أكِنّ لها أي مشاعرَ سيئة، سيما وأنني لم أخف منها مطلقًا. لا أعلمُ ما الذي دفعني لاستفزازها أحيانًا وتذكيرها بحقيقتها بين الجملةِ والجملة... لعلها متعة البذاءة حين ندلي بها فقط من دواخلنا عبر لساننا بلا هدف!

قبل أن تستأنف المحاكمة بوقتٍ قصير عادت للجلوسِ بجانبي؛ بعدَ أن حدَّقت بالجالسِ أمامنا أثناء عودتها من مكانٍ قريب من القفص.

- غبي، كم أودُّ أن أصفعه.

- بماذا يختلف عن الآخرين؟ الجميع هنا للاقتصاص منكم، هو ليس الوحيد الذي جاء للتشفي وإحقاق العدل.

- لكنه أغبى من قابلت، أظنه الآن يقول فيما بينه وبين نفسه إن هذا عقاب سريع لنا بسببه.

- ولم لا؟

- لا يختلفُ عنَّا كثيرًا، لقد رآني في البنك لأول مرة، فراح يتحدث عن أعمالِهِ ومشاريعه الكاذبة بغية إثارة اهتمامي، أعرف هذا الصنف من الرجال جيدًا حين يحاولون اصطيادي بصنارة المال... حاولَ كثيرًا، وأغدقَ الهدايا والعطايا تحت مسميات كاذبة، لكنه لم يرق لي بتاتًا، مدركةً أنه لا يملك إلا ما سأجده في محفظته يومًا،

لذا أخذت ما فيها فقط دون أن يأخذ مني إلا الحلم في الوقت المناسب.

استدار نحونا ناظرًا إليها بعينينِ مُشفقتين لا كارهتين، أعلم شكل هذه النظرات جيدًا، أحفظها عن ظهرِ قلب، رأيتها في عيونِ الآخرين كثيرًا، في عيونِ زملائي حين رحتُ أقص عليهم نبأ التحرش بي، في عيونِ مَن طرد يومًا بسببي، في عيونِ سيلا حين رحلت ولم تعد، في عيون أصلان قبل أن تحتله الغيبوبة.

سألتُ نفسي حينها: هل رأى العجّان نظرات الشفقةِ في عيني أم أنه لم يرَ إلا حبل المشنقة يتدلى أمامه؟

- رضا العجّان.

- حاضر.

- حكَمت عليكَ المحكمةُ

- لا تكمل.

لسببٍ ما صمت القاضي، لسببٍ، لدهشةٍ، لشيءٍ أراده القدر صمت القاضي رغم أنه حاولَ النطق بالحكم وقوطِع مجددًا من العجان.

- لا ضيرَ في ذلك، ولكن ليس الآن، أريد أن أقول شيئًا يثقل كاهلي منذ زمن بعيد... لقد ولِدت لأبٍ متسولٍ قذر، وأمٍّ قبيحةٍ تكره كلَّ شيءٍ حتى نفسها، ولِدتُ فلم أعلم من هو أكبر أو أصغر مني من بين إخوتي في هذه العائلة، فكلُّ ما عرفته أن وظيفتي في هذه الحياةِ أن أنطلقَ لإشارات المرور والشوارع المكتظّةِ كي أتسول... الكذبُ يا سادتي أخطرُ من إهراق ماء الوجه، فالوجهُ من الممكن أن يفضح صاحبه لكن اللسانَ من يُوهم الآخرين ببراءة هذا الوجه.

لم أر الاحترامِ يومًا في عيونٍ أيٍّ ممن عرفت، ولكنني شعرتُ كثيرًا بالشفقةِ من بعض الناس هنا أو هنا، وإذ كبرتُ قليلًا حتى وجدتُ أن هذه النظرات تحولت للامبالاة فتعايشت معها ضائعًا في دهاليز الحياة.

لم يحترمني وعائلتي أحد لأننا متسولون نحيا على نسج الحيل فقط، فجميعنا حاصل على شهادةِ أمراضٍ مزمنة وما شابهها، ورغم ذلك فقد كان هذا الاحتقار لا يغضبني فنحن نستحقه بين مجتمعٍ يكدُّ من أجلِ لقمةِ العيش. ظللتُ منبوذًا بأقل قدرٍ منه راضيًا بما أنا عليه، غير أني وجدتُ نفسي أمام حقيقةٍ لم تزل تطاردني منذ ذاك الوقت وهي: أننا جئنا من أبٍ أقذر مما كنَّا نتخيل، بل أقذر مما تخيل كلُّ من لا يحترمنا.. تصوروا أن يكتشف السافلُ أنه سافلٌ أكثر مما يتوقع، والوضيعُ أنَّ هناك من هو أوضع منه!

لقد حَمَلت أختي منه، لقد فضَّ بكارتها طفلةً، وعاشرها معاشرةَ الأزواج، ليدخلَ هو السجن، وأخرج أنا من نفسي، فلا هو خرجَ منه ولا دخلتُ أنا بعد ذلك إلى نفسي، هل جرَّب أحدٌ منكم أن يكون أخوه هو ابن أخته الصغرى؟

هل راوَدت فكرةُ قتلِ جنينٍ في بطن أمه أحدَكم؛ لأن وجوده يعني الخطيئة الحية التي تمشي على قدميها رغم أن لا ذنبَ له بها؟ أظنكم تشعرون بالتقزز لذكر هذا الآن.

لماذا الآن؟ ألأنني اعترفتُ بجرمِ والدي فرأيتم وجهي من خلاله؟ لقد تخيلتم ما حدث، وشمَّت أنوفكم رائحة اللحم المشتعل فاشمأزت أنفسكم له، رغم أن ما فعلته أنا أفظع بكثير مما فعله والدي.

لم أطالب الناسَ بالاحترام يومًا، لا لأنني لم أستحقه بل لأنني لم أعرفه من قبل، لكنني طالبتهم بعد تلك الفضيحة ألّا يحمِّلوني وزره

فقط... هو من أسرجَ خيله في اصطبله، هو من قلى لحمه بدهنه، هو من رفعَ إزاره واضعًا أطرافه في فمه ليلجَ غطاء من عليه تغطيتهم لا أنا، هو مَن هتك ستر من عليه إسدال ستره عليهم. طلبتُ إليهم أن يشيحوا بوجوههم عني رافضين وجودي غير أنهم أشاحوها متناقلين الخبر العظيم؛ وكأنني من حرَّضته على ذلك... قلتُ لأتقَاهم يومًا: لقد أخطأ وعوقِب بما يستحق فما ذنبي أنا؟ قال لي حينها: "لن تغير الكون". وقد صدقته، لذا فلم أقتل الرضيعَ. ***{من العدلِ ألَّا تعدلَ فخذه وضعه في غرفةِ الأحمقين تلك، تلك التي قفزت لها سارقًا}***. غرفةُ الأحمقين حينَ سرَقتُ ما يجاورها يومًا احتوت على مهد لطفلٍ لن يُنجب من عقيمين، لكنهما بقيا رغم ذلك بانتظاره متضرِّعين إلى الله أن يهبهما هذا الطفل... عدتُ بعدَ عدة أشهرٍ ووضعته فيه فوجداه في المهدِ باكيًا دونَ حملٍ ومشقة... فظنَّا أنها معجزة.

فهل كانا محقين يا سادتي بوصفها كذلك؟ أتصنعُ الرذيلةُ معجزةً؟ أتكونُ المعجزةُ لعنةً في مكانٍ ونعمةً في مكان آخر؟ أم إننا لا نتساءل عن حقيقةِ المعجزات إن قدمت لنا ما أردناه؟ إيَّاكم أن تتساءلوا يومًا عن طيِّبٍ أصله خَبث، أو خبثٍ أصله طيب... فالحكمُ لما نراه أخيرًا لا ما يقالُ عن أصله.

أخي وابن اختي أيها السادةُ واحدٌ منكم الآن، مثلكم، يشبهكم. ليس لصًا، ولا قاتلًا، ولا متسولًا، رغم أنه يحمل دماء العجّان الأول بنسبةٍ أكبر مني.

رحلتُ هاربًا من كلِّهم، من عائلتي، من حارتي، مِن أولئك الذين تتهمني عيونُهم قبل ألسنتهم. رحلتُ قائلًا في نفسي: كن سارقًا فقط... كان هذا أقصى طموحي في عالم السوء والجريمة يا سادة.

هذه المهنة الوحيدة التي لا تحتاج إلا للجرأةِ والخساسة، تشربتهما في شوارع المدينة مُسبقًا فأتقنتُ السرقة، بدوت سارقًا لطيفًا، فلم أسرق سوى احتياجاتي اليومية من طعامٍ، وخمرٍ، وتبغ، كنتُ التقيتُ قبلها بصفية وتزوجتها، فأنجبت لي غلامًا أسميته سيفًا... سيف هذا ولدِ في اليوم الذي أنجبت فيه أختي أخي، هل بإمكانكم تصور أن تنجبَ أختُك أخاك وأن تنجب زوجتك ابنًا في نفس اليوم؟ أسميتهُ سيفًا لأنني لم أكن قاطعًا بأمرٍ واحدٍ في حياتي فأردتُ أن يأتي من يقطعُ شكي بيقيني، لكنه بدل أن يفعل، قطعني أنا. لكنها من قالت لي بعدها: ماذا لو فعلَنا شيئًا لهذا الغلام؟ *أشار نحو صفية.*

- ألقميه ثديك فقط، هذا ما علينا فعله له.

- ولماذا لا نحاولُ مساعدته؟

- نساعده بماذا؟

- أن يتعلم، أن يرتاد مدرسة مثل جميع من يحتقرنا، أن يكونَ مختلفًا عنَّا؟

- هل ترغبين ببيعهِ؟

- لا. *قالتها بعد أن ضمته لصدرها.* بل لا أريد له أن يكون مثلَنا فقط.

لم أفكر بطريقتها يومًا، لكنني تخيَّلته بعدها وقد عادَ من الجامعةِ مُقبِّلا يدي أثناء دعواتي له بالنجاح، راقَ لي الأمر فلم أمانع أن يذهب للمدرسةِ وألّا يجولَ الشوارعَ التي جال بها والده، لقد كان لجمل صفية وقعٌ في نفسي فغيَّرت بذلك ما أردته وما قبلته من الحياة، يا سادة: بعض الجمل المجانية قد تغيرُنا بالكامل... بعضُها قد تميتك وتحييك. لكنَّ الحوارَ هذا يدُّلكم أن صفية كانت تختلف

عني لكنني جررتها للسوء لتصبح أسوأ مني بعدما تيقنت ألّا فرار من واقعها معي.

عندما بلغَ العاشرة كنتُ لصًّا محترفًا يأكل الأخضر واليابس، لم يعلم أحدٌ بذلك فكلٌّ ما يعرفه الناسُ عني في حارتي الجديدة وحيي الشعبي أنني عتَّال متزوج بخادمةِ بيوت، كلُّ عيوبي انحصرت أمامهم بقذارة ملبسي وفقري طالما أنه العيب الأهم-أي الفقر- إن تساوت الرؤوس، كنتُ لصا حاذقًا يعلمُ متى يعمل ومتى يتوقف ومَن يستهدف، لم يترك دليلًا واحدًا خلفه، لأنني مذ بدأتُ وأنا أعلم أن عليَّ أن أبدأ من حيث انتهى الآخرون، فوجدتُ أن أعظم اللصوص والقتلة الذين طالت أعمارهم ومسيرتهم الإجرامية لم يستهدفوا سوى الفقراء ومتوسطي الدخل، ولذا استهدفتهم، مانعًا جشعي ونفسي التواقة بصعوبةٍ عن الأثرياء والساسة فالاقتراب منهم يعني اكتشافك سريعًا، لم أترك دليلًا لكن الدليل الذي هربتُ منه يومًا لاحقني يوم التقيت بأتقى رجال حارتي القديمة وقد جاورني مصادفة في حارتي الجديدة التي لا تعرف من خبري شيئًا.

"في نَسَبِهِ شيءٌ" هذا ما قاله التقي عني لهم، ليرددوه فيما بينهم من جديد، وهذا ما راح يسألني عنه ابني كلما شتمه واحدٌ منهم، أو عايره أحدٌ بما لا يعلم.

رحلَ عني يافعًا هاربًا مني، من جده العجّان الأول، من الناس الذين اتهموه رغمَ أن ذنبه هو ذنب والده، حيث لا ذنب لوالده بما جناه أبوه عليه.

يومَ عاد، عاد كآخر، يُشبهُكم، لكنه لم يعد يُشبهني لأنه رآني كما رآه الناس يومًا فلم يتساءل إن كانَ محقًّا بما يراه طالما إن الناس مخطئون فيما يرونه منه.

- أكملتَ دراستك؟ *سألته والحزن يأكلني قبل شوقي لاحتضانه.*

- دعك من هذا، لنرحل، ونغيِّر أسماءنا. *قالها لي سيف متيقّنًا للأسف بأنني سأتبعه.*

- لكنَّ ملامحنا مَن دلَّت علينا، وستدل علينا مجددًا مهما فررنا منها.

- سنغيُرها أيضًا، علينا أن ندفن الماضي.

- سيلاحقنا.

- لن أسمحَ له.

- لقد سمحتُ له أنا يومَ هربت من واقعي، ثم كررتَها أنت، أما الآن فقد قررت أن ألاحقه وألاحق الناس أيضًا.

- اذهب معي، اترك كلَّ شيء خلفك وامضِ.

- إخوانك لا يتقنون الآن إلا ما يتقنهُ والدهم، هؤلاء الأشقياء سعداء فاتركهم وشأنهم، لقد تقبلوا واقعهم، وماضيهم، ومستقبلهم.

خيَّبَ ظني مرةً أخرى فرحل بعدها، ثم خيَّبَ ظني مرة أخرى حين عاد برجال الشرطة بعدها لا لأنه أراد إقامة العدل، بل لأنه -سادتي- أراد الهروبَ للداخل.

الآخرون أناسٌ نعرفهم، قد لا نهتم بملامحهم التي تشبهنا، أو أصواتهم القريبة من أصواتنا، ولا واقعهم المسلوخِ من واقعنا، لكننا نعرفهم.

قاعة المحكمة مليئة بالوجوهِ المتشابهةِ والمتناقضة، بالنفوسِ المتوافقةِ والمتنافرة، بأرواحٍ مجندةٍ وعدوة، ووسط كلِّ شيء ووسط الضجيج الذي يتبعه الهدوء، ثم الضجيجُ، ثم الذهول من كلِّ

محيطنا يتساءل كلٌّ منَّا حسبَ تفاعلهِ مع اللحظةِ أسئلةً تبدأ بالفضول؛ وتنتهي عند ذات النقطة.

ماذا لو كان اللقيطُ أحدَ هؤلاء؟ ماذا لو كان القاضي، أو المحامي، أو السجَّان؟ من هو سيف وسطَ هؤلاء؟ ***{شعرتِ بوجوده سيما حين راح يذكرهُ العجّان متأملًا الجمع لائمًا إياه عبر نظراتهِ قبل كلماته}***.

لقد وجَّه إليهِ الكلامَ لا لنا، لقد دافعَ عن نفسه أمامه لا أمامنا، لكنه لم يشر نحوه كأنما تنكَّر له يومَ اعتبره ماضيًا لاحقه لا أكثر.

نعم فالماضي من أقسى الملاحقين لنا لهزيمتنا، وها أنا فقد هربتُ من وطني لجنيف فرماني في وطنٍ أقربَ منها إليه وأبعد عنه مني، فلم أعد تلك التي جاءت منه ولا تحوَّلتُ لمن لا أعرفها... بدوتُ بين منطقتين فقط... في منتصفهما دون حراكٍ فكري... بدوتُ كساعةِ الحائط التي توقفت عند الثانية عشرَة مطلَّةً على جسدٍ غارقٍ في غيبوبته.

لا زال يتنفس. ***{انهض، لا تمت الآن، الوحدةُ تفترسني}***.

طلبَ مني أن أوقفها فور دخوله الغرفة ورؤيتها، أوقفتُ عقاربها وأرقامها الإلكترونية سائلةً إياه إن كانت تشيرُ للثانية عشرةَ مساءً أم صباحًا، غيرَ أنه لم يكترث... ظلَّت واقفةً رغمَ دوران الوقت فلم يسأل بعدها عن الوقت الحقيقي مكتفيًا بما تخبره النافذة من حديث الشروق والغروب المتكرر.

- هل تموتُ أشعةُ الشمس بعد وصولِها النافذة؟ ***سألني هذا السؤال قبل الدخول بغيبوبته بساعتين أو تراه سأل نفسه هذا السؤال بصوت مرتفع.***

- سؤال غريب.

- يحتاج لجوابٍ غريب. *قالها بصوتٍ خفيض.*

- هل تمتلكُ جوابًا؟

- امتلك اعتقادًا.

- وهو؟

- كل نفسٍ ستموت، لكنها ليست نفسًا فيما أظن، وكلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه، وهي شيءٌ فيما أظن، لكنني لا أعلم إن كان هلاكها في وصولها أو في قادِمها!

- طالما استطعنا تخزينها وتحويلها لشيءٍ آخر فقد يعني ذلك هلاكها.

- أو حياتها.

- كيف؟

- النبتةُ، هي بذرة، وماء، وهواء، وتراب، جميعها تعني الحياة وتطورات هذه النبتة تغيَّرُ إحساسنا بها، ما رأيناه قبلها وبعدها، لكن شيئًا حدث لم نحط به علما فلم نعلم أصلَ الشيءِ إلا في معادلةٍ قد نخطئُ بها، فاكتفينا بالملموس من الظاهر مطلقينَ حكمنا على النتيجة لا الأصل.

- هذا شعر أم فلسفة؟

- هذا رأي.

- غريبٌ كعادتك.

- قد أكون.

- لم تخبرني عن أقرب إنسان لقلبك، لا تقل بأنني هذا الشخص فلن أصدقك!

ظننته سيضحك بيد أن وجهه تقعَّر كمن كره الإجابة عن السؤال.

- لا أعرف، قد يكون أصلان، أو العجّان، أو شهد، الحقيقة لا أعرف.

حاولتُ حقيقةً فهمَ جوابهِ الغريب الذي قاله بصوتٍ خفيت أتى من جوفِ نسيانهِ فلم أستطع، مع أنني قد أكون سببَ هذا لكثرةِ ما ذكرتُ من أسماء شخوصٍ وأحداث على مسامعه المنتميةِ لذهنه الشارد؛ وعمرهِ الموشكِ على الأفول.

- عدتَ لذكرِ أسماء لا صلة لك بها أيها الشاعر.

شعرتُ حينها أنه استفاق من شروده قبل أن يحدِّقَ بي حائرًا.

- أقربهم إلى قلبي هي أمي، ثم حنان، أعتذر.

- لم تخبرني عن حبيبتكَ الأخيرة، أتشوق لأعرف.

سألته هذا السؤال كي أُخرجه من حالةِ الحيرة التي وقعَ بها، كمن تحفزُ ذاكرته على استحضار ما اختفى من عوالمها، بدل التشويش الواضح الذي حدث له.

- هي من وطنٍ لا يعترفُ بها.

- ولماذا لا يعترفُ بها؟

- لأنه ليس لها، هو لأصحابه، وهي من العابرين إليه فقط.

- حدثني، أرجوك، لا أفهم مقصدك!

- أولُ ما رأيتُه بعدَ أن أصابتني الرصاصة من مجهول ما في الثانية والسبعين من عمري أي حادثة قصر المعارف في وطني، هو وجهها لا لأنني دخلتُ في غيبوبةٍ أو ما شابه، بل لأنني نسيتُ كلَّ ما رأيته ذاك اليوم حينما رأيتها... لم تستغرق عمليةُ إخراج الرصاصةِ وقتًا طويلًا لكنني استغرقتُ وقتًا طويلًا بانتظارِ رؤيتها مجددًا، من الصعبِ أن تتغاضى عن فارقِ العمرِ مُقنعًا نفسك بأنك لا تزالُ شابًا، لكن الأصعب أن تقع في حبِ شابةٍ مدركًا لهذه الحقيقة، حدثت نفسي كثيرًا بأنها قد تكون عقابًا لي على ما فرطَ من أمري، وأن عليَّ أن أغادرَ المشفى دون التفكيرِ بها مطلقًا. الإعلامُ حينها وجدَ مادةً غنيةً للانقضاضِ عليها وتضخيمها، وإذ تناقلت وسائله حادثةَ اغتيالي بشكلٍ كبير كنتُ حينها أرفضُ الحديث والتعليق على هذه الحادثة قائلًا بعض الأشعار القصيرة التي تدورُ حولَ ممرضتي الحسناء، أو مَن عشقتُها دون أن أدري. قد تتساءلين ما الذي ميَّزها أو جمَّلها أو شدني إليها؟ لا أعرف، والحب يبدأ من هنا تحديدًا، حين لا نعرف.

عشِقَت أشعاري مثلكِ تمامًا، أحبَّت صوتي، رأتني ضخمًا وضخَّمت محبتها داخلي، استغرق علاجي أسبوعًا ووددتُ أن يستمرَ لأراها أكثر.

- هل أحبَّتك؟

- أكثر مما يجب، ثم ذهبنا نبحر في ذاك الشوق الذي لا ضفاف له، وندورُ كالأفلاك في سماءِ العشق دونما تعب، حدث كل هذا في أقل من شهرين فقط، واختفت فجأةً بعدها، بحثتُ عنها كثيرًا، كدتُ أن أرفعَ كلَّ حجرٍ في وطني مفتشًا عنها، ثم أوكلتُ لأحدهم مهمة التحقيقِ بغيابها ليجدها في المكان الذي لم أتوقع وجودها فيه أبدًا وبصفةٍ لا يمكن لي تخيلها

- أين؟

- في منزلِ سمير صديقي، كزوجة.

- سمير بيك؟!

- التقيا في المشفى عندما أصابتني الرصاصة ثم تطوَّرت علاقتهما تزامنًا مع تطور علاقتي معها فتزوجها، لم يخن صداقتي، ولم يدرِ أنها حبيبتي.

حينَ التقيتُ بها لم تبدِ أيَّ ردةِ فعلٍ تجاهي، صافحتني وجلست أمامي بكلِّ هدوءٍ وبابتسامةٍ لم تفارق شفتيها، وكأنها لم تكن حبيبتي يومًا.

- سعيدةٌ جدًا برؤيتك أستاذ أصلان وقد تعافيت.

- سعيدٌ بك، أشكرك. *قلت هذا والغيظ يكاد يفترس ملامحي.*

- لطالما حدثني سمير عن صداقتكما، رغم أنه رفض أن تكونَ شاهدًا على زواجنا.

ضحك فورَ أن قالتها سمير مُبررًا: هي من رفضت إقامة حفل الزفاف لا أنا مبدئيًا ومن طالبتني بزواجٍ جنوني في ليلةٍ لا تنسى.

الشبهُ فيما بيننا، بيني وبين سمير أننا نفعلُ أيَّ شيءٍ فجأةً وبجنون صبياني، ودون أن نكترث للآخرين، أما الشبه الأكبر الذي لم أعرفه من قبل فمختصٌ بالعاطفةِ تحديدًا وذوقنا الفكري، والشكلي، والغبائي، فقد أحببنا يومَ خُدعنا من الفتاة ذاتها. ثم كرهنا أنفسنا لهذا الحب... قرأتنا جيدًا فعلمت أنه لن يتحدث لي عنها أثناء علاقتها معه، وأنني لن أتحدث عنها طالما قد تزوجها سيما أنه خجل أيضًا من كونهِ تزوج فتاة اصغر من ابنته، حاولتُ أن أخيِّبَ ظنها فلم

أستطع لا رأفةً به بل لأنني لا أهتم لشكلِ النهاياتِ، طالما أنها لا محالة قادمة.

كنتُ شاعرًا لا يتقنَ التجارة كثيرًا، وكان تاجرًا لا يتقن الشعرَ بتاتًا مع عشقه له، لكننا التقينا عند أبوابِ الوطن المحتل فطرَقتُ بابَه شعرًا؛ وطرقه مالًا عسانا نفتحه يومًا للغاضبين من ورائنا.

ماتَ مسمومًا بعدَ أشهرٍ من زواجه، لم يقبضوا على القاتل لأن جميع الأدلةِ أدانته شخصيًا فبدا بأنه القاتل والضحية معًا.

لم أرَ الحزنَ ولا مسحةً منه على وجهها لكنها احتضنتني بحرارة بعد احتضاني لابنه.

- لقد انتحر.

- التحقيقات من ستثبت ذلك. *قلتُها وأنا أتخلص من يديها*.

لم أتخلص من عناقِها قبل ذلك، كنت أحتضنها بقوةٍ باثًا أسرار الشوقِ واللهفةِ، متأملًا بعينينِ حائرتين.

- ليتني استطيعُ تفسيرها.

- تفسير ماذا؟

- هذه الحيرة.

لطالما شعرتُ بشغفها وولعها بي، لطالما لمستُ الشوق بأطرافِ أصابعها وكلماتها، لكنني لطالما لمستُ أيضًا ذاك الخوف في نظراتها أثناء حبها لي، خوفًا جهلتُ أسبابه مُحيلًا إياه لفارقِ العمر فقط. تقابلنا كثيرًا وتحدثنا كثيرًا كي أقول ما بيني وبيني: هذه خُلقت كما أريد، ثم بدت ممثلةً بارعةً تخلو عيناها من معانٍ ولغة بعد غيابها الزواجي.

تخلصتُ من يديها بحدةٍ واضحة مما أثارَ انزعاج حنان والتي راحت تعتذرُ لها عن تصرفي قائلةً: هو حزين وغاضب فقط لموت صديقه... تعلمين ما مدى ارتباطهما في كلِّ شيء.

- كانَ عليكَ ألّا تفعلَ ذلك، الجميع شاهدوا فظاظتك معها.

- لماذا لم تغاري من عناقها، أليست امرأة؟

- إنها زوجةُ صديقك المرحوم، لستُ بلهاء إلى هذا الحد.

التقيتها بعد سنةٍ في كواليس مسرحٍ وقد انتهيتُ من أمسية شعرية، عانقتني هذه المرة في غرفةٍ تخلو من العيون، قفزت على فمي لاثمةً له، أمسكت وجهي ورقبتي واعتصرتهما بقسوة.

- أحبك.

- أنتِ.

- أحبكَ.

- أنتِ كاذبة وحـ مم.

- أحبك.

- أحبك أيضًا.

لقد بعتُ نفسي، وفكري، وصديقي، وعائلتي، وتاريخي بقبلة.

لقد تجاهلت الدنيا بصحيحها وأعوجها، بحلالها وحرامها من أجل قلبي.

- أنا أحبك، لكنني مجبرة على هذا.

- على ماذا؟

- على ألّا أكون كما تراني.

- لا أفهم.

- ولن تفهم، دعني أحتضنكَ أكثر، وأستنشقك أكثر فقط، فقد لا تراني.

- أنا متعب.

- وأنا كذلك، أريدك فقط أن تصدق بأنني أحبك.

- لا أستطيع تصديق هذا، أنا كهل بائسٌ لا أكثر وأنت طفلةٌ ساذجة.

- كذِّبني بما شئت، وانعتني بما شئت، وصدق هذا فقط، ضع يدك هنا. *أمسكت يدي ووضعتها على قلبها.* هل تشعر بخفقاته؟

- هذه لعبةٌ طفولية.

- حاول فقط أن تشعر، صدقني هناك حديث بين قلبي ويدك في هذا الوقت.

رحَلت بعدها تاركةً يدي مَن تحدثني عنها، يدي التي عضضتها ندمًا يوم سمعت نبأ زواجها مجددًا من سياسي محارب بعد أشهرٍ من لقائنا هذا.

هذا اللقاء الذي أسرَّت لي فيه أنها خائفةٌ من اتهامها بموت سمير بالسم؛ لأساعدها على إغلاق ملف هذه القضية باعتبارها قضاءً وقدرًا، كنتُ متيقنًا من استحالة قتله بالطبع، مثلها لا يمكن أن تقتل ذبابة.

بعد أربع سنوات جاءني اتصالٌ من ذاك السياسي يومًا يدعوني لمنزله للضرورة.

- إنها جاسوسة. *أشارَ السياسي لها وقد قيَّدها خلفَ مكتبه.*

- زوجتك؟ *كنتُ مصدومًا للدرجةِ التي جعلتني أشعر أنها ليست من أحببت.*

- كانت كذلك.

صعقتني هذه المعلومةُ رغمَ ما أبديته من فتورٍ تجاهها، صعقتني بالقدر الذي لم أعد أفرق فيه بين عشقي وكرهي لها، ومَن سبقَ من أو من تغلب فيهما على من.

- جاسوسة. *قلتها مستغربًا.* لمن، لحساب من؟

- للكيان الصهيوني.

- للكيان، وما علاقتي أنا بهذا؟ *قلت هذا والأرض تميد بي رغم تظاهري بالثبات.*

- توسَّلت لي لإحضارك، للاتصال بك.

من الصعب أن تحب، والأصعب أن تحافظ عليه، ومن الخرافاتِ أن تحبَّ حبَّك له، لكن أسوأ ما فيه أن تعشقَ عدوَّك ويعشقك.

عمِلت جاسوسةً في المشفى الذي أشرفَ في كثيرٍ من حالاته على المحاربين والسياسيين لالتقاط أي معلومةٍ كانت، ولعلها شاركت في اغتيال بعضهم، ثم انتقلت للعمل خوفًا من اكتشافها كزوجةٍ متنقلة بين أعداء دولتها السرطانية.

خلصتُها آنذاك من قبضةِ زوجها الأخير، خلصتها من رصاصةٍ ودَّت أن تعانق دماغها. أقنعته بأني أدافعُ عنه، وعن الشرفاء أمثاله لا عنها بعقلانية ودون تهور.

- خبرٌ كهذا سيُفقدك مكانتك في الحزب، ناهيك عن الإشاعات التي ستدور حول علاقتك بها، أو عن وصفك بالغبي والمخدوع وما شابه من أعدائك، قتلُها دليلُ غبائنا جميعا وانتصار للكيان.

كذبتُ على نفسي قبل أن أكذب عليه مُدركًا، وقد جلستُ بجانبها في المطار، أنني فعلتُ ما انتقدته طوالَ حياتي إرضاءً لقلبي... ***{لقد أحببتَ قاتلةً قتلت صديقَك بعدَ أن قتلت من لا تعلم قبله، أحببتَ جاسوسةً نقلت أسرار قومك للكيان، وحينما جاءت لحظةُ الحقيقةِ للانتقام منهم عبر جاسوستهم بعتَ قومك، وشعرَك، وغضبَك لوطنك من أجلِ قلبك}***.

لم أعانقها حين رحلت لوطننا المغتصب الذي تعتبره وطنها دونما عودة؛ كما أنني لم أعانق روحي مجددًا بسببها. أعلمُ أنني أخطأتُ حين أحببتها وحين خلصتها، وأعلم الآن أن الوطن أكبر مساحةً من القلب، لكنني امتلكتُ قلبًا رديئًا لا يعرفُ الفرق بين الموتِ والحب، والفرق بين الشعرِ والمرأة.

بكلِّ بساطةٍ لم أصدقه، لا لأنني لم أرد هذا بل لأنه قال أشياء لا يقولها عاقلٌ حتى وإن حدثت فعلًا، كدتُ أعترف بجنونه، وذهاب عقله أمامه، لكنني لم أفعل مقرَّة بيني وبين نفسي أنه فقد عقله فعليًا، لقد تحدَّث عن جاسوسةٍ حررها بسهولةٍ لتعبرَ لكيانها، وكأنها وقومها ليسوا أعداءه بتاتًا، أو كأن أشعاره الوطنية والتحريضية ضدَّهم وضدَّ السنباريين بعد ذلك كانت مسرحية لا أكثر... لقد أفقدته الحربُ والمرض عقله بالكامل فتخيَّل على ما يبدو أحداثًا لا تمت لتاريخه البطولي والنضالي بصلة. ***{كم مسكينٌ أنت يا شاعري المريض!}***.

لكنني أعودُ مجددًا لأطرح ذات السؤال: لماذا أنا تحديدًا؟

لماذا أمتلكُ قلبًا كقلبي؟ أو عقلًا كعقلي؟ أيعقل أن أصلان قال ما قاله للسخرية مني؟ حتى لو فعل فالحقيقة لست غاضبةً منه. يبدو أن لا شيء يغضبني مذ كبرت وعرفت معنى الوحدة والانتقام ممن لا يستحق.

أمتلك عاطفةً عكسية تكره من يعطف عليها، وتحب من يسيء إليها في الأغلب، عاطفةً تجعل من أعدائي مثارَ شفقتي! فقد بكيتُ كثيرًا على ميمون رغم وقاحته. تأثرتُ بما قاله العجّان بل وصافحتهُ في آخر يومٍ من المحاكمة بدموعٍ صادقة.

كثيرون قد تعاطفوا معه، كثيرون اعتبروه وأولاده ضحيتنا قبل أن نكونَ ضحيتهم، وهناكَ من كذَّبه وسفَّهه وزندقهُ مطالبًا بشنقه، لكن صحفيًّا وحيدًا من بين هذه الجموع المتعاطفةِ والكارهة من استطاعَ إقناعه بإجراءِ مقابلةٍ يتحدث فيها عن أي شيء، كلِّ شيء، تحت إشرافِ منظمةٍ إنسانية نفسية تُعنى بسلوك وحيثيات المجرم لدراسةِ حالته.

- هي صفقةٌ إذن. *تساءل العجّان وقد راح يتفل على أرضية المكتب الذي قيد إليه ليجد أمامه رجالا ونساء بملابس وحقائب رسمية.*

- اعتبرها كذلك.

- وتتوقعون مني أن أساعدكم على فهمِ شخصية المجرم لمعالجتها؟

- إن تحدثت بكلِّ ما فكَّرت وتفكر به فقد تفعل.

- العدل.

- العدل؟

- أوجدوا العدلَ أولًا كي تفرِّقوا بين مجرمٍ مريض ومجرمِ الصدفة، أمَّا وقد مالت هذه الكفة فأنتم أمامَ سوقِ خضارٍ لا أكثر؛ عُرضت فيه الخضروات المهرمنة والطبيعية دون أن يعلمَ أحدٌ عن حقيقتها... لمعرفةِ جيدِها من رديئها عليكم تذوّقها فقط، إن تذوَّقتم للحُكمِ فقد أفسدتم البضاعة، وإن تركتم الباعةَ وبضاعتهم فسدَ السوق.

- والحل؟

- اعتنوا بالأرض فقط، ولا تسمحوا للمزارعين أن يهرمِنوا بذورنا.

رغمَ معارضتهِ فقد استطاعَ الصحفي أن يكتبَ سيرةَ مجرمٍ فعلَ كلَّ شيءٍ في مسيرته الإجرامية إلا القتل. شخصيتُه أثارت جدًلا غريبًا سيما وقد نشرَ الصحفي بعض المقالات التي جاء بها أن العجّان أنفق من مالِ السطوِ، والنشلِ، والسرقةِ الكثيرَ الكثير على المتسولين وأولاد الزنا واللصوص ببذخٍ كبير.

- لعلَّك تأثرتَ بـ***أرسين لوبين*** فحاولتَ تقليده. ***قالها الصحفي مستغربًا من الضحك.***

- من ارسين بوبين هذا؟

- لصٌ ظريف، فعلَ مثلك لكنه أنفقَ على الفقراء لا المجرمين كما فعلت.

- أنفقتُ على من يهمني أمره، لم أرجُ ثوابًا كي أشقَّ عن صدورهم لأعلمَ الفقيرَ من المجرم، لعلَّ أرسين هذا أراد الشهرة، أمَّا أنا فخشيتها، عشتُ أخشاها طوالَ عمري، نحن كالخفافيش نحيا في الظلام حتى في الخير، إن كان ما قمت به خيرًا من أساسه.

- هل كان جُدكَ عجَّانًا؟

- أحدهم كان كذلك، لكنه سرقَ فورثنا السرقةَ لا الصنعة.

- الناسُ لا تصدق قصصك وما ترويه لي.

- هل تصدقني أنت؟

- الحقيقة، كلا.

- طالمَا أن صحفيًا مثلك لا يصدقني، وجموعُ الناسِ أيضًا فهذا يدل على صدقي.

ضحك الصحفي حتى بانت نواجذه:

- إذن سأصدقك.

- لا يهمني هذا، ما يهمني هو أن تتم صفقتنا، الحديث مقابل الإفراج عن ميمون.

- لماذا لم تشركه بعصابتك؟

- عائلتك.

- لماذا لم تضمه لعائلتك رغمَ أن الجميع تورطوا معك؟

- لم يرد ذلك، باختصار.

- هل امتلك خيارًا؟

- كلا، لكنه فشِلَ منذ صغرهِ بهذه الأعمال، ظننتهُ جبانًا بادئ الأمر، لكنه لم يكن، بل لعله أوقح أبنائي على الإطلاق، غير أنه ذهبَ للمدرسة فتفوق، فقالت لي المنحوسة بنت الكيس مرةً أخرى: دعه يُكمل ما أردناه لسيف. لم أعد أكترث لتفكيرها ولا هي نفسها اقتنعت بما قالته، لكنها قالته وسكتُّ عنه، صدمني حين تفوق في الثانوية، صدمني حين بدا متأنِّقًا في ملبسه، صدمني حين لم ينقض على فريسةٍ من الفرائس التي اقتدناها للمكان رغمَ فحولته.

- وما أدراك؟

- أدراني بماذا؟

- بفحولته.

ضحِكَ العجّان من سؤاله ثم تابع:

- صدمني حين انتسبَ للجامعةِ دارسًا ما لا أعلمه، والدته فرِحَت بذلك فحثته أكثر، وأغدقت عليه أكثر، كلُّ ما فعله ميمون في حياته أنه سكتَ عمَّا يراه. لم يشارك، ولم يساعد بشيء، لكنه لم يكترث بما فعلناه يومًا.. جريمته هي الصمت إن اعتبرناها جريمة.

- ألا تعتبرها جريمة.

- إن كانت كذلك فسكان الكوكب جميعهم مجرمون لما يرونه ويصمتون عنه من فظائع وجرائم تُرتكب بحق الجميع.

- لا أجد سببًا يمنعه من الانخراطِ بأعمالكم.

- باختصار يا أنت؛ ميمون لم يكن مجرمًا، حتى ورغم بيئته المحيطة، وتعرضهِ للكثير من المواقف التي تدفعه لذلك لكنه لم يفعل، قد يصبح محتالًا يومًا أو مهرِّبًا لكنه لن يصبح مجرمًا.

- وهل التهريب أو الاحتيال لا يعدان جريمة بنظرك؟

تجاهلَ سؤالَه باعتباره سخيفًا وراحت ملامحه تتلمظ القرف من تفاهةِ الصحفي فاستدرك فورًا ليسأله:

- هل تعتبر نفسكَ مجرمًا؟

- اخترتُ بعد كلِّ شيء أحاط بي أن أكون، المواقفُ التي تظنها الأغلبية بسيطة هي الدافع وراء كل شيء عظيم، من الرقم واحد جاء رقمٌ كبير، ومن صغار الشرر احترقت ملايين الأشجار في الغابات. البسمةُ الصغيرةُ أنتجت علماء وعباقرة، والكلمةُ المحطمةُ أنتجت مجرمين وقتلة.
أعرفُ طفلًا فقيرًا باعَ المناديل الورقية على الإشارات الضوئية في الماضي البعيد، باعها كي ينفقَ على عائلةٍ يخلو بيتها المتهالك من أبٍ يرعاها... أوقفوه بجانبي كي يستعرضوا وجوهنا، وأمامنا بضائعنا التافهة في المركز الأمني بعد حملةِ تنظيفٍ للشوارع من المتسولين، والباعة المتجولين، واللصوص الصغار.

راحَ يصفعنا شرطيٌّ مُستجد، ويهزأ بنا، ويسخر من ملابسنا وعائلاتنا، لم يوكل له أيَّ عملٍ فراح يتسلى بإهانتنا، وشتم دمائنا النجسة، ووصفنا بأقذع الصفات.

أمَّا أنا فأضمرتُ في نفسي أن أصفعه أضعاف صفعاته لي عندما أكبر، وأن أقطع يده بعدها وأقص لسانه... ابتسمت لهذه الأفكار التي راودتني حينها وشعرتُ بالسعادة وكأنني قمت بهذا فعلا، فلم أعد أبالي بعدها بالشتم، والصفع، والركل المجاني، ولم أكترث

بأمراضه النفسية التي راح يفرِّغها عبر لسانه، ويديه، وقدمه بأطفال لا ذنب لهم سوى أنهم فقراء؛ أو أولاد عائلات قذرة وجدوا أنفسهم فيها، لم أبالِ لأن غدًا لناظره قريب... الحقيقة أن الغد هذا عندما حضر كنت قد فقدت كلَّ أثرٍ يقودني إلى هذا الشرطي المحظوظ لعدم معرفتي به كبيرًا.

حينها مرَّ أحد الضباط الكبار وقد ارتفع صوت الشرطي وزاد حنقه غير المبرر. مرّ مصادفةً فتأمَّلنا ثم راح يتأمل الطفل اليتيم ذاك، نهرَ الشرطي بعصبيةٍ قائلًا له: ولماذا تعنِّف أطفالًا بسطاء يخطفون لقمة خبزهم من بين فكي الحياة؟ من أنت لتقيِّمَ أخلاق الآخرين وتطعن بأنسابهم من أجل بضاعة مسجاةٍ أمامك، أو ثيابٍ باليةٍ تستر أجسادهم؟ هذه النظرات. *وأشار نحونا*. ستجلد ذاكرتك طوال عمرك إن كنتَ إنسانًا، أمَّا إن لم تكن فهناك من سيسترد لهم حقهم منك، لا محالة.

أعاد لنا بضاعتنا وأفرج عن الجميع لأنه امتلك القرار، أو لأن حميته ثارت بسبب ذاك الشرطي، أو لأن الإنسان داخله -كما عبَّرَ عنه- انتصر لروح القانون.

خرجنا وقد نقدَ اليتيمَ دوننا ورقةً نقديةً من فئةِ العشرين دينارًا ولاعب رأسه ضاحكًا سائلا عن أحوالهِ وسبب بيعه للمناديل الورقية.

بخبرته وحدسه البوليسي استطاع فهم حالتهِ دون غيره، وقراءة واقعه من ملامحه وعينيه... صاحبَ خروجنا دخول سيدة ثرية ملأت المكان صراخًا، متهمةً رجال البوليس أنهم لا يقومون بعملهم على أكمل وجه، لقد هربت خادمتها ولم يعثروا بعد عليها. لا أشك أنها هربت من سيدةٍ مثلها تمتلك كلَّ شيء إلا ما يحتاجه الإنسان، راح الشرطي يتحدث إليها كما يتحدث البوذي لصنمه، والابن البار

لأمه، بينما لم يزدها ذلك إلا عصبية وغضبًا، لم يثر عليها ولم يلعنها كما لعننا رغم أنها من امتلأت قذارةً حينها لا نحن.

بعدما عركتنا الحياة وسارَ كلٌ في طريقهِ وجدت ذاك اليتيم أمامي في مركز شرطةٍ آخر، وقد زيِّنت أكتافه بنجمة واحدة. عرفته لا لأنني أعرف اسمه أو لأن ملامحه لم تتغير، بل لأنه أعادَ كلام الضابط الأولِ بالطريقة والأسلوب ذاته، وعدد الحروف والوقفات بين الكلمات، بل وبالنبرة ذاتها كأنه يخيلُ إليكَ أنه تسجيلٌ يعادُ سماعه صوتيًّا عبر فمٍ آخر فقط. وجَّههُ لأحدهم أثناء التحقيق مع مجموعةٍ من اللصوص كنت مُستجدًّا بينهم، قيل لي بعدها أنه تركَ عمله في الشرطة وطارد أحلامه الأخرى ليصبح ثريًّا بوقتٍ قياسي لم يحلم به أحد.

أمَّا أنا فقد علقَ بذهني ما قاله وفعله الشرطي فلم أكترث لسواه، أما اليتيم فقد علق بذهنه ابتسامة الضابط ولمسة يده على رأسه فأصبح مثله تمامًا.

- وما الذي علِقَ بميمون برأيك؟

- قلت لك أيها الغبي:"ميمون لم يكن مجرمًا".

لا زلتُ حيًّا...

ورغم كلِّ شيء، ورغم ما مرَّ بي حتى هذه اللحظة لا زلتُ حيًّا.

أستمعُ لعباراتٍ بين الفينةِ والأخرى من ريم حول الغيبوبةِ والموتِ وحثها لي على النهوض، أحاولُ أن أجيبَ فلا يطاوعني أيٌّ من أطرافي لهذا.

لعلَّ الحقنةَ التي حقنتني بها *(ليزا)* قبل حديثنا المشؤوم هي من فعلت هذا بي. لا زلتُ أشعرُ بانتصاري على هذا المرضِ اللعين لكنني استسلمتُ لها يومَ راحت تستجوبني مهددةً بقطع..... إن أنكرت شيئًا، أو كذبت عليها... مذ صادفتها بجانبِ ريم وأنا على علمٍ بأن القادمَ أسوأ من ماضٍ يلاحقني لاهثًا للإطاحة بي، ومذ دخَلت أول مرةٍ غرفتي حتى تأكدت فورَ مغادرتها أن نهايتي ستكون على يديها، لقد خدعتني معافًى وبكامل قواي العقلية والجسدية قديمًا، وها هي الآن تغتالني بكامل ضعفي وعجزي.

لم أمت في البحر رغمَ أنه أحاطَ بي من جميعِ الجهات، لم أمت في السجن رغمَ أنني تمنيتُ هذا لحظةَ رؤيتي المراحيضَ القذرة وقد طلبوا مني تنظيفها... رفضتُ فسحلوني على أرضيتها لضربي قبل أن يأتي أحدهم مُشفقًا علي طالبًا منهم إعفائي من هذا الذل الروتيني.

قضيتُ في زنزانتي سنتين دون أن أتكلم حتى لنفسي، لا أمتلكُ الجديدَ لأقوله لكنني احتفظ بالكثير لأدلي به، لكنني صمتُّ لأن الحديث مع الجدار لن يفتحَ بابًا فيه.

في البعيدِ يسكن الوطن، هناك، حيث يبدو الظلمُ أجمل، والذلُّ أجمل، والموتُ أجمل. هربتُ لبنغازي من أشياء تطاردني لأعوام

وأعوام دون أن يشعر بي أحد، من ضمير يجلدني ليل نهار، هربت من عبارات الإطراء التي لا أستحقها، من نظرات القراء والجمهور الذين يعتبرونني بطلاً قوميًّا ومناكفًا للتطبيع والسلام مع العدو، لم يعلموا أن شاعرهم عشق صهيونية يومًا وتغنى بها في أشعاره... هربتُ لبنغازي ثم لفظتني تلك المدينةُ للبحر، فلفظني البحر للسجن، فلفظني السجن للمشفى، ووضعني المشفى تحتَ رحمةِ من لا يرحم، رحمة سيلا التي كانت تسمى في الوطن يوم خدعتني ب ليزا.

كنتُ أنتظر ريم قبل أن تتسمر أمامي سيلا فكأنها حضرت من العدم؛ إذ لم أشعر بوجودها إلا وقد وقفت تحدق بي كمن يتفحص شيئًا من مكان بعيد، يحول دون رؤيته له جيدا الغبار، والأتربة، والبعد مع قصر نظرِ الرائي.

- من الغريب أن نلتقي هنا وبعد كلَّ هذه السنوات! *بدت لكنة سيلا أقرب للضجر منها للسخرية*.

- الأقدارُ تجبرنا أن نصفق لها بالنهاية.

نظَرَت لوجهي طويلًا نظرةً ارتعدت لها فرائصي.

- لم أعرفك حقيقة رغم ما أثارته حولك الشكوك والفضول تلك الحمقاء، سأعترف أن الخبر الذي جاءني من الخارجِ صدمني، قبل أن أصدم بك، أيُّ أحجية هذه التي تحياها، وأردتَ لي أن أحياها بسببك؟! *جاهدَت كي تخفي عن وجهها ملامح الانتظار والتشوق لما سأقوله*.

- تُصدمين بي؟هي صدمةٌ واحدة كنتُ أنا ضحيتها لا أنتِ.

- تتحدث وكأنك أصلان فعلًا!

- ومن عساي أكون إن لم أكنه؟! *لم أفهم مقصدها من هذه الجملة*.

ضحِكَت بقرفٍ واضح قبل أن تجلسَ واضعةً قدميها على أطراف السرير كنوع من الاستهانةِ بي أو تحقيري.

- أمَّا صاحبك أصلان فقد أتقنَ أكاذيبَه أكثر منك.

- صاحبي؟!

- وارتدى ثوبَ الوطنية والعنجهيةِ بالكامل أيضًا، ما يحيرني كيف استطعتَ إقناعَ هذه السخيفةِ أنك شاعرُها المفضل رغم أنها تحفظُ شعره وأسلوبه أكثر منه؟ إنها مولعة به أكثر من ولع زوجته به، ألم تكتشف هذا من طريقةِ حديثها إليك؟!

- تتحدثين إلي وكأنني شخص آخر يا ليزا رغمَ معرفتك بي جيدًا.

- نعم بالتأكيد، مشكلتي أنني أعرفُ أصلان جيدًا بالقدر الذي أعرفك به تمامًا، أتظن أني قد أتوه بينكما يا صديقي؟! أم تراك ظننتني البلهاء ريم كي تقنعني بشخصيتك الجديدة؟ لن أنكر أنني لم أكترث بدايةً ظنًّا مني أنك مجنون فقط، لكنَّهم أكَّدوا لي أنك كنت مع أصلان في الانفجار، ونجوت بأعجوبة.

- من الحمقى الذين أكَّدوا لك ما لا أعرفه.

- ليسوا حمقى، قومي لم يكونوا حمقى يومًا.

راحت تضحك بينما لم أتحدث بل صمتُّ رغم غضبها بعد ذلك ومحاولتها حثي على الكلام، قبل أن تقف ريم مندهشةً من أواخر الحديث الذي لم تتبين حقيقته بالكامل من هول صدمتها.

غادرَت الغرفةَ متجاهلةً ريم واثقةً أنني لن أتحدث إليها، فظننتُ أنها لن تعود مجددًا بيد أنها عادت لعمل الفحوصات التي أجرتها لي، وأعادتها أكثر من مرةٍ بحثًا عن سراب لهثت وراءه يوم قادتني الأقدار أن أقع بين يديها.

رأيتُ موتي بدايةً في عينيها، وحياتي في عيني ريم، غيرَ أني رأيت العشقَ بعدها في عيني ليزا أو سيلا والموتَ في عيني ريم، ثم عادت نظرةُ الموتِ والحياةِ لأصولها اللحظية ***{هي نظراتٌ لن تتقنَ ترجمتها مهما ادَّعيت الذكاء، فالنظراتُ مهما فُسِّرت لن تفوقَ وضوحَ الكلمةِ المسموعة}***.

- لماذا انتحلتَ اسم معروف ثم أصلان، ثم تنكرتَ لهما مجددًا؟

صرخت بها سيلا أثناء حقنها لي وكأنها تريد دمج هذه الجملة مع الحقنةِ كي يسري بدمي.

- لم أدَّعِ شيئًا، بل لا يهمني ما أحمله من أسماء طالما أن الموت زائري لا محالة، كلُّ ما أودّ أن تعرفيه أنني أحتقرك بالقدر الذي احتقرت فيه نفسي بسببك.

- ادعاؤك هذا سيعجل بموتك، يا سيد معروف الذي ليس بمعروف هذا أيضًا.

- فليكن، لا رغبةَ لي بالبقاء أكثر، لكنني بالتأكيد أعرف نفسي أكثر منك.

نعم فلا رغبةَ لي بالبقاء حقًا تدفعني للصراخِ أو منعها من حقني، بل ها أنا أستسلم لأنني أريدُ الموتَ أكثر من أي شيءٍ الآن.

أشعرُ بمفعول الحقنةِ تسري في أوردتي شبه الميتة فتحدث كيًّا فيها، أشعرُ بماءِ نارٍ يوقدُ ذرات جسدي فأكادُ أشتعل من الداخل، أشتمُ رائحةَ القبرِ من خلالها دون أن أقاومها وقد تشنجت بالكامل... اللعينةُ لم تكتفِ عندما كانت ليزا في الوطن بحقن قلبي بعقار الخيانة، بل ها هي الآن تقضي علي بتهمةٍ لا أتبين حقيقتها ودوافعها.

أسمع وقع خطواتها تبتعد، ثم تبتعد، ثم أستمع لصوتِ الأطباء يجتمعون حولي ويباشرون بعمل ما يلزم عمله لمفارق الحياة بلا حماسة، أسمع صوت دن بينهم وهو يساعدهم ويذكر مسميات طبية لا أفهم معناها، نعم هو صوت دن الذي جاءَ قبل أن تحقنني سيلا بساعات، وتحدث إلي بأحاديث مجنونة، ثم حاولَ خنقي وسط اندهاشي من جنونه قبل أن يحدقَّ بعينيَّ هو الآخر ويمضي قائلا: "لا لست هو، لا يمكن أن تكونه". قالها وقد حرر يديه عن رقبتي دون أن أقاومه. غادر ثم جاءَ وسط هذا الفريق لإنقاذي، قد أموت الآن بسبب تصرفات هؤلاء المجانين لا خوفًا من جنونهم، أسمع أحدهم يقول: "فقدناه"، ثم يحاول آخر بطريقةٍ ما إنعاش قلبي فيعودُ للعملَ من جديد وسط دهشتهم، أستمع لضحكات ريم وشكرها لله قبل أن تشكرهم، وتحتضن يدي باكية.

يقول طبيب بينهم: معجزة، كيف لهذا الجسد أن يقاوم جيوش هذه الأمراض؟ الحقيقة لا أعرف، لقد دخل في غيبوبة.

يقولها ويمضي كآخر الذاهبين، بينما أبقى غير قادرٍ على الكلام رغم إحساسي بكلِّ شيء يدور حولي.

لم أشعرُ بعدها بالوقت ولا بالمكان، فكلُّ ما أراه الآن في عتمتي وضياعي هو وجهين لشخصين أعرفهما جيدًا... وها هو واحدٌ منهما أمامي تمامًا لأنه أنا، أنا وقد مشيتُ بدهاليز تفقدني اتزاني الفكري بالكامل.

يتلاشى وجهي كلما مرت الدقائق البطيئة في درب ساعاتها الثقيلة؛ فيحتلُّ الوجه الآخر ملامحي، وصوتي، وطريقتي فيسيرُ قافلًا لروحي محتلا لها بالكامل.

لقد فارقتُ هذا الكائن بكلِّ ما فيه ورفضته حتى قضيتُ عليهِ داخلي، وها هو الآن يعودُ إلي بعد ضعفي وفي غيبوبتي من باب الذهول، والصدمةِ، والخوف مجددًا.

حاولَ أن يُبرز نفسه أحيانًا في حديثي مع ريم لكنني حجمته ونبذته كما يطرد المؤمن وساوس الشيطانِ عن أفكاره ونواياه.

يقترب، يقترب أكثر، يأتي من غياهبي، من الماضي البعيد والقريب، يأتي من حيث لا أدري، من منطقةِ الذنب وجلدِ الذات، يقتربُ وفي كلِّ خطوةٍ يقترب بها مني أراني أنسى الأشياء القريبة والزمن القريب، حاربته في البحر وهزمته، حاربته في السجن وسحقته، حاربته في المشفى وصارعته بكل ما أوتيت من عزيمةٍ خائرة، فطالت هذه الحرب وكأنها حربٌ قديمة تكرر نفسها من جديد... تربَّصَ بي هذه المرة جيدًا حتى وجد الفرصة المناسبة للانقضاض علي، ها أنا الآن أتخلى عني له، أتخلى عن ذاكرتي ولساني له، للكائن الذي يلاحقني داخلي منذ عرفتهُ خارج جسدي، فيحتلني بالكامل دون أن أستطيع مقاومته، كل شيءٍ الآن في ذاكرتي يبدو ضبابيًّا، أراه وأسمعه لكن بصعوبةٍ بالغة.

ها أنا الآن أتلاشى، أرتعش، يتحرك داخلي كالمصروع، بينما يبزغُ هو بالكامل، ها هو الآن يصرعني ويطرحني أرضًا في أغوار حياتي، أتبددُ بعد أن كنتُ قد استرددتُ نفسي، وقد أفقدني إياها مرة قبل أعوام..

الآن أنا لستُ أنا... لستُ أنا ... ***وها أنا أتنفس*** بطريقةٍ مختلفة، وها أنا أراني جيدًا، أراني وأستحضرُ وجهَ أصلان وهو يتحدث إلى ريم وقد جلست سعيدةَ بكتابةِ ما يريد، لا أتذكر جميع ما قاله لها لكنني أعرفُ كلَّ شيء عنه قديما، وها قد ساعدني بإعادة ما قد

نسيته عنه، سمعتُ الكثير من الأشياء أثناء تربصي به، هزمته أخيرًا بعد هزائمي المتكررة أمامه، هزمته قبل ذلك بأعوام عديدة؛ بيد أنه استرد ذاته مجددًا منتصرًا علي، ومنذ ذاك الحين وأنا أُدحر أمامه رغم جميع ما مر به من أهوال.

من أنا؟ سؤالٌ أجد جوابين متناقضين داخلي للرد عليه.

مللتُ الفرار من نفسي، ومن ذاتي، ومن الماضي بكلِّ ما يحملهُ فظننتُ أنني سأتوقف عن هذا طالما أن غرف المشفى تمنع الأصحاء قبل المرضى من الهروب من وإلى أي شيء، بيد أني هربت مجددًا مني عبر لساني لا جسدي.

مَن أنا؟ سؤالٌ قد يدفع آخر يحيا معي في الوقت نفسه أن يقول لي: أنا لستُ أنت، وأنتَ لستَ أنا.

مَن أنا؟ سؤالٌ يسأله سيف لمعروف أو معروف لسيف فلا يجيبُ أحدهما الآخر.

الآن وفي هذه اللحظات فقط أعودُ لأعوامٍ جعلتني أفقدُني بالكامل.

فقدتُني حتى نسيت أن سيلا التي تحدثت إليَّ وحقنتني هي ليزا التي أحببتها في الماضي البعيد، الآن فقط أتذكرها وأتذكر وجهها اليهودي الجميل.

وها أنا ولم أمت أراني أحيا الماضي ليصبحَ حاضرًا، بينما يفرضُ وجهُ العجّان ملامحه أمامي من جديد، يفرضُ نفسه لا لأن ريم حدثت أصلان عنه بحضوري في أعماقه، بل لأنني أعرفه أكثر منها.

أعرفهُ وأحفظ نظراته الحادة التي أطلقها في المحكمةِ قديمًا ليظنَّ الجميع بأنه يبحثُ عن ابنهِ سيفٍ ليراهُ غيرَ مدركين بأنَّ نظراته لم

تكن تستطيع القفز إلا لمترٍ ضبابي أمامه. وزَّعها ليراه من يبحث عنه، ليقولَ له: أنا هنا، لكنه لم يفعل، ظلَّ صامتًا لأنه هربَ من ماضيه كثيرًا فلمَّا لحق به استسلمَ له بصمت، استسلمَ ووشى بوالدِهِ وعائلتِهِ بعد تأكُّدِه بأن الفتاةَ التي راودَها عن نفسها لم تكن إلا أختَه.

- الفتاةُ في الداخل...

قلتُها فظنت ريم ما ظنَّته عائلة العجّان بأنني أقصدها، بينما قصدتُ فتاةَ البنك التي راودتُها ثم قابلتُها ثم تحرَّشَتْ بها لتسلبَ كرامتي، ورجولتي، ومالي...

لاحقتُها بعد أن قفزتُ عاريًا من السيارةِ مرتديًا ملابسي، لأجدها وقد دخلت منزل والدي العجّان. جلستُ مُراقبًا متوقعًا ما يدور في الداخل دون أن أدخله كفرد منهم، فهذا والدي، هذه والدتي، هؤلاء إخوتي، وهذه هي أختي. أختي العاهرةُ دون أن أدري.

وقفتُ مراقبًا ووقفَ الآخرُ في مكانٍ قريبٍ مني دون أن أراه أو يراني، أرادَ أن يقولَ ما لا أعرفه، وأراد ما لم أحط به علمًا، وقد رأى العجّان يجر بدينةً للداخلِ بالقوة. أرادَ تخليصها، أرادَ أن يكونَ سواه حينها فلم يستطع، صرخاتُ الفتاةِ أقضَّت ماضيه وحاضره، خوفها لامسَ وجعه، لمعَ بريقٌ بعيد من مكانٍ بعيد أمامه فجأةً فاتصلَ بالبوليس وانتظر...

انتظرَ بعيدًا عني رغم قربه مني، وانتظرتُ بعيدًا عنه رغم قربي منه، كلانا أراد شيئًا من داخل بيت العجّان، وكلانا اتصل بالشرطةِ لأهدافٍ مختلفة. وكلانا دخل بيت العجّان ورآهم دون أن يدخل إلى بيتهم.

- الفتاةُ في الداخل.

{عن أي فتاةٍ تتحدث؟ عن فتاةٍ أردتَها فإذ بها أختك؟ أم عن فتاةٍ لا تعرفها قد يعرُفها آخر}.

- الفتاةُ في الداخل.

{عن أي فتاةٍ تتحدث؟ عن فتاةٍ لا تعرفها وقد لا يعرُفها آخر؟ أم عن فتاةٍ يعرفها الآخر لأنها أخته}.

-"الفتاةُ في الداخل، في الداخل رضا جاءَ بها إلى هنا". ***{مَن قالَها أولًا أنتَ أم هو؟، من كررها ثانية أو سبق إليها، أنتَ أم هو؟}*** رأسي سيتفجر فها هو الآن يحاول مقاومتي لكنني أسحقهُ بإرادتي، إرادة الظهور والسيطرة عليه. ولن أتساءل: لماذا كنتما حينها في نفس المكان؟ وأردتما الشيء ذاته؟

"الفتاةُ في الداخل، في الداخل، (رضا) جاءَ بها إلى هنا"، لستَ مَن قالها بل هو، قالها بصوتك، بطريقتك، بهدوئك، قالَ ما أردتَ قولَه لكنه ليس أنت، وقفَ خلفَك، لم ترَ ملامحَه جيدًا، الظلامُ من حجبَ نصفه، لكنك سمعته، سمعتَه كما سمِعتُه ريم والبوليس والعجّان لكنه ليس أنت. ***{كيفَ لك أن تخرجَ من نفسك؟ وتقفَ خلفَك؟ ثم تغادرُ تاركًا إيّاك؟ كيف انسلختَ روحًا وجسدًا في لحظةِ الحقيقة؟ هل أنا من كنتُ خلفي وشاهدتُني مع البوليس أم آخرٌ قالَ ما أردتُ قولَه وسبقني فيما أردتُ فعله؟}***. صرختَ حينها: "ساعدتكم فاسمحوا لي أن أرحل، هذهِ النهايةُ، ولا أود أن أراها أرجوكم"، أنتَ من قالها لا هو، أنتَ بينما صمت هو وغادر دون أن يعود. تبخّرتَ من المكان، هَربتَ من عيونِ العجّان التي لا ترى مترًا أمامها، ثم تمازجتَ مع الألوان البشريةِ في قاعةِ المحكمةِ لتتوه في الجموع التي تتشابهُ فيها الظواهر وتختلف البواطن، تمازجتَ وحدك دونَه قبل أن تلاحقه بعد ذلك.

جلستُ في غرفةِ التمريضِ وقد بدأ اليأس يتسلل لقلبي في أن يعودَ مجددًا للحياة من غيبوبته، وبين دعواتي وتضرعي أن يعودَ وجشعي شعرتُ بحاجةٍ ماسةٍ أن يستيقظ لكي أشعرَ أنني لستُ وحيدةً في هذه الدنيا...

تذكرتُ حديثه عن حبيبته فتمنيت لو كنتها ورحتُ أتخيل أن قصائده فيها كتبت لي، فابتسمت قبل أن تحتل معالم البلاهة كامل ملامحي لتذكُّرِي شيئًا كنتُ قد قرأتهُ يومًا وضاعَ في مجاهل النسيان.

ققفزَ أمامي الجزء الثاني من الحوار الذي أجراه الصحفي مع العجّان تحتَ عنوان: "ميمون لم يكن مُجرمًا" فضربتُ يدي بجبهتي تعبيرًا مني عن مدى سخافتي، مؤنبةً عقلي كيف أنه لم يستحضر هذه القصة من ذاكرته رغم وجودِ رابط عجيب بين ما حدثني به أصلان عن موت سمير وحبيبته؛ وبين حديث العجّان للصحفي الذي كنتُ قد نسيته بالكامل، وتذكرته تلك اللحظةِ فقط.

راح العجّان يومها يقص على الصحفي قصة السرقة الفاشلة التي تركت آثارًا غريبةً في حياته وقد سأله عن تفاصيلها فقال له:

- لقد حوَّلتني تلك الليلةُ من لصٍ غبيٍّ لا يفكِّرُ بشيءٍ خارجَ حدودِ عملِهِ وبيته وماضيه؛ للصِّ يرى العالم كما يراه الآخرون... بدأ الأمرُ حينما رميتُ بنفسي أمامَ تلك الشابة الثرية فدهستني ولم تتوقف، أكمَلت طريقها وكأنها دهست جرذًا لا إنسانًا فأضمرت الانتقامَ بشكلٍ لم يسبق أن فكرتُ به، أرقامُ اللوحةِ أرشدتني بعد أسابيعٍ لمنزلها وبعد مراقبةٍ امتدت ليومين؛ قررتُ التسللَ واختيارَ الوقتِ المناسبِ للانقضاض عليها وعلى زوجها طالما أنه لا يسكنُ غيرهما المنزل. ***{عليك فقط أن تبقى هنا مختبئًا حتى يستغرقوا في النوم... ابدأ به أولًا وخدِّره وقيده ثم انتقل لها، اسحقها أمامه***

كما تُسحق الجرذان... كما سحقتك ومضت}، انتظرتُ طويلًا لكنه أشهرَ مسدسًا مما أوقعَ قلبي ***{لقد اكتشفَك يا غبي! سيقتلك}*** لكنه لم يتجهِ نحوي وقد اختبأتُ خلفَ كنبةٍ عريضة بل نحوَها وقد أوثقها بعد جرِّها بعنف خلفَ مكتبٍ وسط ذهولها ومقاومتها، رأيتُ قدميهما وسمعتُ صوتَ الأقسام فارتعدت أكثر، لقد فعلتُ كلَّ شيءٍ في حياتي إلا القتل، وها أنذا أخشى أن أرى قتيلةً أردتُ اغتصابها، دارَ نقاشٌ لم أفهمه بدايةً... اتهَمَها بالخيانةِ، بالجاسوسيةِ للكيان الصهيوني، بالدعارةِ، بتصفيةِ شخوصٍ، وخداعِ شخوص، ورغمَ صلابتها إلا أنها راحت تتوسلُ إليه أن يستمعَ لها باكيةً عاويةً بشكلٍ استفزازي...

- لا أعلم عِن هذه الأوراق شيئًا، أقسم لك. ***راحت تبكي مدققة في الورق الذي راح يعرضه زوجها عليها وهي على الأرض.***

- لعلَّ أحدهم زوَّر خطكِ أيضًا. ***قالها ساخرًا.***

- ليس خطي.

لو اكتشفني حينها لكنتُ أنا من وضعَ تلك الأوراق، ومَن زوَّر توقيعها، كان غاضبًا وشرسًا لكنه انتظرَ منها جوابًا مُقنعًا ولو كاذبًا كي يصدِّقها، لم تقل الحقيقة ولم تكذب، فقد انهارت باكيةً مولولةً مذكِّرةً إياه بعشقها له، وعن لحظاتهما الحميمية. ***{سيقتلها وما زالت لا تفهم ما يريده منها هذا الرجل، أيتها الغبية قولي له ما يريد سماعَه فقط، قولي ودعيني أنجو من هذا الجحيم}***. "لعلها حسناء جدًا" قلتها في نفسي رغمَ أنني لم أتبين ملامحها جيدًا أثناء الحادثةِ أو من مكاني ذاك، لكن صوتها بدا مزعجًا أو أنه إزعاج الصوتِ حين يختلط الخوف بالبكاء، بالرجاء.

- لا أعلمُ عن هذه الأوراقِ شيئًا.

- والتسجيلات؟

- لست أنا من فعلَها.

صفعَها صفعةً آلمت خدي أنا باعثةً لعيني إشارةً بذرفِ دمعةٍ سريعةٍ منها.

- أرجوك.

- قولي الحقيقة.

- لا أملكها، لكنني قد أدلُّكَ على من يملكها.

- من؟

ذكرت حينها اسمًا غريبا لم أتبين حروفَه جيدًا إلا حين حضر وتردد الاسم بعدها أكثر من مرة، وما أن زودَته برقمه حتى دعاه للمنزلِ تحتَ حجةِ الظرف الطارئ والأمر الغاية في الأهمية، حضرَ سريعًا مصدومًا مما رآه، لم أره بالطبع، لكن أقدامه دلت على صدمته أثناء تقدمه السريعِ وتراجعه لخطواتٍ سريعة؛ ثم تقدمه البطيء بحذر، ثم جلوسه بالقربِ من مخبئي.

- جاسوسة؟ *قالها القادم بصوتٍ يفيضُ بالدهشةِ، والمفاجأة، والصدمة.*

- وأكثر من ذلك، انظر إلى هذه، وهذه، انظر هنا.

رحتُ أستمع لبعض التسجيلات الغريبة: أحاديث، وألغاز، وثرثرات لا تفهم ما يريد قائلها ناهيك عن أصوات همهمات رجل بصحبةِ أنثى على سريرٍ حار، ثم استمعتُ لصوتِ أوراقٍ تُقلَّبُ على عجلٍ، وهمهماتٍ تصدرُ من الزائرِ الذي كان يعلمُ بوجودي مذ دخلَ الغرفة. علمتُ هذا حينَ سألَ الزوجَ: هل نحن وحدنا؟

- بالتأكيد.

- ضربَ بحذائه الأرض بضع ضرباتٍ سريعة، ثم استراحَ على الكنبةِ، حينها أغمضتُ عيني واستسلمتُ لقدري. ***{لم تقع يومًا في قبضةِ أحدهم، وها أنتَ الآن الفريسةُ لماكرٍ يتلاعبُ بأعصابك كما تتلاعب بأعصاب ضحاياك، اخرج من مكانكَ واستسلم، دع الزوجَ يقتلك، حياتك لا تعني أحدا، لن يكترثَ لموتك أو حياتك إنسانٌ على هذه الأرض، لكنني لا أريد الموتَ قبل أن أرى سيفا، لم يعد مذ رحل، فقط أريد أن أراه ثم لأذهب بعدها للجحيم، الجحيم خُلقَ لأمثالي، أظنُّه كذلك، إذن انهض وتوسلَ لهم أن يسلموك فقط للبوليس دون أن يقتلوك، قل لهم: جئتُ سارقًا، ولم أسرق، ابكِ كما كنتَ تبكي صغيرًا متوسلًا للمارةِ أن ينقدوكَ ورقةً نقدية، ابكِ هذه المرةَ بصدق، لا تكذب، ابكِ وقل لهم: أريدُ أن أحيا فقط لأرى سيفًا ابني، فقد خرجَ ولم يعد، ابكِ فلعلها الفرصةُ الوحيدة أمامك أن تبكي بصدق، أن تتألمَ بصدق، أن تشعرَ بأبوَّتك بصدق، لا، لا تفعل، لعله قالها مصادفةً، لو رآكَ لأخرجك من مكانك، اغمضْ عينيكَ كالنعامةِ واستسلم لقدرك، لا تذهب إليه، عشتَ طوالَ عمرك هاربًا منك، من ماضيك، من عالمك، فإياك أن تمشي لقدرك، انتظره فقط، لا تسر نحوه فلم تخلق لتسير إليه بل ليطاردك}***.

- هلَّا تركتَنا وحدنا؟

ترددَ قبل أن يوافق، أغلقَ البابَ خلفه قائلًا: أثق بك.

- أنت يهودية؟

- نعم، هذا صحيح.

- جاسوسة؟

- بالتـأكيد.

- هل قتلتِ سعيدًا؟

- كلا.

- ما الذي يدعوني لتصديقك؟

- عيناي.

لقد قالت له تمامًا ما أراد سماعه.

{أقسمُ أنها مَن قتلت سعيدًا، الذي لا أعرفه هذا، لكنه أراد تصديقها}.

- لماذا أنا تحديدًا؟

- أحببتكَ فقط، لم أعشق سواك، كانت صدفة.

- هل عليَّ أن أصدقك؟

- صدِّق هذه فقط، وكذِّبني بما شئت.

- ما هو المطلوب مني؟

- أريدُ العودةَ إلى وطني.

- لا تملكينَ وطنًا لتعودي إليه.

- أمتلك العبورَ، فدعني أعبر إليه، أرجوك.

لقد اغتصبتُ وسرقتُ ألفَ امرأةٍ، لقد تاجرتُ بكلِّ شيءٍ إلا أنني لم أخن ذاك الوطن الذي تحدث عنه هذا الرجل، لم تتح لي الفرصة لخيانته لكنني لم أفعل، أما هوَ فقد راح يتحدث للزوجِ عن أمورٍ لا تقنعُ جرذًا يقبع خلفَ الكنبة.

- ذهابُها يعني النهاية، لقد حصلت على معلوماتٍ وفضائحَ لو نشرت فسيخسرُ الكثيرون الكثيرَ يا صديقي، ستذهب وقد عقدنا الصفقةَ بدفنِ كلِّ شيءٍ هنا مقابل عبورها للوطن.

- كيف سنثق بها، بهم؟ أنت تعلم.

- ثق بي أنا فقط، ما يجعلني واثقًا منها هو شيءٌ لا أملكُ دليلًا عليه.

ظننتُ أن الأمرَ انتهى هنا، لكنه اتجه نحوي وأمسكني كجرذٍ من ياقتي وسط دهشتهما مُخرجًا إيّاي بثقةٍ من مخبئي.

- من أنت؟

- رضا، سارقٌ دخلَ إلى هذا المكان المشؤوم فأيقنَ بموته.

نظرَ إلي متفحصًا وجهي وجسدي ويدي بطريقةٍ غريبة، أطال النظرَ إلي أكثر مما ظننا جميعًا.

- قد رأيتكَ يومًا، هل تصدقُ بأنني أعرفك؟

- لن تكذب، لذا سأصدقك.

- رأيتُكَ يومًا في حُلمي.

- حُلمك؟! ***كدت أن أضحك لسفاهته غير أني خفت منه فهززت رأسي.***

- رأيتُ غزالًا بدينًا وقد أطلقتَ عليهِ سهمًا أخيرًا من كنانتك، لم تصبه لكنه استسلمَ لك قبل أن أجيء وأنقذه منك، كدتَ أن تقبضَ عليه مجددًا لكن ضلعًا حديديًّا حادًّا سقطَ من أضلاعكِ ليستقرَّ في قدمك فأقعدك عن اللحاق به، وشلَّ أطرافك بالكامل...

- لقد تحقق حلمُك إذن.

- من يدري؟

- لقد شعرتَ بوجودي فورَ دخولك، هل هذا صحيح؟.

ابتسم دون أن تتغير ملامحه: ممكن، من يدري؟

- لماذا تجاهلتني؟

- القدرُ جاءَ بك شاهدًا فرضيتُ بشهادتكَ علينا.

- هل أذهب؟

- ستذهب حين تعدني أن تنسى ما حدث هذه الليلة، أن تنسى أسماءنا ما حييت.

- سأفعل.

- أصدقك.

- كيف لمثلكَ أن يصدِّقَ مثلي، الوعد للشرفاء يا سيدي، ولستُ منهم.

- كن شريفًا معي إذن.

- وستصدق أنني سأفعل؟

- سأصدق إن وعدتني.

- كيف لمثلك أن يصدِّق مثلي؟ ***قلتها غاضبًا أو كأنني أحتج عليه.***

- هل تشعرُ أنني أختلفُ عنكَ كثيرًا؟

صمتُّ ثم أطرقت قليلا: كلا.

- إذن عدني.

- أعدك.

- بإمكانك الرحيل.

التزمتُ بهذا الوعد لا لأنني وفيٌّ أو راقَ لي ذلك، لكنه الوحيد من تحدثَ إلي ورآني، لقد تفحَّصني بنظرةِ استكشاف لا استحقار، لقد أطال النظرَ لي لا علي، لقد سامحني وتركني أرحل دونَ أن يعاقبني، دون أن يوبخني، دونَ أن ينصحني ويعظني، لقد عاملني كإنسانٍ أخطأ فقط، دخلَ ليسرقَ فقط، لم يتهمني بما نويتُ فعله، لقد حكمَ على واقعي لا داخلي، إنها المرةُ الأولى التي أقف بها أمام من يراني مخطئًا؛ كما يرى نفسه مخطئًا فلا يفاضل بين خطئي وخطئه، هذا الخائن بطلٌ قومي، قد تعتبرهُ خائنًا للأمةِ والأرض والعرض؛ قد يبدو تاجرًا للمبادئ والأخلاق لكنه بالنسبة لي أفضلُ مَن على هذه الأرض.

نسيتُ اسمه واسمهم واسم المقتول وقد أوردتُ اسمًا شبيهًا لصديقه المقتولِ احترامًا له، لوعدي... نسيته لكنني طالما رأيته على التلفاز، طالما سمعتُ اسمه وصوته على موجات الإذاعة.

- ولماذا برأيك أحبَّت فتاة مثلها رجلًا مُسنًّا كما وصفته لي؟

- لم أسألها هذا السؤال حقيقة. *نظر إليه باستخفاف حينها*.

- هو مشهورٌ إذن. *سأله الصحفي بخبث ليصطادَ معلومةً من على لسانه*.

- دعكَ من هذا، لكنني لطالما تمنيتُ أن أقول لعائلتي، للمارةِ، للناس: أقسمُ لكم أنني أعرفُ هذا الرجل، لقد تحدثتُ إليه يومًا، لقد رآني في منامهِ قبل أن يلتقي بي، لقد تحقق حلمُه يومَ أنقذ تلك المرأة مني، أعلمُ أنه ليس قديسًا، بل وأعلمُ أنه لو لم يرني في منامه كما زعم لكان من المحتمل أن يسلمني للبوليس، أو يتخذ إجراء آخرَ غير مسامحتي.

قد تكون صدقةً لم يفعل غيرها يومًا. قد يكون تصرفًا مزاجيًّا لا أكثر، قد يكون الأمرُ برمته صدفةً، لكنه فعلَ شيئًا لم يفعله أحدٌ ما قبله معي

- لكنك لم تتغير.

- ولن أتغير، كلُّ ما هناك أنني اقتنعتُ به، رأيته عظيمًا لأنه بدا كذلك.

وسط ذهولي وشعوري أنني حمقاء لعدم تذكر هذا الحوار وربطه بقصة حبيبة أصلان؛ إلا أنني لم أدرك تمامًا ما شعرَ به العجّان في حديثه عن هذا الرجل الذي لا أعرف إن كان هو أصلان فعلًا أو أن الأمر محض حادثةٍ متشابهة فقط ولا ربطَ بينهما، لكن الأسئلة دومًا ما تبين لنا الحقيقةَ كاملة إن تبعتها أجوبةٌ واضحة، أما أنصافُ الحقائق فمُتعِبة، متعبةٌ كما هو الانتظار أيضًا؛ وها قد دخلَنا في يومٍ آخر وما زالَ شاعري مُبحرًا في غيبوبته، غارقًا في السُباتِ المرضيِّ اللعين. أمَّا سيلا فلم تعد بَعدْ، قد لا تعود أبدًا كما قال دن وإحساسي بذلك.

هل قلت دن وإحساسي؟! نعم قلت هذا، وما بينهما يقبعُ حدسٌ ما في داخلي يقول لي بأن دن يخفي أشياء وأشياء، قد يكون على علم بسر اختفاء سيلا، أو على علم بالرابط بينها وبين أصلان. دن الذي تحولَّ تدريجيًّا لشخص غامضٍ ولطيف حين يتحدث عن الشيء الذي أريدُ معرفته من باب المصادفة؛ رغم أنه يعلم بأنني أتلهف لمعرفةِ أي شيءٍ بخصوص شاعري.

يعرفُ شيئًا ويخفيه عني... حدسي يقول هذا كلما تحدثنا، أو حاول التهرب من اسئلتي عن سيلا واختفائها، هو أيضًا اهتمَّ بفحوصات

أصلان وساعد الأطباء على إنعاشِ قلبه قبل دخوله في الغيبوبة بهمةٍ عالية.

للحظةٍ ما تجاهلتُ كلَّ شيءٍ، فكرتُ ألَّا أفكر فلم أعد أتذكر شيئًا مما دار في عقلي خلال هذه الأيام. لم أعد أقرأ ما أملاهُ عليَّ محذوفًا وموجودًا، كلُّ ما كنت أفعله هو أن ألتهمَ أي شيء، أجلس محرِّكةً فمي دون لذةٍ بما يحتويه.

- لديَّ خبرٌ لعلَّه لا يساوي فلسًا في الجزيرة اللعينة هذه، لكنه يساوي العالم بالنسبةِ لك.

- قل لي بربك بأنه استيقظَ من غيبوبته، قل هذه الجملةَ أرجوك. *قلتها متلهفةً سماعَ الإجابة وقد نهضتُ ممسكةً بكتفي دن.*

- نعم، استيقَظ.

كدتُ أطير، بل طرتُ فعلًا، احتضنتُ دن قبلته فرحةً، وركضتُ ضاحكةً نحو غرفته، لكنني لم أتمالك نفسي بعدها فاحتضنتهُ باكيةً واضعةً رأسي على صدره.

- إيَّاك أن تفعلَ ذلك بي مرةً أخرى. *شهقتُ باكيةً بحرارة.*

- طيبةٌ أنتِ يا ريمي الصغيرة.

- أنت أستاذي وقدوتي وشاعري الأول وصديقي الوحيد.

رحتُ أبكي على صدره بحرارة شاعرةً أنني لا أريد شيئًا من الدنيا إلا احتضانه.

تيقنت أنني لا أعرف حقيقةً ما أريد، لأن التناقض بين مشاعري يعتلج في مكانه، بينما أعتلج أنا مع جشعي الغبي الذي لا أتقنه.

عاد بريقُه يحتلني كأنني ألتقيه للمرة الأولى مجددًا، صحت به مكررةً جملةً قالها لي يومًا: "يضيعُ بريقُك إذا اقتربت، وتضيعُ أنتَ إذا ابتعدت"، قلتها ثم عقبت عليها: بريقُك لا يضيع أبدًا يا شاعري الكبير.

راح يبتسمُ ابتساماتٍ لم أشاهدها مسبقًا وكأنه اخترعها للتو، بيد أنه لم يتحدث، بل ظلَّ صامتًا كمن يحاول أن يصدق أنه على قيد الحياة بعد، لم يعد يغمض عينيه، وكأنه كره رؤية الظلام من جديد فأراد أن يمتع بصره بالنور فلا يكادُ يغمضهما؛ إلا إن نام لسويعات قليلة، حتى إذا أفاق راح يطلبُ مني أن أعيدَ على مسامعه ما كتبتهُ من رسائل، وكأنه سلا تمامًا أنه طالبني بحذفها.

راوغته فقلت له: ما رأيك أن أعد لك فنجان سكر وأضع عليه القهوة؟"، لكنه لم يفهم مقصدي فشرحت له مقصدي بتذكيره بقهوتهِ الحلوة بيد أني شعرتُ أنه لا يكترث لفلسفةِ قهوته، طالبًا مني أن أعيد ما كتبه كأن أمرَ قهوته لا يعنيه.

حاولتُ التملص خوفًا من اكتشافهِ تلاعبي وكذبي؛ لكنه لم ينزعج حينما عرف أنني لم أمسح كلمةً مما قاله لي.

لم يغضب ولا وبخني، بل لم يكترث للأمر من أساسه، أو في الحقيقة هو لم يعد يكترث لشيءٍ مذ أفاق من غيبوبته إلا بالسؤال عن أحوال الجزيرة وما يتناقله المرضى والعاملون في المشفى عنه، لقد تغيَّر بالكامل حتى شعرتُ أن الذي يتمدد في سريره أمامي مريضًا تحوَّل فجأة لشخصٍ آخر، شخصٍ لا يشبهُ شاعري إلا بصوته ونظرة عينيه، من الممكن وصفه أنه تحولَّ لرجل سخيف يهذي بأي شيءٍ بعيد عمَّا كان عليه سابقًا.

قرأت له جميع ما أملاه علي ثلاث مرات فضحك عند ذكري للقهوة تحديدًا قائلًا: "تبًا للقهوة والسكر"، قبل أن يصمت ليومين مجددا، حاولت بعدها أن أتحدث إليه، وأسأله عن أي شيءٍ بغية أن يتحدث إلي فقلت له:

- هل ستبقى صامتًا؟ هل مللت من ريمك يا أستاذي؟

- مللت المرض فقط.

- اكسره بالحديث إذن لا السكوت، ألستَ شاعري الذي يقاوم المرض بالأدب؟

- {قل لها: لا، لستُ كذلك، قل لها لستُ أستاذكِ، ولا قدوتكِ، ولا شاعركِ، قل لها: بأنكَ نسخةٌ مزورة منه لا أكثر، قل لها: بأنك تمامًا كطقمِ الماس الذي قلَّده الجواهري يومًا لـ أصلان فلم تميزه العيون بعد ذلك؛ لأنها أرادت أن ترى ما أراده لها بأن تراه، قل لها: بأن صوتَك فقط مَن يشبهه؛ وأن الانفجارَ الذي تعرضتما له سويًا في بنغازي قاربَ بينكما دون أن تدري، بعد أن قاربَت بينكم المسافات البعيدة قبل سنواتٍ عديدة مِن ذاك الانفجار، قل لها الحقيقة، أو اصمت مرةً أخرى حتى يحضرك الموت لتعلمَ هي حقيقتَك بعدها، لن تعلم، وأنت تعلم بأنها لن تعلم. فهم يعلمون من أنت أكثر منك ومنها، منها لأنها تريد أن تكون شاعرها مهما أثبتت الحقيقة أنك لست هو... لن يكترثوا لسجينٍ خدعَ ممرضتَه مُوهمًا إياها بأنه شاعر معروف. أنتَ أو غيرك عمومًا لا تساوي في الحرب إلا ثمن رصاصة أو حقنةٍ قاتلة لا غير، ثم أنَّها تريد منك أن تكون شاعرها كي تحصل على ما أرادته منك... هذا ما يروق لك بحد ذاته، لقد خَدعت أصلان باحتفاظها بنصوصه كي تتاجر به، هذا ما يشجِّعكَ الآن أن تتقمصَ دوره بالكامل، بل وتتمنى أن تموتَ هنا ضمنَ فلسفات الموتِ على هذه الجزيرة

والتي أبسطها: أن لا كرامةَ للإنسانِ فيها سواء كان فوقَها أو تحتَها، لكنك إن فعلتَ ومتَّ وحالفك الحظ، فستُدفن في مكانٍ بعيدٍ عن جذورك اللعينة حيث لا عينَ تطعنك باتهاماتها المجانية، ولا لسانَ يجلدك بنميمةٍ عارية، ستموت وتدفن كأنتَ في حقيقتك وكأصلان فوقَ شاهدِ القبرِ الذي سيصبحُ مزارًا لعشاقه يومًا إن حالفك الحظ، فقد تعودُ ريم للوطن لتنشرَ كلَّ ما قلتَه لها عن أصلان، سيصدقها الجميع حتى أقربهم إليه، لأن أحدا لا يعرفُ ما تعرفُهُ عنه أنت، لا أحد سمعَ منه ما قاله لك دون غيرك، لا أحد يحفظ حياته بأدق تفاصيلها سواك أنت، لا أحد قرأ سيرته الضائعة قبل الانفجار سواك أنت، أنت تحديدًا، قد ينقلون جثمانك أو رفاتك بعدها للوطن بعد انتهاء الحرب، لا يهم، لن يتأكدوا من شيءٍ لأن رسائلك من دلَّت عليك، قد يبنون مزارًا ضخمًا حينها، لا أحدَ سيعرفُ من أنتَ سواك.

هم يبحثون عن نهايةٍ فقط لمسيرةِ شاعرٍ التهمته الحربُ، فلم يعلم أحدٌ مصيره، سيتلقفون خبر وفاته لأنهم بانتظارِ هذا الخبر، كن أنت النهايةَ والخبر، كنهُ ميتًا بعد أن عجزت طوال عمرك أن تكون سواك، كن كبيرًا مرةً بعد أن عشت صغيرًا في كل شيء.

سيترحمون عليكَ، سيقرؤون الفاتحةَ بعيونٍ خاشعةٍ أمام قبرك، فلن تهتم حينها إن كانت الفاتحة قاصدةً اسمكَ أو اسمَه، على روحهِ أم روحك، المهم أنها أمام قبرك، قبرك الذي تسكنه أنت لا أصلان، من حقك أن تُحترم مرةً واحدة فلتكن مِن بعدِ موتك، لا يهم.

عشتَ هاربًا من ماضيك، من العجّان من جدِّك، من نفسك، من العيون التي لاحقتك صغيرًا ثم شابًّا لذنبٍ لم تقترفه، لقد تمنيتَ طوالَ حياتك أن تحظى بالاحترام، هربتَ من جذورك العارية من

أجلِ هذا، غيَّرت اسمك واسم عائلتك من أجل هذا، هجرتَ وطنكَ من أجلِ هذا، لكن ماضيكَ راحَ يلاحقك من أرضٍ لأرض دون أن تعلمَ أنه مَن جاءك بثوبِ الحاضر مُخادعًا إياك، لكن دماءَ أبيكَ اشتعلت مراتٍ ومراتٍ تحتِ نيرِ الجنس، وسطوةِ المال.

ودَّعتَ العجّان كي لا تحيا حياتَه، وخشيةَ أن تنقلَ بؤسَه وعاره لأولادك الذين لم تنجبهم. قلتَ مرارًا: "على هذه العائلةِ أن تتبخر بالكاملِ من الأرض بأي شكلٍّ من الأشكال". راودتكَ فكرةُ القتل يافعًا فتعجَّبت من نفسك، كيف لك أن تقتلَ والديك وعمتك وجميع من ينتمون لعائلة العجّان لتمحو تاريخَك، وتعودَ من بعدهم فردًا صالحًا؟، كلا، عليك فقط أن ترحلَ بعيدًا، عليكَ أن تحيا في مكانٍ لا يعرُفك فيه أحد، انتسب لغيره فهذا يكفي. العجّان لم يقتُل، فعلَ كلَّ شيءٍ إلا هذا، فعلَ الموبقات جميعها إلا هذا فلا تحمِّله وزرَ جيناته أبدًا، لا يعقل ألّا ترثَ منها الشرَّ الكامل من اغتصاب ونهبٍ وفساد، وترثَ منه ما لم يفعله... أنتَ قاتلٌ بطبعك فقط.

لم يقتلُ والدُك أحدًا، كان مُجرمًا فاسدًا أنشأَ عصابةً عائليةً لا تتوانى عن فعلِ أي شيءٍ إلا القتل، كان ديوثًا زنديقًا دفعَ بأمِّكَ وأختك لجني المال عبرَ أجسادهما لكنه لم يقتل أحدًا، أنتَ من فعلتَ، أنتَ مَن رضيتَ لماضيكَ أن يستأنفَ نشاطه معك، ثم عدتَ منه تائبًا فلم تستطع معايشةَ حاضرٍ لم تتقنهُ أبدًا، فما إن قررتَ - مدركًا أن التوبةَ والإنابةَ أصعبُ من الهروب ذاته- العودةَ لماضيكَ حتى سبقتك الصدفةُ بخطوةٍ واحدة يومَ رمَت بين أحضانِ شهوتكِ سمراء جميلةً؛ لم تعلم بأنها أختك، لم تكن تعلمُ أنه من أنجب شهد تلك، لم تغتصب إحداهن يومًا، ولم تمارس الجنس تحتَ تأثير الخوفِ والابتزاز كما فعل والدُك وإخوتك، لكنك مارسته بالمال والخداع، لقد استغليتَ الكثيراتِ لظروفهن الصعبة، وكنتَ على

وشك ممارسة الاستغلالِ والجنس مع أختك؛ لتعيدَ مرةً أخرى لهذه العائلةِ الخطأ والعارَ الذي هربت ووالدك منهما طوال حياتكما... جدُّك فعلها متقصدًا فحرثَ أرضه بفأسهِ لكنك كنتَ على وشكِ أن تفعلها حينَ ظننتَ أن كلَّ أرضٍ من حقك، فلا فرق لديك بين من يغتصبُ الأرضَ، وبين من يمتلكها بحرِّ ماله، وبين من يستغل صاحبها فيبتاعها بالحيلةِ، والمال، والمقايضة، هذا أنتَ وهذه حقيقتك مهما بدوتَ مختلفًا.

بماذا تختلف عن والدِك وإخوتك؟ أنت تشبههم وتنتمي لهم بكلِّ ما فيك، لم تستطع أن تكون ك ميمون فوحده من عايشَ واقعه رافضًا الانصياع له، ووحده من رفضَ الهروبَ بحثًا عن واقعٍ سيجده مشابهًا لواقعه، ووحده من تقبَّل فكرةَ الوالدين السيِّئَين دون أن يفكرَ بحذفهما من ذاكرته، ووحده من قبل العقاب على ذنوبٍ لم يقترفها بصدرٍ رحب. ميمون أشجعُ وأصدق منك، كانَ مُبتسمًا في القفص، كانَ في المكانِ الذي تستحقهُ أنت، بينما جلستَ في قاعةِ المحكمةِ حيث كان عليه أن يكونَ مكانك، لم يشِ بوالديه كما فعلت، لم يتنكر لهما كما فعلت، لم يختبئ من عيونِ والده أثناء بحثه عنه موجوعًا كما فعلتَ أنت، لقد ماتَ العجّان آملًا أن يراك، لقد ذاقَ مرارةَ فراقك مذ رحلت فلم ترحم عشقه لك، كنتَ وحيدَه وصديقَه يوم فارقته، فلمَّا فعلت ذهبَ مُنتقمًا منك عبرَ أبناء وبنات الآخرين، أنتَ من دفعه للشر أكثر، من دفعه للسوءِ أكثر يومَ خذلته، سيما وقد أراد أن يرى حبَّه في عينيك، أراد أن يرى أبوَّته في عينيك، أن يرى تقديرَه واحترامَه في عينيك، لكنك لم تفعل.

حرَمه الناسُ من نظرة حب، وعطفٍ، واحترام طوالَ حياتهِ فبخلتَ عليه بها أيضًا، وكأنك مَن ستقيمُ العدلَ بعد غيابه في القلوب، كان

عليك أن تفعل، كان عليك أن تمنَحه ما تفقده فوحدك من كان سيقدم له ذلك، لقد رحلتَ عنه خاذلًا إياه فانتقم لنفسه منك عبر الآخرين، انتقمَ منك من خلالِ مَن جاءَ بعدكَ من إخوتك، كان لصًّا، لم تكن تعلمُ ذلك حينها، كان لصًّا فقط بمسمى عتَّال فرحتَ تعاقبه على ذنبِ والدهِ فاعترفَ لك بذنبهِ ثائرًا لنفسهِ فعاقبتَه برحيلك حينها، دافعًا إياهُ ليعاقبَ نفسه والآخرين عقابًا لك، أو عقابًا له، كان لصًّا، ولو بقيتَ لظلَّ لصًّا لا أكثر، فرحلتَ ليتحولَ لمغتصبٍ، وديوثٍ، وعاهر. كان لصًّا قميئًا يحملُ عارًا واحدًا فرحلتَ وخذلته ليتحوَّلَ لقائد عصابةٍ حاملًا ألفَ عارٍ وعار.

لقدَ ظُلمَ من أبيه ومنِك، من أبيه وابنه، فكلانا من حمَّله ذنبًا لم يقم به، وحدك من كان باستطاعته إيقافه عن لصوصيته لأنه أحبَّك، لو بقيتَ لمنعته عن كلِّ شيء؛ ولتعايشتما مع عاركما سويًّا. كنتَ أنانيًّا فقط مدَّعيًا الظلمَ المجتمعي متخذًا منه ذريعَتك للهروب ضاربًا بعرضِ الأنانية حبَّه وتعلقه فيك، تركتهُ يواجه الظلمَ والكراهيةَ منبوذًا وحده، أردتَ أن تكونَ مُختلفًا عنه فحذفته من حياتك متجاهلًا أنه والدك، وها أنتَ الآن تتساءل: ما الفائدة من احترام الكونِ لك أجمع طالما أنك ابن أبيك؟ طالما أنهم يحترمونَ الشخص الذي خدعتَهم به لا شخصك الحقيقي؟ ميمون يعلمُ ذلك؛ لذا لم يرحل، لذا بقيَ في مكانهِ وزمانهِ غيرَ مكترثٍ لما يقال حولَه، وله، أما أنتَ فرحلتَ عنكَ كي يراكَ الناسُ غيرَك فلم تحظَ بالذي بحثتَ عنه، وها أنتَ الآن وقد شارفتَ على خريفِ الستين الملموسِ، لا زلتَ رافضًا لك، لاسمكَ، لأصلكَ، وجذورك، مُتمنيًا الموتَ لتحظى باسم آخر، وقبرٍ يحجُّ له الناس من أصقاعِ الدنيا لتشعرَ ميتًا بما لم تشعر به في حياتك}.

- أستاذي... أستاذي...

-...

- أستاذي، أصلان. *هزَّزته بوجل.*

- نعم. *وانتفضُ كأن مسًّا أصابه.*

- أعتذر... خفتُ من غيبوبةٍ جديدة.

- هل هي شهر حقا؟

- وخمسُ ساعات.

- لم يحن الوقتُ بعد.

- لا خيار أمامي. *قلتها ضاحكة.* ***{سيصمت الآن، أعرفهُ جيدًا، سيغمضُ عينيه راحلًا عن المكان كيلا يتحدث، لا تتركيه يفعل هذا بكِ، اصمتي ليتحدث دون أن تُشعريه بلهفتكِ وفضولك لما سيقول، حاولي أن تهدئي فقط، لقد عادَ من الغيبوبة بسلام، المهم أنه بخير، ستعلمين كلَّ شيءٍ حينما يشاء أن يخبرك به}***.

- أظنُّكِ تحدثين نفسكَ وتحثينها على الصبر.

- كلُّ ما أريده فقط أن تكون بخير.

هي أيام ثلاثة بعد تحسُّن حالته قبل أن يدفعني الفضول لسؤاله عن سيلا وقد أحجم عن الكتابةِ بالكامل، رحتُ أرجوه أن يتحدث عنها وعن علاقته بها، سيما بعد أن غادرت المشفى، وقالت لي ما قالت. وبعد صمت ليس بالقصير قال لي:

- سيلا زميلتك هنا هي حبيبتي التي قابلتها في مشفى الوطن بعد أن تعرضتُ لرصاصةِ أمسية بيت المعارف، كانت حينها تحمل اسم ليزا وليس سيلا.

- حبيبتك؟!!

- نعم هي حبيبتي. ***{شعرتُ بالمتعةِ وأنا أتحدث إليها كأصلان فقررتُ أن أخبرها بما أعرفه عن علاقته بسيلا أو ليزا كي أصدمها بحقيقة شاعرها}***.

للحظةٍ دارت الأضواءُ حولي كبلهاء ترى كلَّ شيء بشكلٍ مقلوب، شعرتُ بارتجاجِ الغرفةِ وتداخل الألوان أمامي، من أينَ تأتي هذه الألوان في غرفةٍ بيضاء؟ صدمتني هذه الحقيقة التي لم تخطر لحظةً في خاطري. صدمت للحد الذي ابتسمتُ فيه ابتسامةً لم أستطع بعدها تحريرها وفكفكتها لإعادةِ فمي لمكانه. ***{ليست جميلة، كيف له أن يحبها؟ يا غبية ليس هذا وقت نقد جمالها وممارستك لغيرة النساء، بل هو التفكير بألف سؤالٍ وحادثةٍ غريبة، كيف استطاعت أن تخفي حقيقتها عنكِ؟ بل كيف استطاعت أن تتظاهرَ بعدمِ معرفتها به؟ ملامحه تغيرت بالتأكيد لكنك تعرَّفت عليه فهل تأخَّرت هي بمعرفةِ ذلك؟ حبيبته أقدرُ على معرفته منكِ، لا يعقل ألّا تتعرف عليه من صوته، لقد سمَلت عيني باف من أجله، لقد نعتته بالساحرِ وأشاعت ذلك لحمايته، ثم تابعت حالته عن كثب لأنها تحبه، لقد أوهمتك بكراهيتها له كي تصرفَ نظرك عن حبها له، لكنها غادرت دون عودة، هل طلبَ منها ذلك؟ اسأليه، دعيه يخبرك عن كلِّ شيء، لا تسمحي له بالهروب، هدديه بالقتلِ إن حاول التملص، إن لم تفعلي ستصابين بالجنون... كلا هو يهذي لا أكثر، لا تصدقي خزعبلاته}***.

- سيلا أو ليزا هي الممرضة التي عشقتَها في الوطن؟ ***والدهشة تفرضُ نفسها وتتخلل حروفي رغما عني قبل ملامحي.***

- نعم، وهي تلك الممرضة التي تزوجها صديقي سمير.

- قلتَ لي بأنها جاسوسة يهودية، لكن سيلا سنبارية. ***غير مصدقة أو حائرة فيما أسمعه.***

- كلا هي يهودية، عَمِلت هنا عمَلَها في الوطن لا أكثر.

- هل طلبتَ منها الرحيل؟

- كلا، هي أرادت شيئًا لم تجده فقط.

- هل تحبها؟ ألا زلت تحبها.

-....

حمقاء أنتِ، ها قد صمتَ كعادته، الآن أدركتُ سبب تعلقِ سيلا بالشعر، لطالما طلَبت مني أن أسمعها أشعاره تحديدًا، حين مرَّ للمرةِ الأولى من خلفنا كنت أرددُ شعره وأترجمه للسنبارية، قلتُ أثناء مروره دون أن أدري بمسيرهِ خلفي:

"يا عازفًا جمهورهُ الغيماتُ

والظبياتُ

واللحنُ الحجازيُّ القديم"

توقفَ كما قال لي دن للحظةٍ ثم سارَ ببطء إلى قسمِ الدخول، وقَفَت بجانبي متفحصةً له، راحت تعيدُ فحوصاته فجأةً بإصرارٍ عجيب بحثًا عن شيءٍ لا أعرفه، ثم رحلت تاركةً كلَّ شيءٍ خلفها، لأنها الوحيدةُ التي تملكُ قرارَ البقاءِ والرحيل، قرارَ العشقِ والهجر، قرارَ القتل والعفو، أما أنا فلا خيارَ أمامي سوى البقاء هنا وسماعهِ، ثم انتظارِ لحظةِ الرجوعِ للوطنِ برسائلَ وكتاباتٍ أخيرةٍ لشاعرٍ لفظَه البحر للسجن مريضًا؛ فنقله للمشفى كي يموتَ نكرةً في جزيرةِ لا تعرف قيمته... أعلمُ أنه سيموتُ قريبًا ويدفنُ هنا،

سيموتُ وُيدفن هنا بينما أعودُ بعدها للوطن مُقدمةً ما أملكه من تسجيلاتٍ ورسائل وكتاباتٍ لذويهِ تزامنًا مع إحدى دور النشر المعروفة، ***{لكن لا يعقل لمثلهِ أن يحبَّ صهيونية! سأجن أنا على ما يبدو}***.

كلا لن أجنَّ، عليَّ فقط أن أفكر بمنطقية بغض النظر عن أي شيء فهو سيحظى بعدها ميتًا بالاهتمام الذي استحقه في حياته، وسأحظى بالتعويض عن حياتي بالكامل، لعلَّ عمرَه الكبير أودى بجزءٍ من عقله، حيث إني شككتُ كثيرًا بخرفهِ خاصةً بعد هذه الغيبوبة الأخيرة، وقد راح يخلط بين الكثير من الأشياء التي قالها عن حياته بطريقةٍ تجعلك تُسلم بأنه فقد عقله بالكامل، أو أسقطت قلاعه جيوش الزهايمر.

أحتفظُ بالكثيرِ من النصوص الركيكةِ التي أملاها علي، والتي لو لم يُملِها عليَّ شخصيًّا لما صدقت بأنه مَن كتبها. المرض، والحرب، والكبر فعلَت الكثير بذاكرته، سيما حين يستحضرُ بصعوبةٍ بعضَ ماضيه الغريب؛ واضعًا اللومَ على القلمِ الذي لا يصدق بأنه ليس معروفًا قائلًا: كيف يمكنني إقناعك بأنني أصلان؟

لكنني لم أعد تلك البريئة التي جاءت إلى هنا هربًا من عالمِها وبحثًا عن نفسها، أدرك أنني تغيرتُ بالكامل وتشبثت روحي بالمال بشكلٍ غريب، ورغمَ ذلك فلم أتمنَ لشاعري الموت، دعوتُ الله أن يشفيه بقلبٍ صادق، تضرعتُ له ألّا يُبقيني وحيدة على هذه الجزيرة الدموية، لكنني لن أنكرَ بأنني تمنيتُ أيضًا أن أستمعَ له أكثر، وأن أكتبَ عنه أكثر، فلكلِّ صفحةٍ رقميةٍ وصوتيةٍ ثمنها الباهظ. ***{أنتِ جشعةٌ رقيقة}***.

لن أكترثَ لكذبهِ عليَّ بشأن سيلا فهي حياته الغريبة بأحداثها الغريبة، ولا شأن لي بمن أحَبَّ وكَرِه، عليَّ فقط أن أدوِّنَ ما يمليه

علي محتفظةً به، علي أن أحرضه على الكتابة أكثر وأكثر، فعشْقُ وطنيٍّ مثله لصهيونية خبر يساوي الملايين، لو كنت أعرف هذه المعلومة مسبقا لطلبت إليها صورتها كي أعود بها يومًا للوطن وأنشرها كي يتعرفوا على ملامحها، وحينها، حينما أعودُ للوطنِ سأمتلك المالَ الكثيرَ من راتبي الذي ادخرته طوالَ السنواتِ الست، ومن ريعِ كتاباته، سأنتقمُ لنفسي بعدها، سأجبرُ أحدهم على الزواجِ بي مقابل المال، سأستبدل الأزواجَ واحدًا تلو الآخر مقابل دراهمَ معدودات على رأسِ كلِّ سنة، سأشتري الحب والرغبةَ بالمال، سأشتري الفضيحةَ أيضًا، من الممكن أن أشتري ألسنةَ النمامات والواشيات جاعلةً إياهن يتحدثن عن عرضي المهدور، وشرفي الضائع بسبب خديعةِ أحدهم، سأعمل في مشفى الوطنِ ذاته وسأخرجُ صائحةً متهمةً أحدهم بأنه حاولَ اغتصابي؛ وسأسمع بعدها الهمسات الخافتة، وأرى نظراتِ الشك والغيبة، سأدفعُ لمن يتحدث أكثر، ومن يتهمني أكثر، ومن يخوض في عرضي أكثر، سأبحث عن ميمون.. عن ميمون تحديدًا، سأدفعُ له المالَ الوفير مقابل أن يغتصبني، سأجبره على ذلك مهما كلف الأمر، سأطالبه بأن يكرر تصرُّفَه القديم أمامي شريطةَ أن ينفذ تهديده بالكامل، سأشتري اليد الخشنة التي حلُمتُ يومًا بأنها تحسست نهديَّ، وجسدي، سأشتري الفمَ الذي رجوتُ بأن ينقضَّ على حلمتي الثائرتين فيغبُّ من شوقهما فألقمهما إياه كلَّما تعبَ مني.

سأقتلع هذه الساعة من مكانها وأتركها متوقفةً على الثانية عشرةَ كما أرادها الشاعر، لكنني لا أعرف سرَّ توقفها، لم يجبني عن فلسفته هذه رغم حديثه عن فلسفةِ الوقتِ كثيرًا، سأسأله فإن لم يجبني سأقول لهم، لكلِّ زوجٍ مدفوعِ الأجرِ مُسبقًا: وقوفها يعني أن هذا الوقت لن يمضي.

{أينَ سمعتِ نقيضَ هذه العبارة؟ أظنُّها نُقشت على خاتمِ ملكٍ طلبَ من أحد الحكماء نقشَ جملةٍ إن قرأها حزينًا أسعدته وسعيدًا أتعسته، فنَقشَ هذه العبارة: "هذا الوقت سوف يمضي"، لكنني سأتشبث به كي لا يفعلَ ويمضي}. حتى العجّان ردد هذه الجملة في السجنِ على مسامعِ النزلاء والصحفي بطريقته الخاصة.

لا زلتِ تذكرينَ رضا العجّان رغم تلكَ السنواتِ البعيدة. حدثَ معك ما هو أسوأ من لقائك به، وخديعته، وإخافتهم إياك، ثم القبض عليهم، لكنك تشردين دومًا بالخيالِ نحوه بغرابةٍ بالغة... لقد تابعتِ المحاكمة، وسيرتَه في الصحف، وأخباره بعد ذلك باهتمام شديد، لقد احتفظت بجميعِ اللقاءات والجمل التي صدرت منه، لقد تعاطفتِ معه رغمَ أنه روَّعَ واغتصبَ الكثيرات ممن لا ذنبَ لهن، وصافحته عند محاكمته بقلبٍ رقيقٍ عاطفٍ عليه. لا يستحق أن تفعلي ذلك، ولا أن تشعري نحوه بذلك، لعلَّه انتقمَ لك من الجميلاتِ المرغوباتِ بينما لا أحد يراك كذلك! لعلَّه انتقمَ لك من الرجال الذين نعتوك بالفيل! فلم يبالوا بأنوثتك المحترقة داخلك، لستُ أعلم ما الذي دفعني لهذا، لكنني لم أكرهه رغم كلِّ شيء.

تعرَّضَ في السجنِ للطعنِ مِن أحد النزلاء، قيلَ: بأنه ثَأر لعرضه المهدورِ قديمًا، وقيل: بل هو صاحبُ سوابقٍ أراد أن يضيفَ لتاريخه الإجرامي هذه الطعنة لتمنحه الشهرةَ بين أفراد ذاك المجتمع سيما أن العجّان بدا الرقم الصعبَ والمجرم الأول في سجلَّات الإجرام، ثم قِيلَ أخيرًا: بل هي مشاجرةٌ عابرة في باحةِ السجن بعد أن استهان أحدهم بالمسنِّ الأشيب لينشبَ شجارٌ بين كفين عاريتين ومطوى؛ فينتصرُ فيها رضا وقد طُعِن غدرًا مُترفِّعًا عن قتله... الصحفي من ذكر الحادثةَ والملابسات، مُشيرًا أن النزلاء ورجال الأمن تمنوا لو أنه قتلَ ذاك الرجل حينها لكنه لم

يفعل، تابعتُ بشغفٍ هذه الحادثة والحوار الذي أُجريَ معه لكنني فعلتُ ما لم أتوقعه يومَ زرته في المشفى.

تحايلتُ للوصولِ إليه، ثم عبرَ إقناعِ زميلٍ قديم ورشوةٍ صغيرة وجدتني أمامه وقد قُيِّدَ بالسرير النائم عليه رغمَ طعنته...

- هناك مثلٌ يقول: "القط يحبُّ خانقَه"، قيلَ هذا فيك أنتِ تحديدًا.

- كلُّ ما هناك أنني لا أكرهك، أتعاطف معك فقط.

- ضحيةٌ مسالمة، لكنني لا أستحق هذا عموما.

- لماذا لم تقتله؟

- من؟

- طاعنك؟

- هل كان علي أن أفعل؟

- لا أعرف، لكنه طَعنك.

- ليست المرة الأولى، لطالما أُصبت بمثلِها في الشجاراتِ والسرقات.

- لكنه أرادَ قتلك، تقصَّدَ ذلك.

- كثيرون أرادوا ذلك وفشلوا، واحدٌ منهم مَن نجحَ بقتلي لكن بطريقةٍ مختلفة.

- قتلَ داخلك؟

- قتلَ الجزءَ اليسيرَ الطيبَ مني، محا الأبيضَ وسطَ سوادي، قصفَ الغصنَ الأخضرَ في صحرائي.

- تتحدث كالأدباء، نصفُك مجرمٌ ونصفُك الآخرُ فيلسوفٌ رغمَ.....

سكتُّ فلم أُكمل.

- رغم جهلي وأمِّيتي.

- نعم، هو ذا.

- عندما كان سيف صغيرًا طالبني بأن أساعده بالدراسة أسوةً بآباءِ أقرانه، لم أمتلك حينها شيئًا. لم أعرف عن القراءة إلا شكلها فأنا لصٌّ ولست كآبائهم، لكنني بدأتُ معه وانتهيتُ بعد أن رحل، كان يميلُ للأدبِ بشكلٍ عام فرحتُ أستمعُ له وأردد ما يردده فقط، ثم التقيتُ مصادفةً بشخصٍ مشهور، تركَ أثرًا في حياتي فرحت أستمعُ له كلما جاءَ مصادفةً على التلفازِ أو الإذاعةِ أو المواقعِ الإلكترونية.

- كنتَ تبحث عنه في المحكمة لكنه لم يحضر.

- كلا، هو أكبرُ من أن يتذكرني ويحضرَ مثل هذه المحاكمة، لقد التقيته مصادفةً عابرةً.

- قصدتُ سيفًا.

- آه، بحثتُ عنه، لم يحضر، أو حضرَ ولم أره، طالما لم يرد لي أن أراه فلن أراه ولن أسعى لذلك.

- قتلكَ يوم وشى بك.

- كلا، يومَ رحل فقط، يومَ نظرَ لي كما نظر الناس له، أستحقُ تلك النظرةَ لكن ليسَ منه، أستحقها منكِ، من الناس، من بعضهمِ تحديدًا لكن ليس منه.

- وأنتَ ألم تقتلهُ أيضًا؟

- قتلتُ الكثيرَ من الداخل، لكنني لم أقتله.

- ألهذا لم تقتل حقيقةً لا مجازًا؟

- هل كان علي أن أفعل؟

- هو سؤال فقط.

- لستُ إلها لأحددَ آجالَ الناس، من يحيا منهم ومن يموت، لم أرغب أن أكونَ أداةً للشيطانِ تابعًا له بكلِّ ما يُدخِلُ عليه السرور، استمراءُ الشيءِ وتكرارهُ من النفسِ لا الشيطان، فالنفسُ التي تفعلُ المعصيةَ بشكلٍ دوري تفعلها من ذاتها، لأنها أحبَّت وراقت لها المعصيةَ فاستحلتها، فلم تعد تبالي بحلالها وحرامها، لكن الفعلَ الذي تتبعهُ التوبةَ ثم المعصيةَ ثم التوبةَ فهذا من تأثيرِ الشيطان لا النفس... لطالما شجَّعَتنِي على القتل، كانت المرةُ الأولى بأخي السِفاحِي، رأيتني أذبحُه كما النعجة، رأيتني أواريه حُفرةً في مكانٍ وعرٍ تحت صوتِ الكلاب الضالة التي قد تنبش الأرض وتلتهمه، لكنني إذ هممتُ مُمسكًا مُديتي هتفَ بي هاتفٌ: من أنت لتقررَ بقاءه من غيابه؟ "أنا أحيي وأميت"، مسَّني هذا الحديث، فوضعته في مهد العقيمين بدل قتله.

- هذه الآية. *قلتها دون وعي.*

- نعم أعتقد أنها كذلك، مستني هذه الآية كتيارٍ كهربائي نفضَ أطرافي لتقع المديةَ من يدي، لستَ إلهًا لتقطعَ أنفاسَه أو تتركها ممارسةً حقَّها بالعدِّ التنازلي نحوَ منطقةِ الصفر، غلبتُ إبليسَ ذاته حينها مُدركًا أنه استغربَ، بل صُعِقَ، بل دُهشَ كما لم يسبق له مني، لقد خيَّبتُ مساعيه، وأجهضتُ خططهُ بالكامل، لقد خذلته في لحظةِ الحقيقةِ كما خذلني سيف يوم رحيله.

- ألا يعادلُ ما فعلتَ القتل؟

- القتلُ أن تحكمَ على أحدهم ألّا يعود مُجددًا، أمَّا دونَ ذلك فالخيار للضحيةِ أن ينتقمَ منك أو يتناسى ما حدث له.

- لم ينتقم أحدٌ منك.

- لا بدَّ من محكمةٍ عادلة أقفُ فيها وغريمي ليقتصَ لنفسه، فلكلِّ بدايةٍ نهاية ولا بد للطريقِ من آخِر، لا يعقل أن أُتركَ دون نهايةٍ حقيقيةٍ، يعلمُ فيها الجاني والمجني عليه ما لهما وما عليهما، " قد نَفِرُّ من محكمةِ العدلِ الدنيا لكننا لن نفِرَّ حتمًا من محكمة العدل العليا". لا يُعقل بتاتًا أن أنجو من جرائمي تلك، فعلتُها وأعلم ذلك، أعلمُ أنني سأحاسب على ما فعلت. مَن أوجدَ الشخوصَ، والظروفَ، والأمكنةَ، والأزمنةَ، أجزمُ أنه قد أوجدَ الجزاء والقصاص لكلِّ ما حدثَ وسيحدث في ملكوته، لقد تعجَّلتُ بقصاصي من الآخرين كما تعجَّل غيري فَظَلَمْنَا الآخرين قبل أنفسِنا؛ وبما أنها -أي النفسُ- أمارةٌ بالسوء فبمجردِ أن لِنَّا لها امتطتنا مُسابقةً المعاصي على ظهورنا لاهثين دون أن تتوقف ودون أن نقول لها: كفى

- نادمٌ أنت؟ *قلتها وقد أجهشت بالبكاء رغمًا عني.*

- لطالما ندمت، لكنني لم أتوقف، لم أستطع التوقف، حاولتُ كثيرًا لكنني لم أستطع، كلِّي مَن راح يدفعني ويمنعني أن أتوقف. بات الاغتصاب والترويع ديدنًا ممتعًا أكثر من معاقرة الخمر، والمخدرات، وإدمانهما، هي حاجتك لأن تكونَ صاحبَ الكلمة، حاجتك أن تكون الأقوى ليتذلل لك الضحايا مقبِّلينَ يدك وقدمك؛ للصفحِ عنهم دون ذنبٍ اقترفوه، حاجتك أن تشعرَ بقيمتك، واحترامك المفروض رهبًا كي تنتشي نفسك بالصراخِ، والألمِ،

والعذاب الذي يزيحُ عن كاهلك عذابات الماضي... قد يصدمُ مذاقُ الدمِ متذوقه صدفةً لكن أحدهم لن يرتوي تحتَ دهشتك إلا من قدحِ دماءٍ مركَّز.

- لقد ظلمتَ من لم يظلمْك ولم يتسبب بأذى لك.

- ستقتصّون مني؛ سنقف يومًا بين يدي الله، سأعترفُ بكل ما فعلت، لكنني سأتحدث أيضًا عن أولئك الذين دفعوني لهذا دفعًا، سأخبره عن ذلك المولد الصوفي الذي أقيمَ يومًا في أزقتنا احتفالًا بالمولد النبوي، سأخبره عن رضا ابن الثانية عشرة حينَ قفزَ من نافذته فرِحًا راكضًا باتجاهِ صوتِ حلقةِ الذكر، والصناجاتِ، والأناشيد... سأردد ما سمعته أمامَ العظيمِ فما زال يتردد في أذني حتى هذه اللحظة ما أنشدوه: "قل يا عظيم أنت العظيم، قد همَّنا همٌّ عظيم، وكلُّ همٍّ همَّنا، يهونُ باسمكِ، باسمك يا عظيم" سأقول له: بأني قد طُردت لأنني رضا ابن العجّان، لأنني ابن السكيرِ، العربيد المتسول، والفقير أيضًا.

طُردت لأن أمي متسولة قبيحة، وفقيرة أيضًا، طرُدت وحدي بينما دخل الجميع لمولد نبيكَ، وكأن النبيَّ لهم فقط، كأنك أنت يا الله لهم فقط، كأن العظيمَ والهمَّ الذي همَّهم، كأنَّ اسمك الذي يهون به أيَّ شيءٍ حسبَ ما أنشدوه لهم فقط، كأنك يا الله حكرًا على أبناء المعلمين، والتجارِ، والموظفينَ، ورجال الدين، وسائقي الباصات، والأثرياء، والدراويش؛ ولا نصيبَ لأبناء المتسولين، واللصوصِ، والزناةِ، والقبيحات الفقيرات بك... سأقفُ بين يديهِ شاكيًا أتقاهم، وأرذلهم، أطيبهم وأحقرهم، فقد رحبُّوا بالجميع، وأدخلوا الجميعَ مقدمينَ لهم الحلوى والهريسةَ مجانًا بينما شممت أنا الرائحة. التهموها وحظيتُ أنا فقط بالرائحة... رأيتها تطحن بين أسنانهم الصفراء، بينما رأيتها تتساقط على الثيابِ النظيفةِ الأنيقةِ لأقراني،

ما الضيرُ لو تساقطت أطرافها على ثيابي الوسخة؟ هذه الفتافيت تؤول للنمل سواء تساقطت من يدٍ نظيفةٍ أو قذرة. سأتضرع له قائلًا: أعدنِي طفلًا، أعد ذاك المولد ودعهم يقدمون لي قطعة حلوى فقط ثم ليكن ما يكن، الجحيم، العذاب، العقاب، حتى لو غُفِرَ لي كأشقى أهل الأرض، سأدعوه متضرعًا، يا إلهي فقط أريد تناول قطعةِ الحلوى، فقط هذا ما أريده من عدلكِ وإحسانكَ، وكرمك، وعطائك اللامنتهي... لقد بقيتُ مطرودًا عن مولده وحدي، يدورون وأدور، يدروشون وأدروش، يذكرون وأذكر، ينشدون وأُنشِد، لقد بقيتُ مطرودًا كطاحونةِ الهواء حين دخلَ الجميع طاحنين حلواهم بأسنانهم بينما طحنتُ فراغي بمعدةٍ خاوية، وعدتُ حين ظلُّوا يذكرون إلهًا استحوذوا عليه، ونبيًا استأثروا به لأنفسهم مانعينَ إيّاي منكما. يا إلهي: كلُّ هذه الدنيا، كلُّها لا تساوي قطعةَ الحلوى تلك عندي.

ركلني والدي وصفعني حينها محذرًا: "لا تبكِ يا ابن العاهرة، هؤلاء مجانين ومعاتيه وظيفتهم في الحياةِ أن يولدوا ويموتوا فقط، فاشل ابن فاشلة أنت لا غير... ما لم تستطع الحصول عليه من التسول فاحصل عليه من السرقة يا بني"... مسحَ على رأسي بعطف، وسار بجانبي. "اذهب، وأرني مهارتك". كانت المرة الأولى التي أسرقُ بها شيئًا، ضُبطتُ متلبسًا فورَ قفزي عن السور، رُكِلتُ وشتمت ممَّن ضبطَني، ومن والدي مجددًا... رائحةُ القطرِ لتلكَ الحلوى ما زالت على يدي. ***حاولَ أن يشتمَّ يديه فأعاق القيدُ يسراه فاستعان باليمنى واشتمَّها بعمق.*** رحتُ أتذوق القطرَ مما علقَ على يدي من صندوقِ الحلوى. راحت تتلاشى أصواتُ الأناشيد، راحت تتلاشى أصواتُ الصناجات، راحت تتلاشى أصواتُ الذكر، والحلقاتِ، وصوت الحركات الرأسيةِ والجسدية ليس في تلك الليلةِ فقط؛ بل تلاشت طوالَ عمري بالكامل ولم تعد قط من حينها، شيء ما علِق

في ذاكرتي، شيءٌ وحيد لم يُراوح ذاكرتي منذ تلك الليلة، هي رائحة الحلوى الساخنة التي لم أتذوقها.

تلاشى كلُّ شيء إلا تلك الرائحة، ونسيت كلَّ شيءٍ إلا عبارةَ والدي: "ما لم تستطع الحصولَ عليه من التسول فاحصل عليه من السرقة يا بني". ولذا فقد حصلتُ على كلِّ شيءٍ من خلالها: المال والنساء والخمر والقمار، لكنني فشلتُ بسرقةِ شيءٍ واحد خلال مسيرتي الطويلة لطالما حاولتُ الحصول عليه رغم مهارتي وعبقريتي في عملي، فشلتُ بسرقةِ قلبِ ولدي سيف بينما نجحَ بما فشلتُ بهِ يومَ سرقَني، وقتَلني، ووشى بي.

-"**شربتُ** فلافلَ الإفطارْ

فلتصنعْ يداكِ الشاي

عسايَ نسيتُ أُخبركِ

بأنّ الشوقَ نَهْنَهني

كآهاتٍ بثغرِ الناي

لذاك الشايِ يا فدوى

لذاك الشاي

لقد ضيَّعتُ يا فدوى

بكاءَ الطفلِ في عيني

لعُمقِ بُكاي

نقاءَ الصوتِ من شفتي

لقُبحِ غُنايْ

جمالَ الكونِ في بصري

لضيقِ رُؤاي

سُكوني

طيبتي

أَلَقي

أكادُ بأنْ أكونَ أنا

لِلحظاتٍ أكونُ أنا

فأَلقاني أكونُ سواي

أعِدْ لي يا زمانَ القهرِ

ما ضيَّعتَ من عمري

أعد لي قلبيَ الأبيضْ

وأحلامي وفجرَ صبايْ

أريدُ الطفلَ، ذاك الطفلَ لا أكثرْ

أريدُ تسلسلَ الأيامِ

والإبحارَ في جهلي

أريدُ الحزنَ

بادِلْني بأحزاني

أريد الحزنَ أنْ يبدو

كحزنٍ دونَ أن أُقْهَرْ

أريدُ تناوُلَ الإفطارِ مع فدوى

وكوبَ الشاي

عسايَ نسيتُ أخبركِ

بأنّ الشوقَ نهنهني

كآهاتٍ بثغرِ الناي

لذاكَ الشايِ يا فدوى

لذاكَ الشاي"...

راحت تنشدُ القصيدةَ على مسامعي بصوتها الرقيق محرِّضةً إياي أن أتحدث، هي لا تعلمُ أن صمتي معها ما هو إلا تنصلٌ وقتي لأجمعَ أفكاري، وأستحضرَ معلوماتي، وأحاديثي، وذكرياتي السابقة مع أصلان... هذه خاتمةُ قصيدةٍ أحفظها شعرًا، وأسلوبًا، وتكنيكًا كما أحفظُ اسمي الرباعي بل اسميَّ الرباعيين: الحقيقي والمنتحل، أحدهما: ***سيف رضا بديع العجّان***. والآخر: ***معروف مشهور مرموق النقَّاد***، أنا من اخترتُ هذا الاسم يومَ أتلفتُ كلَّ وثائقي، واستصدرتُ وثائقَ جديدة كي تدفن في حبرها الاسم القديم.

والدي وأصلان فقط من عرفا الاسمين، مَن عرفا الحقيقة، ثم احتفظَ كل منهما بما عرفهَ متجاهلًا أهميته عندي.

خُلِقتُ عاشقًا للأدبِ الذي لم أتحلَ به بعد هروبي من الماضي السحيق، عملتُ موظفًا أثناء دراستي عند صقر، أغدقَ عليَّ حين لمسَ النبوغَ مني يافعًا، قبل أن أسافر هاربًا ثم أعودُ إليهِ لأجده قد قربني منه أكثرَ وحولني لمرافقٍ دائمٍ له، وجدتُ ما أصبو إليهِ مؤقتًا بعد هروب فاشلٍ دام طويًلا: المالَ، والاحترام، والنساء سيما أن أجملَهن وأصغرهن مَن سعت للتعرفِ إلي، والاقتران بي صوريًّا قبل اكتشافي أنها مدفوعةٌ لذلك من رئيسي صقر، لم تعترف هندُ يومًا بذلك لكنني أعلم حقيقتها بالقدر الذي عرَفَه أصلان عنها وعن خالتها نيران.

ومن خلال صقر تعرفتُ على ليزا وعشقتها كما عشقتني رغم أنها بقيت كإحدى عشيقاته.

مبلغٌ لم أحلم به يومًا عُرضَ علي إن قتلتُ أصلان أثناءَ دخولهِ شقةَ نيران ضمن خطةٍ حيكت له ولابنه.

- أنتَ زوجُها الآن، ستتصل به الفاضلة نيران. *مشيرًا إليها بابتسامةٍ قذرة.* لتقوده إلى هنا كفاعلةِ خير، سيدخلُ الشقةَ وقد سبقه ابنه إليها، ما عليكَ إلا الخروجَ من الغرفةِ تلك وإطلاق النارِ عليهما. *صمتَ قليلًا ثم كمن تذكر.* زوجٌ ثارت حميَّته بعد أن حاولَ الابنُ اغتصاب زوجته الجميلة. *قالها وقد طبعَ قبلةً على كلِّها بعنف.* فلما حضرَ الأبُ فجأةً أطلقَ النارَ عليكَ فأرديته قتيلًا هو الآخر، هو مشهد من فيلم قديم ومستهلك لكنه خطة سهلة ومنطقية.

- ولماذا لا أقتله قنصًا في مكان ما بهويةٍ مجهول؟

- لا، لا، أريدُ موتًا وفضيحة، لن نصنع منه بطلًا يحجُّ الناسُ إلى قبره، أصدقاؤنا انتبهوا لأخطائهم القديمة فلم يعودوا يصنعون أبطالا ملهمين للأجيال القادمة، يكفينا ***ناجي علي واحد وغسان كنفاني واحد،*** صدقني لن تسجنَ أكثر من عامٍ في أسوأ الأحوال، بعدها أنت معنا وفي جنتنا يا صديق.

أعرفُ هذا الشاعر لاهتمامي قديمًا بالأدب، كما أعرفُ أنني لم أقتل من قبل، وها أنا الآن أعرفُ أنني أمامَ مكيدةٍ دبرت لي، لا تقلُّ دهاءً عن مكيدةٍ حيكت له.

انتظرتُ في الغرفةِ الأقرب لمكانهِ في الصالةِ، أو في شقتنا أنا وهند بما أننا متزوجان صوريًّا مُطرقًا سمعي لصوته ، كان علي أن أقتحمَ الصالةَ لحظتها، لكنني لم أفعل، جلستُ مُشعلًا لفافةَ تبغي قبلَ أن يقتحمَ البوليس المكان. استغرقَ الأمرُ بضعَ دقائقَ ليضعوا القيودَ في يدي واضعين يدَهم على سلاحِ الجريمةِ التي لم تُرتكب؛ بينما هرب صقر من المكان بطريقةٍ عجيبة. طلبَ أصلان منهم وقد تأملته متعجبًا من جرأتهِ وخوضه هذا الفخ دونما سلاح أن يتحدث إلي، رفضتُ بادئ الأمرِ لكنه ابتسم بحنوٍّ غريب في وجهي.

- هل حقًا أنت زوجها؟

- زواجٌ صوريٌّ بهدفِ الإيقاعِ بك.

- لمَ لم تندفع وتطلق النار؟

- لم أقتل مِن قبل، ببساطة تلزمني جرأةُ القتلة، وقد يكون السبب أنني من محبي شعرك. ***قلت الجملة الأخيرة للسخرية فقط.***

- سيف العجّان!! ***قالها متفحصًا وثيقتي وقد تناولها من أحدهم رادًّا إياها لي.*** خذها، كم دفعوا لك لقتلي؟

- ما لم أحلمُ به.

- عدني.

- بماذا؟

- أن تنسى ما حدث هنا.

- في السجن قد أنسى اسمي الكريه هذا.

- لن تدخله، عدني فقط، أنتَ لم تكن موجودًا هنا، أنت الآن موجود في مكان آخر، تفهمني؟

- هل ستصدقني؟

- سأصدقك؟

- الوعدُ للشرفاء، ولستُ شريفًا لأفي بوعدي.

- كن معي إذن كذلك.

- ما الذي يدعوكَ لتفعلَ هذا؟

- لأنني أعرفك. ***قالها واقترب محدِّقًا بي.*** رأيتك من قبل.

- تعرفني؟! ورأيتني أيضًا؟ لم أجلس يومًا في أمسيةٍ شعريةٍ لك، بل أراك كاذبًا مُتاجرًا بالوطن لا غير. *لا أعرف سبب هذه الجملة التي تفوهت بها بيد أني كنتُ أسمعها أحيانا على التلفاز من بعض منتقديه ومعارضيه فقلتها .*

- قد أكون، لا يهم من أنا، وما هي حقيقتي، لكن عليك أن تعدني. *تحامل على نفسه كي لا يظهر لي أن كلماتي هذه جرحت أغوار قلبه .*

- سأعدك، لكن قل لي أين رأيتني؟ كيف لك أن تعرفني؟.

- في الحلم.

- الحلم. *ضحكتُ كما لم أضحك يومًا سيما وقد بدا جادًّا بما يقوله .*

- عدني فقط.

- هل رأيتَ "سبعَ بقراتٍ سمان يأكلهن سبعٌ عجاف وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخرَ يابسات"؟

غضبَ كما لم أرهُ بعد ذلك بهذا الغضب، صَفَعني، كلا، لكمني لكمةً كادت تودي بأنفي، رفعني من ياقتي، ثم حدَّقَ بي طويلًا.

- عدني لتذهب، أو سأذهب أنا بينما تذهب مع هؤلاء وسأحرص ألّا تعود من المكان الذي سيقودونك إليه. *أشار لرجال الشرطة.*

- وستصدقني؟ *قلتها خائفًا من لكمةٍ أخرى فحميتُ وجهي.*

- أعتذر عن تصرفي، عدني فقط. *قالها، وقد عاد الهدوء يخيم على ملامحه .*

وعدتُه وذهبت. دارَ في خلدي فورا بأنه من مجانين هذه الأرض، من أولئك الشعراء المجاذيب الذين يدَّعون بأن الجنَّ يُلقي في روعهم الشعرَ، لكنني وجدتُ نفسي خارجَ تلك المكيدة المجانية التي أوقعتُ نفسي بها لا لأقتله، بل لأعاقبَ نفسي بالسجنِ على نزعةِ تحتلني منذ هربتُ من ماضٍ متعب.

بعد شهرين على الأقل من هذه الحادثة وكِّلت بقتله مجددًا بتحريضٍ مالي من والدِ زوجتهِ عبر وسيطٍ لا يحفظ السر. قلت في نفسي: "هؤلاء لا يهتمون بأن يموتَ بطلًا أو عاهرًا، يريدونه ميتًا فقط. بل الجميع يريدُ قتل هذا الرجل، ويحاولون تصفيته بأي طريقةٍ كانت، فما الذنب الذي ارتكبه بحق هؤلاء الكارهين يا ترى؟" أجبت نفسي حينها: لعله الوطن.

ضغطت على الزناد، وقد صوبت فوهةَ البندقية نحو كتفه، لا لأنني لا أريد قتله، أو قصدت فقط إيذاءه وأخذ المكافأة، بل لأني كنتُ أحيا في منطقة الوسط في كلِّ شيء، منطقة الإجرام وعدم القتل، ومنطقةِ الإعجاب بشخصه وكراهيته في آن واحد، لم أكن قد قتلتُ قبلها ولا أطلقتُ النار على قلب حيٍّ رغم براعتي بقنص الأهداف الحيوانية المتحركة بالصيد. لكنني بعد قنصي لكتفه ونجاته مالت كفة الشر داخلي نحو القتل الحقيقي والإجرام الحقيقي؛ فقتلتُ بعدها رجلًا فإذ بي أكتشفُ وقد تضرَّج بدمائه قتيلًا أن القتيل امرأةٌ .. امرأة حسبتها رجلًا... امرأةً كي أندمَ طوال عمري البائس على هذا. ليتني لم أطلق النار وأقتل من أجل المال، كان يكفيني أن أكون سافلًا كأبي، أبي الذي رفض أن يكون قاتلًا، فهربتُ منه كي أتفوق عليهِ رغم احتقاري له.

أثارَ فضولي هذا الشاعر فرحتُ أقرأ عنه أكثر، وأسمع منه وعنه أيضًا، رحت أفتشُ في كلِّ شيءٍ يتعلقُ بهذا الشاعر الذي نقدني مبلغًا ضخمًا وعفا عني، وحلُمَ بي قبل أن يراني، لطالما قلتُ للآخرين بأنني أعرف هذا الشاعر، تفاخرتُ بأنني التقيته رغمَ أن أحدًا منهم لم يصدق، مع معزوفةِ سخريةٍ رافقت تكذيبهم لي.

حتى ذاك الوقت القريب من الحادثة كنتُ حاملًا وثيقتي الحقيقية باسم سيف، وعلى وشكِ تسلُّمِ وثيقتي المزورةِ باسم معروف في

ليلةٍ من ليالي أكتوبر الماطرة؛ إذ لمحتُ والدي العجّان وقد مرَّ من أمامي مسرعًا قبل أن ينعطفَ قاصدًا منطقةً قيد البناء والتمدد العمراني، سرت خلفَه ببطء خشيةَ أن يكتشفني، بدا سريعًا عالمًا بالمكان الذي يقصده، وما إن تيقنَّ، وقد التفَت يمنةً ويسرةً أن لا أحد يراه قفزَ كالقردِ، رغم سنِّه مِن على سورٍ عالٍ واختفى مباشرة... المنزلُ الذي تسللَ إليهِ شبهُ منعزل عن المنازل الأخرى تقبعُ أمامه باحةٌ صغيرة. يدُلُّكَ طابقاه وحجره الفاخر، وصنعته المعمارية عبر أقواسهِ وقرميده أن مالكه من ميسوري الدخل؛ أو من كبارات رجال الدولة المتقاعدين.

وقفتُ بعيدًا محاولًا حجب المطرِ، وأخيلةِ ضوئي الخفيتِ بغرفةِ عاملِ بناءٍ خلت منه؛ وقد ضربت الرياحُ والأمطارُ سقفها الصفيحي، منتظرًا خروجَ العجّان فقط. فضولي من دفعني لذلك، لم أره منذ زمنٍ بعيد، وها أنا أراه الآن ولم يزل يتمتعُ بلياقته القردية. ***{من المؤلمِ أن تكونَ شاهدًا على لصٍّ تسللَ لمنزلِ أحدهم بصفته والدك}***.

قلتُ هذه الجملةَ كزفرةٍ خرجت مني، لكنني لم أشعرُ إلا بنصفِ خروجها من أعماقي، إذ أحسستُ بفوهةٍ مسدسٍ أوقَفتهَا بعد أن وُجِّهت لرأسي.

- استدر ببطء.

- سأفعل، لا أحملُ سلاحًا. *قلتها واستدرت*.

- هذا أنت؟

- أنت؟

وتذكرت على الفور تلك اللكمة التي ناولني إياها يومًا، وقد ظننتُ أنه يطاردني للانتقام من نكثِ عهدي الأول ومحاولةِ قتله، فأردت أن أقسم له أنني كنت قادرًا على قتله لكنني بدل ذلك آذيته فقط، وإن لم أقم أنا بهذه المهمة لقام غيري بها بنجاح. فإصابته بالكتف أفضل من موته، أردت أن أقول هذا غير أن حيرته وتعجبه من رؤيتي منعاني عن هذا؛ وانتظرت قبل أن أقول ما قد لا يعرفه، مُستبعدًا أن أعترف بهذا له في قادم الأيام لكنني فعلتُ هذا في النهاية.

- تكلم. *قالها ونقرني بفوهة المسدس على رأسي.*

- بماذا أتكلم؟

- ما الذي تفعله هنا؟ *انتبهتُ في تلك اللحظة لحرسه الخاص وقد أحاطوا به.*

- أقسم لك بأنني كنتُ مارًّا من هنا مصادفةً فرأيت والدي، والدي لص عريق بالمناسبة، تسلل إلى هذا المنزل، دفعني الفضول فقط لرؤيته، أعتقد أن مشاهدتي للسرقة لا يُعتبر جُرمًا أستحق عليه القتل طالما أن السارق والدي!

- والدك؟

- أقسم أنه والدي، مع أنه لا يعلم أنني رأيته.

- هل تسلل لهذا المنزل؟ *قالها مشيرًا للمنزل ذاته.*

- نعم.

- هل تعرف مالك هذا المنزل؟

- كلا، أقسم أنني تبعته من ذاك الشارع *أشرتُ نحوه* إلى هنا فقفزَ عن السور ولم يخرج بعد.

- هل يحملُ سلاحًا؟

- لا أعلم، لكنه ورغم فسقه من المستحيل أن يفكر بقتلِ أحد.

- سأصدقك.

ثم قال لأحد حرسه: "إن مرَّت ساعتان ولم أخرج من هذا المنزل فما عليكَ إلا إبلاغ البوليس". سار قليلًا ثم التفت كمن تذكر شيئًا، وقال له مرة أخرى: "إن خرجَ والد هذا قبلي فاتركه وشأنه، ثم حاولْ ألَّا أراك مجددًا". *مشيرًا نحوي.*

- ستدخل؟! *ليس الغريب أن يدخل أو لماذا يريد الدخول، الغريب أنه يصدقني.*

لم يجبني بل أسرعَ متجهًا نحو المنزل وغاب هو الآخر.

بعد ساعةٍ ونصف خرج العجّان من باب المنزلِ حائرًا، مرَّ مِن أمامي فلم يرني، سارَ ببطءٍ نحو الطريق المغلق المعاكس لما قطعه من قبل، ثم مرّ أمامي مرةً أخرى ولم يرني، راحَ ضاربًا كفيهِ حين يتوقف فجأةً، ثم يتابع المسير، حتى اختفى عن ناظري.

خرجَ بعدها أصلان برفقةِ امرأةٍ متجهًا لسيارته البعيدة، وأطلق للريحِ عنانها بعد ذلك. قال لي فيما بعد بأنها ليزا التي أحبَّها فكان لها الأثر الكبير بتأنيبِ نفسه وتأليبها من خلالِ التفريطِ بمبادئَ خانها من أجلها تلك الليلة. نعم هي سيلا التي حدقت بي طويلا لشعورها بأنني أصلان. لم أكترث لها كثيرًا لأنني لم أعد ذاك الذي التقته يومًا في الماضي، بل صُدمتُ حينها أكثر من القدر الذي جمَعني بريم في جزيرةٍ لم أتوقع يومًا أن أصل إليها ثم أسجن فيها، ثم أنتقلُ للعلاجِ بإحدى مشافيها المقصلية. رأيتُها يومَ خرجت من بيت العجّان برفقة رجال الشرطة، رأيتُها في المحكمةِ وقد جلست بجانب شهد، فلم تفارق صورتها الضخمة التي لا تتسعُ ذاكرتي

للاحتفاظ بها ذاكرةً إضافيةً لطبعِ صورتها فيها، كان عليَّ أن أعرّف عن نفسي حينها قائلًا: أنا سيفُ العجّان الذي وشى بوالده لإنقاذك كما تظنين أيتها الحمقاء، لكنَّها من حرَّضتني على مداعبتها حين راحت تتذكرُ ملامحي وصوتي قائلةً: "أعرفك، لقد التقيتك، أين، ومتى، وكيف؟ هذا الصوت وهاتان العينان أعرفهما جيدًا.

- صوتُ أصلان وعيناه.

قلتها ممازحًا لا أكثر، فهي صفةٌ ذُهلَ منها أصلان نفسه عندما التقاني أولَ مرة. قال لي: "كيفَ لك أن تقلِّدَ صوتي إلى هذه الدرجة؟

- لكن هذا صوتي.

- حقًا؟

- هل أغنِّي لك لتتأكد؟

- إياك أن تفعل، لا أريد أن أكرهه أرجوك. *قالها ضاحكًا*.

لم أقصد أبدًا أن أنتحلَ شخصه لكنها تلقَّفَت من فمي هذه العبارةَ ونسجت وهمًا دفعَ بي للتفكير بما لم يخطر ببالي يومًا.

- أنت أصلان؟

- بعجرهِ وبجره.

كلُّ ما فعلته أنني استحضرتُ شخصيته، وأسلوبه، وطريقةَ حديثه التي أعرفها جيدًا مقتديًا به يومَ نسجَ الأكاذيب والأوهام لحياتهِ مع زوجته حنان ليس إلا... إذ بدأتُ كما بدأ، فقد بدأ ما بدأه مازحًا وتمادى حين صدَّقه الآخر، فلم يعد بإمكانه الرجوع بعدها وقد

غرقَ في الحقيقةِ الكاذبة، فتقمصتُ الدورَ كما تقمَّصَ حين قررتُ اللارجوع.

المفاجأةُ كانت فقط بسيلا التي أعرفُ كلَّ شيءٍ عنها وعن علاقتها بـ أصلان، إلا أن عليَّ أن أقف هنا رافعًا للقدرِ القبعةَ على هذه الأحداث التي تدلُّك: "أن خالقَ هذا الكون لم يكن يلعب النرد".

هذا الكونُ صغيرٌ أكثر مما كنتُ أتخيل، وواسعٌ أكثر مما قد نتصور، فقد التقيتُ هنا بثلاثةِ شخوصٍ لم أتوقعَ يومًا أن أقابلهم في حياتي: سيلا، ريم، وأنا.

رأيتُ في عيني سيلا موتي لأنني رأيتهُ في عينِ من حاولوا قتلي عبر مراحلِ حياتي آخرها في انفجارِ بنغازي الذي تبعَه إطلاق النار على كلِّ شيء، لقد قتلوا حينها البشر، والمقاعدَ، والستائرَ، والمنبرَ، والآلات الموسيقية. لم ينجُ إلا مَن هرب، أمَّا الذينَ هربوا فلم يكن بينهم شاعر يدعى أصلان... فأصلان مات وشبع موتًا الآن.

رأيت الموت في عينيها حينما سألتني: ما سببُ وقوفِ هذه الساعةِ عن الدوران؟

حاولتُ إخفاءَ خوفي، لكنني استسلمت للدهشةِ والخوفِ، وقد اقتربت محدِّقةً بملامحي بطريقةٍ غريبة

- أنتَ أصلان؟

- كلا، أنا معروف.

- هذه الملامحُ الناجيةُ المتبقيةُ منكَ تحيرني، صوتُك، عيناك، صلعُك، لكنها لا تحملُ تلك النظرة، أين ذهبت؟

- في الحرب.

- كيف لها ألّا تكترث لرؤيتي؟

- عيناي؟

- وملامحك أيضًا.

كدتُ أن أبرر متفوِّهًا ببعض الأعذار الغبية لكنني حدَّقت بها، مرَّت من أمامي مسرعةً صورةُ ليزا التي خرجت برفقةِ أصلان، غامرتُ بعد أن حثثتُ لساني على أن يفعل

- قد لا أنسى ليزا العاشقة، لكنني نسيتُ ليزا الـ......

- لا تكمل. *قالتها بغضب، وامتلأت عيناها بالغِل.* لستَ أصلان؛ لقد مات في بنغازي، قتلوه، أنتَ سيف الغبي.

لم أشك بذكائها، سيما وأنها عاشقةٌ استثنائية جعلت شاعرا يتحولُ عن مبدئهِ، لائمًا نفسه مؤنِّبًا إياها على جرمِ ما فعلت، لكنني تسلَّحت بالصمت والمراوغةِ أثناءَ ترددها الحذر على غرفتي في غفلةٍ من عيني ريم، أخافني حديثها عن الفحوصات التي تقومُ بها، وطمأنتني -بعد ذلك- نظراتها، التي بدأت أشعرُ بحنوِّها علي، لكنني في النهايةِ لم أعد أكترث طالما أن الموت يقتربُ مني بشكلٍ كبير، يومَ دخلت كالغولةِ محققةً معي شعرتُ بما هو أبعد من الخوف، لكنني صرختُ بها بآخر ما أملكه من قِوَى.

- أصلان، معروف، سيف، مهما يكن، لماذا أنت مهتمة؟

- قل الحقيقةَ فقط.

- نعم، أنا أصلان.

- وكيف لك أن تصغُرَ كلَّ هذه السنوات؟

- فحوصاتكم غبية، اتركيني وشأني.

لم تتركني، بل راحت تتحقق من كلِّ شيءٍ في جسدي، أخفت الحروق ما أخفت، وأكلَ الزمان ما أكل، لكنها بحثت عن شيءٍ ما لم أعرفه، وما بين تصديقها لشعورها بأنني أصلان وتصديقها للأجهزة التي تنفي ذلك وقفت أمامي حاقنةً إيّاي حقنةً ظننتُها الأخيرة:

- لم أعد أعرفُ شيئًا، كلُّ ما أعرفه الآن أنني أحبُّ رجلًا لا يحق لي أن أحبه، قلبي يحدثني بأنك هو، والأجهزةُ تقول عكسَ ذلك، وها أنا أخضع لقلبي مرةً أخرى، وأخطئُ مرةً أخرى، ولأنني أخطأت في الأولى وكررتها بالثانية فسأحقنك بهذه، لن أسمحَ لك أن تنتصرَ على قلبي مجددًا.

حقنتني لا لأنها تأكدَّت أني أصلان ولست سيف العجّان الذي أحبَّته أيضًا وأحبها... حقنتني لأنها أرادت قتل أحدنا بعد أن زودوها في الخارج بمعلومات تؤكد أنني أحد الاثنين لا محالة، ولا علاقة لمعروف بنا فهو اسم وهميٌّ فقط، انتحله سيف العجّان يومًا لا أكثر.

الساعةُ كما هي متوقفةٌ عندَ الثانية عشرة، أمَّا شاعري فقد توقفَ مرةً أخرى عن الكلام. كلُّ ما أفعله الآن هو أن أتابعَ حالته جالسةً بجانبه قارئةً لبعضِ قصائده، هو الهدوءُ المُتعب من جديد، والوحدة المفروضةُ على فتاةٍ أربعينيةٍ لم تنجب النساءُ أبدنَ منها.

تناولتُ حاسوبي متصفحةً بعضَ ما أملاه علي قديمًا، اخترتُ نصًّا ظنَّ بأنني قمتُ بحذفه، قرأته لعله يسألني عن سببِ وجودهِ على شاشتي بعد عدم اكتراثه بهذا منذ أفاق، أردتُ استفزازه للحديث غيرَ أنه لم يفعل، ظلَّ صامتًا محدِّقًا بالساعةِ الواقفةِ كروحي، مغمضًا عينيه بين الحين والآخر، فتحت النص، رحت أقرأ بصوتٍ مسموع:

كيف لي أن أقنعَ هذا القلم اللعين بأنني أصلان لا معروف؟

أراه يعاندني كما لم يعاندني من قبل، أراه يرفضني كما لو أنه يُنكرني فلا يتقبل شكلي الجديد ولا ملامحي الضائعة، أقبلُ هذا من الأشخاص، من قرَّائي، من حبيبةٍ قد تتوهُ بيني وبينَ آخر، لكنني لا أقبلُ هذا منه.

مرَّ على وجودي في مشفاي الأخير شهرٌ كما تشيرُ ساعةُ الحائطِ الصامتة، أجدني مشتاقًا لعائلةٍ أضعتها يومَ فررت من بنغازي. بنغازي وحدها مَن تحتفظ بالكثيرِ من الأسرار، ووحدها الشاهدةُ على انفجارٍ كاد أن يودي بحياتي، يظنون بأني قد لقيتُ حتفي، لكنني مَن رآهم يحملون نصف جثتي ويحرقونها بلا رحمة، ليُقالَ لي في المشفى بأنهم قد ألقوا برماد وبقايا ذلك الشاعر الزنديق في البحر، كيف لهم أن يفعلوا هذا بينما رحتُ أتحسس جسدي المرقط بالحروقِ والشظايا؟ وكيفَ لهم أن يستدلوا على الجثةِ من هويةٍ

يستطيع أي شخص تزويرها، بل من المضحك حقًّا أن أكونَ في زمن ومكانِ تزويرها وتسليمها.

قلت للطبيبِ في بنغازي: إنني أصلان، فسخرَ مني ظانًّا أن الصدمةَ أودت بعقلي، ثم راحت الأحاديث تتوعدني عبر الأخبارِ والتقارير، فرضيتُ أن أكونَ طِبقًا لما حملته الهويةُ التي في جيبي لثلاثة أشهر. ***{كن معروفًا حتى تتشافى ثم عد إلى وطنك كأنت}***. لم أستطع وقد وجدتُ نفسي في شوارعَ لا تعترف إلا بالموت، الموتُ في كلِّ مكان، يلاحقُ الجميع، ولا يرحمُ أحدًا.

كلُّ ما أملكه هو هويةٌ لسواي، ربما تكون لرجلٍ لاحقني يومًا أو لاحقته بعد أن شعرت بأنه يُشبهني كي نجلسَ طويلًا، ونتحدث طويلًا، وكأنَّ الحلمَ الذي زارني يومًا أراد أن يجثمَ على صدري في الواقع.

أطلقَ عليَّ النارَ في قصر المعارف، أصاب كتفي، أقسمَ بأنه لم يرد قتلي في اللحظةِ الأخيرة، لكنه لسببٍ يجهله لم يمنع نفسه عن إيذائي... قال بأنه كان يحيا حينها بالمنتصف.

رأيتهُ قبلَها، نقدتهُ مالًا، وصفحتُ عنه لسببٍ أجهله، لم أسأله عن سببِ إطلاق النار، أو تراني سألته وتناسيت!. لم أسأله عن محرِّضه، أو تراني سألته وتناسيت!. لكنني سألته عن هذا بعد أن التقيته في الوطن، وفي أماكن أخرى في العالم نسيتها لكن كان آخرها في بنغازي... فقال لي كلَّ شيءٍ وصدقته لا لأنني أصدق كلَّ شيء، بل لأنه لن يخسرَ شيئًا إن قالَ الحقيقةَ، فقد فرَّ مثلي من ماضيه اللعين.

كان يعرفني بالطريقةِ التي أعرف نفسي من خلالها، يمتلكُ عيني، يمتلكُ صوتي، يمتلكُ طولي وشكلَ جسدي رغم أني أكبره بأعوامٍ

كثيرة. بدا غريبًا هاربًا من كلِّ شيءٍ فآويتهُ بعدَ أن قصَّ عليَّ حكاياتٍ فرَّ من بطولةِ أحداثها في الوقت الذي رحت أقصُّ عليه نفسي.

في الوطنِ حملَ اسمًا قاطعًا، وفي بنغازي حملَ اسمًا موجعًا، لكنه صمتَ أكثرَ مني حينَ راحَ يقرأ مذكراتٍ لم يقرأها غيره، أو أحاديثَ لم يسمعها سواه، لقد حدَّثته لأنني مارستُ الصمتَ كثيرًا، ثم بحتُ به لمن لن يصدقهُ أحدٌ إن نقلَه على لساني.

رافقني إلى مسرحِ بنغازي الأخيرِ وانتظرَ معي في كواليسِ المسرحِ كعادته؛ قبل أن يتحولَ كلُّ شيءٍ لحطام، ماتَ سريعًا لكنَّه عُذِّبَ ميتًا بشكلٍ وحشي، ماتَ قبل أن أخبره بأنني أعرفهُ أيضًا، أعرفهُ كما يعرفُ نفسه، ماتَ قبل أن أخبره بأنني التقيته يومَ لم يشعر بوجودي، قلتُ ما أرادَ قوله، وقالَ ما أردتُ قوله، فلم يعِ أحدٌ ما قصده، وما قصدته، هي حالةُ التوهانِ حين تمرُّ الأوجاعُ والمخاوفُ من أمامنا، حينَ لا نشعرُ إلا بما أردنا الشعورَ به فلا نستوردُ إلا الهروبَ حينها.

ها أنا أتحدث وسط دهشةِ ريمي التي تظنُّ بأنني بدأت أرصُّ الأحاجي بين أسطري، فكيف لي أن أفسرَ ما لا أريد تفسيره؟ لكنني تعودت على طيِّ نفسي في حروفي أحيانا، وطيِّ حيرتي في ادِّعائي ما لا أملكه.

لقد أضعتُ سميرًا شهرًا في ميونخ، وحتى هذا الوقت لم أعرف أين ذهب؟ ولماذا اختفى؟ ولماذا رفضَ الحديث عن سرِّ غيابه؟ أو تراني أعرف ولا أريد أن أقرَّ بمعرفتي كل شيء.

جلسَ أمامي في المسرحِ ثم اختفى، سمعتُ حينها صوتي يجيء من الخلف: إلى أين أنتَ ذاهب؟ التفتُ فوجدتهُ أمامي، وجدتُ قنَّاصي

أمامي غيرَ أنه غادرَ مسرعًا، لم أكترث فرحتُ أبحث عن صديقي الذي تاه في شوارع ميونخ... حنان لم تصدق أن غيابي كان بسببه، لطالما لم تصدقني، ولطالما شعرتُ بهذا غاضبًا.

- أنت لا زلتَ مصرًّا على أكاذيبك. *صرخت بي حنان فور إخباري إياها بالقصة هذه*.

- لقد قلت الحقيقة، أنت لا تريدين تصديق أيِّ شيء.

- تصديق ماذا؟!! ها؟! تصديق خبر اختفاء سمير أم اختفائك؟

- قلت لك ألف مرة، هو الذي اختفى لا أنا.

- سمير مات، مات يا أصلان، أنت تُهذي بهذا قصدًا كي أشفق عليك، وأشعر بالرثاء لحالك، تريد مني إحالةَ الأمر أن سبب اختفائك هو حزنك عليه وقد دفعك للجنون هذه المرة أيضًا، أنا لا أصدقك.

كادت الأرض أن تميد بي حين سمعتُ ما قالت، نعم، سميرٌ مات، لقد قتل بالسم، كيف لي أن أصطحبَ لميونخ صديقًا ميتا؟!

رحتُ أنظر إليها مصدومًا من حقيقةٍ لا أستطيع إنكارها، لكنني أقسم بأنه كان معي، وصاحبني لميونخ، كيف هذا؟، لا أعرف.

في الهند أيضًا صاحبني سمير بعد موتِهِ، بعد موته!! لا يعقل هذا، لكنه حدث، لقد صاحبني بعد أن التقينا مصادفةً في المطار!! لا أحد يلتقي في المطار مصادفةً بأحد يريد ذات الوجهة إلَّا إن كان يتبعه!! هل كان يتبعني؟! لكنني تهتُ عنه في زحمةِ المشاة، حتى بدت الهند أكبر مما هي عليه، هل أخبرها بهذا أيضًا كي تتهمني بالجنون؟ وقفتُ في مكاني منتظرًا عودته، فلمَّا لم يعد قصدتُ الفندقَ مشيًا لأتوه في طريقي.

اصطدمت بشاعرةٍ لبنانية حينها، ما الذي جاءَ بها من لبنان إلى هنا؟

ضحكت وعانقتني.

- أيُّ صدفةٍ لعينةٍ هذه! أصلان هنا؟

- أنتِ؟

- أنا.

تغَّيرت كثيرًا لكنها ما زالت تحملُ تلك الروحَ الجميلةَ في نبرتها وملامحها، دعوتها لأن نحتسي أيَّ شيءٍ فدخلنا مقهى شعبيًّا لأجد سميرًا جالسًا مع أحدهم وقد أولانا ظهره، لوَّحت له فاستغرب مني كأنَّه لم يتبين ملامحي جيدًا، أو استغرب من وجودِ صديقتي.

جلستُ بعيدًا عنه محدِّثًا الشاعرة عن الشعرِ والشعراء، بينما راحت تحدِّثني عن لبنان وغضبها الدائم مني لأسبابٍ واهية. سرقَ أحدهم حقيبتها فجأةً وفرَّ مُسرعًا للشارع، بعد أن انطلق من إحدى الطاولات المجاورة، ركضتُ وراءه بأعوامي الثمانين فبدوتُ كبطريقٍ يلاحقُ غزالًا، صحتُ بسمير أن يساعدني باللحاقِ به وسط ولولات الشاعرة لكنه ظلَّ جالسًا كأن لم يسمعني، ركضتُ وراء اللصِّ الذي كان أسرع من نظراتي ذاتها وعدت بخفي حنين للمقهى.

عدتُ لكنني لم أجد الشاعرة ولا سميرًا... اختفيا.

اتصلتُ بالشاعرة لكنها لم تجب، عدتُ إلى الفندقِ لكنني لم أجد سميرًا. انتظرتُ وصوله قبل أن تتصل بي الشاعرة، سألتها: أين كنتِ غائبةً طوال هذا الوقت؟

فردَّت ضاحكة: أصلان، هذا أسرعُ شوقٍ في الدنيا؟

- ماذا تقصدين؟

- لا أقصدُ شيئًا. *وبدت نبرتها أقرب للشفقة منها للجواب.*

دخلَ حينها سمير واتجه للمصعد غيرَ أني أقفلتُ الخط ولحقتُ به.

- أين كنت؟

- لم أفهم.

- لقد عدتُ للمقهى فلم أجدك.

ضحكَ حينها ضحكته الجهورية الغريبة... استغربَ ضاحكًا.

لقد حدثت هذه الأشياء معي، لكنَّ سميرًا الذي يُعد بطلَ هذه الأحداث كان ميتًا، لم أكن أهذي لكنني لا أصدق أن ميتًا خرج من قبره، ثم عاد.

هو نص من النصوص التي لم أفهمها وشعرتُ أنها من متناقضاتهِ وخزعبلاتهِ بسبب العمر والمرض، وها أنا أجدني أفتش فيه وأعاود قراءته؛ علّي أجد أجوبةً على الحيرة التي تفرض نفسها على تصرفاته الجديدة أمامي، حمقاء مثلي عليها أن تستمعَ لشرحِ هذا النصِّ منه؛ لأنها لا تعي حرفًا مما جاء فيه.

لم أكترث بما يشبه هذه النصوص التي أملاها علي في الثلاثة أشهر الأولى من وجوده هنا، بيد أنني أشعر أنني كنتُ حمقاء، لأنني لم أفهم، ولم أرد فهمَ مقاصده على اعتبارها أحداثًا غير مترابطة، وغير منطقية معللةً ذلك بألف سببٍ أحمق لا يمت للحقيقة بصلة، وكأنني أعرفه أكثر من نفسه فأخذت ما أريده وتركت ما لم أكترث به ظنًّا مني أنها كتابات لا تهم أحدًا... أشرتُ عليه في البدايةِ أن يكف عن هذه النصوص غير المفهومة والتي كان يرفض أن يفسرها لي، وشجعته على كتابة الرسائل، مع أنَّ هذه الكتابات هي التي تعبر عنه بطريقةٍ لا أعرفها، هي حقيقته أكثر من رسائلهِ لذويه.

طلبت إليه أن يشرحَ لي هذا النص لكنه لم يفعل، ورغم أنني أعدته مرةً أخرى بيد أنه لم يتحدث... لم يرغب بالتحدث، فانكفأتُ في نفسي مجددًا، ومضيت إلى غرفةِ التمريض حائرة وحيدة، لأبدو متطفلة على كلِّ شيءٍ في هذا الكون حتى نفسي، لقد عاد من غيبوبته دوني، فلم أستطع اقتحام واقعه الجديد كما كنتُ أفعل كلما غضب مني أو شرد ذهنه. أشعرُ بالوحدة رغم وجوده بل أشعرُ بأنني مجروحةٌ من الداخلِ، ومومياء متحركة مدفونةٌ في رمالِ الحسرةِ والغربة.

مذبوحةٌ بالصمتِ، ومذبوحةٌ بسكينِ العباراتِ الصدئة من ألسنةٍ لم تحترم يومًا وجودي؛ حتى من ظننُت أنه احترمَ هذا سخرَ مني

حين وصفني بفتاةِ أحلامه هذا الصباح؛ لقد قتلني دن بعد أن قالها ودفنني في قبرِ هشاشتي وضعفي حين راح مُبررًا بأنه يداعبُني لا أكثر كصديقة... راح يمتدحُ روحي، وعقلي، وإنسانيتي ليخفف من جريمةِ الطعن هذه... أي فتاة أحلام هذه التي تحدث عنها قبل أن يعتذر؟!

هي الطعنات المجانية ممن يستحق ولا يستحق، وعليك أن تبتسمي بعدها مخفيةً ألمَك الذي يجتاح روحَك جرَّاء عباراتٍ سخيفة.

- أقسمُ لكِ بأنني لم أقصد، لقد قلتُ، تـ.. تـ.. تـ..

- لا عليك، أنا أيضًا انفعلتُ بطريقةٍ غبية.

- أعتذر ريم أعتذر.

- وأنا أيضًا أعتذر عن ردةِ فعلي، أنت صديقي الوحيد هنا.

يتبجحُ أولئك الكاذبون بأن الجمالَ جمالُ العقلِ والروح، يحاولونَ إقناعنَا بهذه السخافات، وهم اللاهثون ليلًا نهارًا خلفَ الحمقاوات والسطحيات، أمَّا أنا فلم يلهث خلفي يومًا سوى كلب ضال صمتَ عن عوائهِ وجريهِ لحظةَ استدارتي خائفةً منه، غيرَ أنه مَن خافَ مني وولى هاربًا... حتى هذا الكلب ترفَّعَ عن عضي، لأن لحمي لا يصلُح للمضغِ والتلذذِ به.

هل أنا قبيحةٌ إلى هذا الحد؟ المرآةُ لم تجبني، لم تجبني يومًا عن هذا التساؤل المُكرر فهجرتها للأبد. عيون الرجالِ هي الأصدق يومَ تشيحُ بنظراتها عني، أو عند منحها الشفقةَ والرثاء المجانيين، كلا، حتى ذاك الكفيف الذي قال لي يومًا بأن صوتي ملائكي لم يقترب مني، لم يحاول التحرشَ بي كلاميًّا على أقل تقدير، شعرَ بحجمي، بقبحي، بأنني لا أصلحُ للسرير، أصلحُ لكلِّ أعمالِ المرأة إلا أن

أكونَ مفعولًا به. كيفَ باستطاعتي ممارسةَ الرذيلة إن رفضتني الرذيلة ذاتها، كم أكره هذه العفَّة المجانية المفروضة علي، كم أكرَه هذا الطوقَ الأخلاقي الذي يطوِّقني رغم أنفي. لماذا لا أملكُ خيارَ الفضيلة والرذيلة؟ لماذا لا أملكُ أن أختارَ بين انحرافي واستقامتي؟ شهد امتلكت الخيارين فاختارت أن تكونَ عاهرة، سمارها وجسدُها وضعَا الخيارين أمامها فاختارت الرذيلةَ، سيلا امتلكت خيارين وَصِفَتين شبيهتين، فاختارت أن تكون جاسوسةً مومسًا وقاتلةً متسلسلة، أمَّا أنا فلم أختر إلا ما فُرِضَ علي. أين الشيطان عني؟ ألا أستحقُّ منه أن يحاولَ مع أحدهم فيُزَيِّنُني بعينه فيطلبني للرذيلة التي سأوافق عليها مباشرة دون تردد؟ أين وسواسه الذي يحذرون منه دومًا؟ ألا يجري في عروقي كما يجري في عروق الآخرين ليعلمَ أنني أرضٌ خصبة لزراعةِ أيِّ شتلة فيها؟ لماذا يستثنيني مِن أعماله التي أتقبلها ويحاولُ مع الرافضينَ له؟

تلومينَ أمَّك لأنها تزَّوجت بآخر، تلومينها متناسيةً أنك اشتهيتِ ما اشتهته، ماتَ والدك تاركًا خلفه شابةً شهية، فلمتِها على خيانتها له عبر آخر، أتذكرُين تلك الجُمَلَ التي قالها شاعري تباعًا في مطلعِ قصةٍ ما؟ حين أوردَ ما استوقَفك فلم تجدي ردًّا لطرحه فأحلتهِا للنسيان، وها هي تجتاحُك مجددًا فلا تجدين لها ردًّا صادقًا رغم تصالحك مع نفسك الآن:"لا يُقرأُ الحزنُ بين السطورِ كما زعمت عينيةُ ابن زُريق، لكنه لم يتحدث حينها بهذه الصيغة. لعلِّي قرأتُها بين السطورِ فوضعتها هنا، فقد خطَّه - أي الحزن- لتلكَ التي تركَها خلفَه يومًا ماضيًا لنعشه. أتراها تزوجت فكان مهرها القصيدة؟ أم تراها أجلستهُ في مقعدِه؟ وألبسته ثيابَه؟ وسمحت له أن يفترشَ فراشَه؟ خائنةٌ إن فعلت ذلك، ووحيدةٌ إن لم تفعل، فكيف نلجُ الى السعادةِ بالخيانةِ؟ أو كيفَ نلجُ إلى الوفاءِ بالوحدة؟"

قلتُ لها ألفَ مرة: "أكرهُ جادًا هذا، أكرهه وأكره أبناءَه... ليسوا إخوتي، ولن يكونوا". لم تكترثي لها، لمشاعرِها، لحاجاتها التي أحرقتكِ كأنثى، تكرهين جادًا بقدرِ اشتهائك له، بقدرِ رغبتكِ في الحصولِ عليه، هل هذا اعتراف؟ كلا، هو ما خبَّأتهِ عن نفسك، عن والدتك، عن تفكيركِ دوما، كرهتِ والدتكِ صغيرةً فأردتِ الانتقام لوالدِك منها، الانتقام من جريمتها الزواجية، لم تتقبلي ابتسامته، ولا رقيَّه الدائم، لم تكترثي يومًا لحرصهِ عليكِ، وعدلهِ في تعاملهِ معك ومع أولاده، خجلةٌ أنتِ الآن من تذكرِ تلك الليلةِ اللعينة، خجلةٌ أنتِ من نفسكِ، منه، من والدتك الرقيقة الطيبة، رحلتِ هاربةً منه إلى سنبار. سمحا لك بالسفر إلى جنيف وأخذك القدرُ إلى سنبار.

رَفضَت والدتُك لكنه أقنعها، قال لها: شابةٌ من حقها البحثُ عن طموحٍ خارج الوطن، لم يقل لها بأنكِ راودته عن نفسه، لم يقل لها بأنكِ اقتحمت عليه غرفته واهبةً إيَّاه نفسكِ كمومسٍ فاشلة، لم يقل لها بأنه عانقكَ باكيًا عليكِ كأبٍ أشفقَ على حماقةِ ابنته، لم يقل لها بأنه مَن وضعكِ في فراشكِ؛ وأسدل على جسدكِ روحَه قبلَ غطائه عطفًا على مرضكِ الروحي. همسَ في أذني: "يا ابنتي، إياك أن يدفعك الحقد لهذا، لم أطالبك يومًا باحترامي كأبٍ؛ لكنني أطالبك الآن ألّا تحوِّلي كرهَك لرغبةٍ في الانتقامِ من والدتك، ومن ذاتك، لم تفعل ما تستحق عليه هذا منكِ، ولا تستحقين هذا العقاب الذي تنوينَ معاقبة نفسك به".

ليست الرغبةُ إذن، ليس اشتهائي له ما دفعني لهذا، بل انتقامٌ لا يحق لي أن أُمضيه عبر جسدي، جسدي الذي لا يصلح للسرير... انتشلني من الماضي وذكرياته دن حين أخذ بيدي وسار نحو غرفة أصلان، سمعنا صوتَ رجال أمن الدولةِ السنباري بصحبةِ المدير قبل أن نراهم متحلِّقين حول سريره. راح المدير يشيرُ نحو شاعري

شارحًا لهم تفاصيل حالته ونفيه أن يكون الشاعر الذي يدَّعي بأنه هو، ضحكوا بينما راح ينظرُ نحو ساعةِ الحائط كأنه لا يشعرُ بوجودهم بدايةً، ثم رأيت نظرات الذعر في عينيه تراقبهم كضبعٍ يتحلق حوله الصياديون لقتلهِ، هي نظرات وحشية لم أرها مسبقًا تشعرك أنها آخر سلاح قد يذود بها دون جدوى عن نفسه

- هذه الفحوصات تشير بأن عمره ناهز الستين فقط، أطمئنكم بأن لا لبس في حالته على الإطلاق، هذا علم يا سادة.

جعلت هذه الجملةُ دمائي في حالةِ غليان رغمَ محاولتي تصنُّع الهدوء، بيد أني تلقفت من يده الفحوصات، ورحت أقرأ ما فيها وكأنها المرة الأولى التي أستمع بها لهذه الجمل بخصوص الفحوصات، انطلقت للجلوس خلفَ الشاشة مستعرضةً حالته بالكامل، رابطةً النص الذي حيرَّني يومًا وبعض خزعبلاته التي لم أفهمها فوجدت أنني أحمق فتاةٍ على وجه الأرض، فأصلان ليس بأصلان، كلُّ شيءٍ هنا يدل على هذا، لقد أردت له أن يكون أصلان حين عرف الكل وبسهولةٍ أنه ليس إلا معروفًا هذا.

كدتُ أجن ثم شعرتُ بانهيار العالم من حولي، وأخذت تتملكني مشاعر متناقضة بين مناطق عديدة في نفسي لم أكن اكتشفتها بعد، ***{ماذا لو ماتَ في آخر غيبوبةٍ دخلها؟، كنتِ حينها ستنشرين فقط ما جمعتِه منه راضيةً مرضية، قد تضيفين إليهِ بعضَ الأشياء من جعبتك، لا أحدَ سيكتشف هذا، لديه بعض النصوص الركيكة فلن يفرِّقَ الناشرُ بين نصكِ ونصه، أنت تكذبين الآن، لقد تحولتِ من معجبةٍ لتاجرة، من عاشقةٍ لشعرهِ إلى جشعةٍ لا تكترث إلا للمال، المال الذي سيهديها رجلًا فحلًا يفترسُ أنوثتها، كم أنت بائسةٌ يا ريم؟ وكم هو مؤلمٌ تحوّلك هذا مع من لا يستحق؟ كانَ حلمًا أن تلتقيه فالتقيتِ به، كان حلمًا أن تصافحيه فجلستِ بجانبه وأملى***

عليكَ ما لم تحلمي يومًا بسماعهِ مباشرةً من شفتيه، لقد كان رفيقًا مذ التقى بك، لقد قرَّب إليك الوطنَ عبر صوته وأحاسيسه، لقد حنا عليكِ وأشاد بك في الوقتِ الذي رحتِ تستنزفين عقله لخيانتهِ بعد ذلك، لم ترحمي ضعفه وهوانه على نفسه قبل الناس، لم ترحمي مرضه، وغربته، ولم تشفقي على تخبطه الفكري والكلامي، لم تحذفي ما أراد منكِ حذفه لأنك خائنة جشعة، لم تحترميه ولا رغبَتَه يومَ باتَ مرضه وحديثُه وآلامُه مشروعًا حقيرًا لديك لا أكثر... سيلا القاتلة أرحمُ منك، وأرق منك، وأصدق في تعاملها منك، أما أنت فبائسةٌ خائنة، بائسةٌ اكتشفت في النهاية أن ما نسجت أحلامها عليه كان وهما، لقد جوزيت بما أذنبت نفسك، فلا يحق لك أن تغضبي طالما أنك لا تختلفين عنه، كلاكما مخادع وكاذب ومزور للحقائق، كلاكما يرتدي قناعًا يخفي خلفه وجهه الحقيقي، هو أذكى منك فقط، بينما أنت بلهاء بائسة، هذا كل ما في الأمر}.

- يقولون بأنه ليس أصلان!! ***قلتها لدن وأنا على وشك اقتلاع الشاشة من مكانها جراء غضبي.***

- الفحوصات من قالت هذا منذ البداية ولم تريدي أنت تصديقها.

- لا أصدق أحدًا، كان عليَّ ألَّا أصدق قتلةً ومجرمين، لكنه هو، أقسم لك أنه هو، أعرفه، أعرفه أكثر من نفسي، صوته، عيناه، تصرفاته، حركات وإيماءات جسده... إنه هو، كيف يكون سواه وأنا أحفظه عن ظهرِ قلب؟ ***قلت هذا وأجهشت بالبكاء من شدة انفعالي وحمقي، وقد خلص دن الشاشة من يديَّ.***

- أصدقك.

- تصدق ماذا؟ ***رفعتُ رأسي محدقةً بوجه دن الذي بدا واثقًا من قوله.***

- إنه هو، طالما أنك تقولين أنه هو، فهو هو...

- تسخر مني؟! لست مجنونة يا دن. *قلتها وكدت أن أضربه من شدة انفعالي.* الفحوصات تقول غير ذلك، أنت وسيلا والمدير والكل يقول غير ذلك، الحمقاء التي أمامك هي الوحيدة التي أرادت تصديق هذه الأكذوبة... رحتُ أضحك بعدها من فرط غبائي ضاربةً كفًا بكف كلما تذكرت حمقي متسائلة وسط نظرات دن الشاردة عن حقيقةِ شخص ينتحل شخصية شاعر ويتحدث بطريقته وأسلوبه الأدبي في أغلب الأحيان.

- أقسم لك أنه يتحدث كشاعر، ويصف كشاعر، ويزيِّن النص أيضًا بجمل عميقة وفلسفية حتى يكاد يتفوق على أصلان نفسه، إنه هو فكيف له ألَّا يكون هو؟

- أصدقك.

أغاظتني هذه الكلمة لشعوري بأنه يقولها شفقة بي ورثاء لحالةِ الجنون التي استعمرتني، فلكمته على صدره غاضبة وخرجت، رحتُ أدور في ردهات المشفى وغرفها ودهاليزها قبل أن أتوجه مرةً أخرى و تلقائيًّا لمطاردة السراب وللبحثِ مجددًا في الفحوصات التي عملت عليها سيلا، بدت فحوصاتُه مختلفةً فعليًا عن واقعه، ثرتُ وتوجهتُ نحوه أريد أن أصفعه لخداعي، الصراخ به، إهانته، أريد التعبير عن غضبي ولو بقتله، وجدته نائمًا فخفت منه. لم أستطع أن أعامله كمعروف رغم تيقني بأنه مخادع ومحتال، لم أستطع أن أثور بوجهه وأعنفه. علي أن أقول أنني ورغم كل شيء شعرت بالخجل من أن أفعل هذا، كيف لي أن أعامله كشخص آخر بينما احترمته وعاملته لأشهرٍ كشاعري المفضل والقدوة؟! تراجعت بحياء غبي وانطلقت نحو السكن باكية لأغط في نوم عميق لم أستيقظ منه إلا في صباح اليوم التالي. نمت

أكثر من عشرين ساعة متواصلة كهاربة من واقعها الذي لا تريد العودة إليه، أردتُ أن أنام أكثر بيد أنني لم أستطع فتوجهتُ وقد عاد المشهد لذاكرتي كالقطةِ التي أضاعت أولادها نحو المشفى واندفعت لغرفته.

توجهت نحوه، والغضب حفزني مرة أخرى للثورة في وجهه فوجدته حينَها جالسًا إلى النافذة، لم يلتفت لي حين صرخت به:

- هل أنت أصلان فعلًا؟

لم يتفاجأ أيضًا كأنه كان على موعدٍ مع هذا السؤال، نظرَ إلى الساعةِ ثم إلى النافذة قبل أن يجيبني؟

- كلا، أنا معروف النقاد، أو سيف العجّان، أظن أنني سيف أكثر من كوني معروف النقاد.

تمنيتُ كثيرًا أن أرى سيفًا هذا، لكنني رحتُ أبكي بحرارة لحماقتي وغبائي، لقد خُدعتُ مجددًا لأنني لم أفكر، لأنني توهمت ما أردتُ تصديقه، لم أفرِّق بين شاعرٍ أعرفه وأحفظ شعره وأسلوبه وبين مدَّعٍ تلاعبَ بي، لعلَّه قرأ عن حياته ثم راح ينسجُ الأكاذيبَ على مسامعي. ***{الآن عليَّ أن أقول فهمت وقد راحت الأحداث التي قالها لي تتضح معالمها جيدًا}***.

- هل استمتعت بغبائي؟ *قلتها باكية بحرقة*.

- أردتُ بأن أكونَه ففشلت.

- أنتَ بارعٌ في القتل، قتلتَ والدك، والآن أنا.

- ونفسي، قتلتُ نفسي قبلَ كلِّ شيء.

- كيفَ استطعتَ تقليدَه بهذا الشكل؟ ***غاضبة قلتها وضربت الأرض بقدمي***.

- لا أعرف، أنا أتحدث بهذه الطريقة، أتصرف بهذا الشكل، أنتِ من أرادَ تصديقي. سيلا أرادت ذلك أيضًا في البداية أو في النهاية، لا أعرف حقيقة، حتى أنا فقد أردتُ تصديقي.

- حبيبة مثلها كان من السهل أن تتعرف عليك.

- لا أعرف، لقد حاولت قتلي أو قتل أصلان بعد أن احتارت بيننا لكنني نجوت.

- قل مرةً الحقيقة. *قلتُها بعصبيةٍ مَن نفذ صبرها باكيةً حائرة.*

- سأفعل، كان عليَّ أن أفعل من البداية. نسيت سيلا وتذكرتها هنا، نسيتُها تمامًا، نسيتُها لأنني لطالما حاولتُ نزعَ جذورِ ملامحها من أرضِ مخيلتي، لم أعد أتذكرُ ملامحَها جيدًا سيَما وقد ضيَّعَت الحربُ ملامحي، وقَعت عيني عليها أولَّ مرةٍ قبل المكيدة الفاشلة للإيقاعِ بأصلان وابنِه بفترةٍ قليلة... خرجَ صقر من حياتها هاربًا للخارجِ بعد أن سهَّلَت له ذلك ليدخل أصلان حياتها صدفةً، برصاصةٍ كنتُ مَن أهداها إليه. لم أستطع قتلَه، لا لأنه عفَا عني قبلها، بل لأنني لحظةَ إطلاق النارِ قررتُ ألَّا أقتلَ أحدًا أيا كان، لكنني لم أحترم هذا القرار بعد ذلك إذ قَتَلتُ بعد سنتين رجلًا ما ثم اكتشفتُ بأنها أنثى... جُنَّ زوجُها لمقتلِها أمامَ عينيه لينقلبَ مُخنَّثًا ظنًّا منه بأنه مَن مات لا هي، قتلتُ برصاصةٍ الاثنين معًا، أحدهما واراه التراب، والآخر مشى عليه... صادفني في كلِّ مكان، رأيتهُ في أحلامي، في الشارعِ، في المقهى، في السرير، في مرآتي، بدا لعنةً لن تنتهي مصرَّةً على جلدِ ضميري، حتى قررتُ ألَّا أكرر فعل القتلِ مرةً أخرى، لم أره بعدَها، لم يزرني في حلمٍ ولا يقظة، لكنني تعجَّبتُ من عشقِه لها، من عشقِهِ الذي أودى بهِ لِلجنونِ حين تلبَّسها في كلِّ شيءٍ حتى تكوينها الجسدي... أطلقتُ على شاعركِ

النارَ قاصدًا كتفَه لا قلبَه؛ قنَّاصٌ مثلي لا يخطئِ هدفه، لكنَّ شاعرًا مثله أخطأ حينَ أحبَّ صهيونيةً ليبقى نادمًا على ذلك حتى ماتَ...

- ماتَ؟! *قلتُها مصدومة*.

- قد ماتَ كما تمنَّى، بل ماتَ بالطرقِ الثلاث التي تمنَّى إحداها: ذهبَ نصفهُ بالانفجار، ونصفه بالحريق، وما تبقى من النصفين فقد نُثرَ في البحر، كنتُ مُوجوعًا لطريقةِ موتهِ البشعةً، مع أنني شعرتُ بسعادته لحظةَ تذكُّرتُ بأنه خشيَ فلسفةَ الأرضِ أكثرَ من فلسفةِ الموت. ***رجلُ سلَّةِ المهملات*** ظلَّ محرِّضًا أيضا على قتلهِ نادمًا على إشراكهِ قسرًا في المهرجانِ الذي صنعَ منه بطلًا. لطالما عضَّ أصابعه ندمًا على هذا قائلًا: "أنا السبب بعلوِّ كعبِ هذا الحشرة، سأعيده صعلوكًا كما بدأ، لقد هاجمنَا وهجانا في عقرِ دارنا وفرَّ بجلده، لقد شتمنا في أرضنا ليبزغَ نجمه في أرضه، بل في العالم على ظهورنا". لم يستطع، لم يستطيعوا جميعهم مهما حاولوا الإيقاعَ به. لقد فشلوا قبلها بقتله لكنَّ سيلا أُجبِرت مِن رؤسائها على الزواجِ بصديقهِ لأن الآخرَ مَن وقعَ في حبائلها بسهولةٍ؛ رغمَ أنه كان أيضًا على إحدى قوائم تصفياتِ الموساد. ومع ذلك فقد ساعدها بعد ذلك على الهروبِ من الوطن، ساعدَها يومَ ساعدْتُهُ دون أن يدري بإتلافِ الكثير من الأشرطةِ والوثائق التي ظنَّ بأنها أتلَفَتها بناءً على عهودها له، وثقَ بها جاهلًا أنَّ مثلها لا يُوثق به؛ ليلومَ نفسَه على تضحيتهِ بمبادئهِ، وصديقه، ووطنهِ من أجلِ قلبِه طوال حياته!!

دخلَ في عزلةٍ طويلة، دخلَ بعدها في غيبوبةٍ ذهنيةٍ أبعدتهُ أعوامًا لا بأسَ بها عن المنابر والحياة، وتحتَ ضغطِ أصدقائهِ وعائلته للخروجِ من حالةِ العزلةِ المفاجئة والحظرِ الداخلي الذي فرضه على نفسِه، قبِلَ المشاركةَ بعد انقطاعٍ طويل بأمسيةِ ميونخ ثم

نيودلهي إضافةً لأمسياتٍ صغيرة هنا وهنا... التقينا حينها وبعدها كصديقين بعدَ أن التقينا كعدوين في مواقفَ غريبة، أردتُ أن أكونه فاقتربتُ منه، تبعته على غيرِ هدىً مني، أردتُ أن أكونَه لسببٍ أجهله، ليس صوتي الذي يشابه صوته، ولا عيناي التي تشبهُ عينيه هما السبب، لقد رآني كما لم يرني أحدٌ من قبل. وتركني أذهب بينما كان باستطاعتهِ قذفي كجرذٍ في السجن. لحقتُ بهِ من بلدٍ لبلدٍ، من مطارٍ لمطار، من مسرحٍ لمسرح، لاحقته يومَ هرَبت سيلا، سيما وقد امتلك قلبًا كالذي امتلكته، قلبًا حولَّه لآخرَ يومَ حولني لسواي. قد تشابهنا بالرفضِ والانصياع، الوجودِ والتيه، الهروبِ والبقاء، لقد هربتُ من العجّان كي أكونَ سواي، وهربَ من نفسهِ كي لا يكونَ صورةً مزيَّفةً فرَضَتها أعينُ الناس عليه. لقد هربتُ من عالمي لأكونَ سواي، وهربَ من عالمهِ الذي لا ينفكُّ يُذكِّرُه بتاريخهِ النضالي؛ في حينِ أن هذا ما كان يجلده بقسوة. أنا هربتُ من الرذيلةِ التي لاحقتني فعدت لها من الفضيلةِ التي لم أستطع التعايشَ معها، بينما هربَ من الفضيلةِ العالقةِ فيه غيرَ قادرٍ على تقمَّصها مجددًا طالما أن داخله يرى آخرَ فيه.

التقيتُها وقد استطعتُ أن أكونَ غيري، لكنها أرادت لي أن أعودَ لعجَّانيتي مُنغمسًا بما هربتُ منه باسمٍ وعارٍ آخر. لقد أضعتُ العجّان بهروبي منه، لكنني عدتُ بأقبحِ ذنوبهِ العالقةِ بروحي مضيفًا له ذنبًا لم يرتكبه هو، ثم طُردت عن باب التوبةِ حين وجدت أن خلف باب منزلي تسكن عاهرةٌ كنتُ على وشكِ التهامها، بينما كان طبقي من صُنعِ والديَّ في مطبخهما السريري... تساءلتُ كما تساءل: كيف باستطاعتك أن تحيا مما تهرب منه؟

- أنت تكذب أيضًا، تختلقُ أكاذيب جديدة لكنها مجانيةٌ هذه المرة.

سكتَ ولم يجب، لكنني لم أعد أكترثُ لكاذبٍ تلاعبَ بي مثله. صَدْمَتي بحقيقتهِ لا تقل فظاعة عن رغبتي بقتلهِ الآن، لكنني حمقاء، سأكررها ما حييت بل قد أستبدل اسم ريم بحمقاء كي لا أتناسى هذه الصفةَ التي لازمتني طوال عمري. لقد جلستُ ثمانيةَ أشهرٍ وأسبوعين على الأقل أمامه كشاعرٍ لأكتشفَ أنه آخر... آخر يعترف أمامي بهذه الحقائق والخديعة كأنها أمر طبيعي غير شاعر بأي ذنب وندم! لقد منَّيتُ النفسَ بأحلامٍ عظيمات مُسمِّدةً جشعي بهروبي الغبي من وطني لأجدني مخدوعةً بلهاء لا أكثر. أحلامي لا تساوي قرشًا الآن، لقد ذهَبت أدراج ذكرياتٍ حاكها رجلٌ على لسانِ غيره... استدرتُ ذاهبة لاعنةً حُمقي بدموعٍ غزيرة غيرَ أنه طلبَ مني البقاء قليلًا قائلًا بهدوء:

- أُرسِلت سيلا باسم ليزا لتصفيةِ بعض المعارضين للسلام ، بعضَ من حاربوا بشراسةٍ كيانهم الغاصب، ضمن عمليات تصفية تدعى: الاغتيال الصامت. نجحت في الكثيرِ من المهامِ التي أوكلت لها، وأخفقت بالقليلِ منها. أصلان كان أحد الأهداف التي ينوي الموساد تصفيته، سيما وقد هاجمَ كيانهم وحرَّضَ عليه بشكلٍّ غير مسبوق، لكنَّ قتله لم يكن بالأمرِ السهل لذكائهِ الفريدِ وثقلهِ الأدبي من ناحية، ولخشيةِ كيانهم من اكتشافِ أمرِها بعد توترِ العلاقات بين بلدينا إثرَ اكتشافِهم لحادثةِ اغتيال مشابهة من ناحيةٍ أخرى. خدَمتُه الظروفُ والأحداث وأطالت عمره عند صدورِ أيٍّ قرارٍ بتصفيته، لكنهم حاولوا بعدها استهدافه من خلال نزار ابنه، حيثُ دفعوا ب هند للتعرف عليه، كنتُ من ضمن هذه الخطة التي دُبرت له. لم يساعدنا ابنه كثيرًا لتردده في خوضِ علاقةٍ غيرَ شرعية قد نستطيع بعدها ابتزاز والده، لكنه في النهايةِ وقع سيما بعد أن دفع صقر مبلغًا كبيرًا في حالةِ استطاع الإيقاع به واصطيادهما في البيت معًا وقتلهما. صقر كان مدفوعًا عبرَ كراهيته الشديدة له ففعل المستحيل

لمساعدة سيلا، وإن كانوا قد نجحوا مع ابنه فقد باؤوا بالفشل الذي تكرر مع كلِّ النساء اللائي دفع بهن لأصلان قبل ذلك، رغمَ عشقهِ للنساء. ثم جاء والد زوجته حنان وبتحريضٍ من رجل سلة المهملات وأوكلوا لي مهمة اغتياله مجددًا أثناءَ أمسية شعرية في قصر المعارف. الرصاصةُ استقرت بكتفه فنُقل للمشفى ليجد سيلا أمامه، فبدلَ أن تقتله ببطءٍ أحبَّته. راحَ يُحدثها عن الرصاصةِ التي عليهِ أن يحمد الله أنها كانت سببًا لرؤيتها... عن شكرهِ للقاتل لأنه وضعه أمامها، راح يحدثها عن أولئكَ الذين يريدون قتلَ كلماته لأنه ليسَ تاجرًا ولا سمسارًا.

قال الكثيرَ الكثيرَ، هاجمَ دولتها ووجودهم، ووصفهم بأقذعِ الصفاتِ كارهًا كل ما يتعلق بهم، وبدلَ أن تكرهه لذلك أحبته. ارتكبت خطأً من وجهةِ نظرها لم تستطع إصلاحه بعدها، فقد سمحت لقلبها أن يحبَّ شاعرًا نادى بقتل قومها وتهجيرهم وطمسهم عن الوجود، أحبت شاعرًا طُلبَ منها قتله طالما أنه بين يديها، ولا مبررَ لفشلها هذه المرة، حاولت لكنها لم تستطع، ضُغطَ عليها فبررت تأجيلها لهذا كثيرًا حتى غادرَ المشفى، ولكنهم طلبوا إليها التحولَ لصديقهِ سمير والزواجَ به، لم تستطع الرفض مذعنةً لمطالبهم في الوقتِ الذي كان يحترقُ قلبها بعشقه، ناهيك أن مثلها لا يحب إلا لفترةٍ قليلة قبل أن تعود الحرباء لتغيير جلدها مرة أخرى.

قتَلت سميرًا صديقه، قتلت الكثيرين، ثم تزوجت بسياسي اكتشفَ حقيقتَها عبر الصدفة فلجأت إليه فورًا متيقنةً من حبه لها. تفاجأ وفعلَ ما لم تتوقعه، خشيَت الموتَ حينها غيرَ طامعةٍ بشيءٍ آخر، لكنه ساعدها على الهرب والعودةِ لكيانها، بدا متألمًا لهذا، بدا متعبًا مقهورًا لكنه ساعدها وهربت... سيلا ولدت لأبوين يهوديين، لُقنت كره البشريةِ جمعاء سوى شعبها المنبوذ، ثم جُنِّدت للعمل لدى

الموساد الذي يطلبُ من عملائهِ أي شيءٍ، ولا يتوانى عن شيءٍ مقابل النتيجة، وعليكِ أن تطيعيهم بنفسٍ راضية لأجلِ بقاءِ دولتكِ على قيد الحياة، تكذبين، تمارسين الجنس، تروِّجين له، تقتلين، تتلاعبين، المهم أن تخدمي وطَنَك عبرَ جسدكِ ويدك، عبرَ أيٍّ شيءٍ يُطلبُ منك.

لعلَّها أحبته لكنَّه من قال لي بأنها كانت تحاول كثيرًا أن تثنيه عن كرههِ للمحتلِّ قبل أن يكتشف حقيقتها؛ بل وانتقدته بشدِّة حين نشرَ ، مقالًا تحدث فيه عن ***حكاية فطيرة الدم اليهودية***، لم يجن جنونها فقط حينها، بل جن جنون أسيادها والساسة اليهود واصفين إياه بالعدو الأول لكيانهم.

- تريد مني أن أصدق هذا؟ هذا أشبه بفيلم فاشل أنت بطله. *تحدثتُ بهدوءٍ غير آبهةٍ به.*

- لا أعرف لماذا لا تصدقين الصدق بينما كنت مصدقة أكاذيبي!

- لأنك كاذب، أعرف قصة هذا المقال من أساسه، وأعرف متى نشره وما حدث بسببه، لقد نشر هذا المقال في الخمسين من عمره، أي بناءً على كلامك فإنه نشره قبل أن يلتقي بسيلا أصلا، إن كان التقى بها أو عرفها من الأساس؛ ثم إن أصلان من المستحيل أن يعشق صهيونية بتاتًا سيما بعمره الكبير وإخلاصه لقضيته...أنت تريد تزوير تاريخ أصلان النضالي وتشويهه فقط، ولن أسمح لك بذلك، أنت تنسج قصصًا كاذبة عن شخص وطني شريف بغية التشويش على نظرتي له. تتحدث بأشياء لا يعرفها أحد، ولن يعرفها أحد صدقني، أرح نفسك من عناء حديث تافهٍ كهذا، لأنك مصاب بمرض تيروم وهذا يعني أنك ستموت مثل الجرذ هنا، ستموت كسيف العجّان ابن العجّان المجرم القواد لا كـ أصلان، ألا تشعر بالخجل من أن تكون ابن العجّان الذي كنتُ أحدثك عنه؟

كيف لك أن تستمتع لأحاديثي عن عائلةٍ ساقطة كعائلتك؛ ولا يتحرك بك أي شعور بالمهانةِ والذل؟

أردتُ المغادرة غير أنه صاح بي:

- هو مَن رأى العجّان مصادفةً حينَ أوقعَ بك بمكيدةِ دهسه، أصلان من لحقَ بك بعد ركوبكما سيارتكِ حتى منزله، لقد كان مارًّا مصادفةً حينها مِن أمامك فعرف أن العجّان يريد الإيقاع بك، فتبعك إلى حيث قادك العجّان. تزامنَ ذلك مع وجودي وقد اتصلتُ مُبلّغًا عن عصابةٍ هي عائلتي... عصابةٍ تحتوي على عاهرةٍ تسلُبُ الرجالَ باحترافيةٍ عالية، مثلي لا يُسلبُ إلا مِن مُحترفة، أمَّا هو فقد رآكِ صدفةً كضحيةٍ قادها العجّان للمسلخِ البشري، وقفَ خلفي صائحًا: "الفتاةُ في الداخل"، لا أتذكرُ تحديدًا من قالها، أنا أم هو؟! قال شيئًا على لساني، لا أتذكر، المشهدُ ما زالَ ضبابيًّا كوجههِ الذي لم أتعرف على ملامحهِ جيدًا حينها، غيرَ أني حينما حدثتهم قصدتُ شهد بينما قصدكِ هو، صوتُه من تناهى لمسامعكِ لأنه لم يرتجف كصوتي، كانَ حادًّا واضحًا بينما ضاعَ صوتي في رجفتي، قبل أن يضيعَ في الجلبة تلك. جاءَ بالبوليسِ كما جئتُ بهم، لكنه غادرَ قبلي، قد لا تصدقين بأنني أجهل الآن إن كان خلفي حين صاحَ بهم مُحرضًا على كسرِ الباب أم أمامي، لقد نسيتُ من غادرَ أولًا كيلا يراه العجّان أنا أم هو؟ مع أنه رحلَ قبلي! لقد قابله في بيت السياسي، لقد عفا عنه أيضًا وتركهُ يذهبُ تاركًا في نفسه الأثر الذي لم يندثر إلا بموته. قال لي أصلان في بنغازي: "كرهتُ أن يراني ليعلمَ أن ما حدث هو تفسيرُ رؤياي وقد رأيتكَ تتفوه بما على لساني". لقد كان أرأفَ بوالدي السافلِ مني، لقد رحمَه أكثر مني، لقد أردتُ للعجانِ أن يراني لحظةَ القبضِ عليه، لكنه لم يسمح بذلك، إذن رحلَ قبلي!! بالتأكيد أنه من رحل قبلي لا محالة، رحلَ دون أن

أدري إن كنتُ أنا من صاحَ بهم أم هو، إن كانَ هو من رحلَ أولًا أم أنا، يُحيرني هذا الموقف تحديدًا لشعوري بالخيانةِ لوالدي الذي لو لم أرحل لما كان بهذه القذارة، لا زلتُ مُتعبًا من خذلاني له رغم ما يستحقه، لا زلتُ مُتعبًا من حملي لدماء العجّان والعملِ بمقتضاها رغم ابتعادي عنه مُدَعيًّا الاختلاف.

{حمقاء إن صدقتِ ما قاله سيفٌ هذا، وحمقاء إن تركتهِ يحيا أكثر من ذلك. حقنةٌ سامة تنهي هذه المسرحيةَ لتحتفظي بنصوصهِ كشاعرٍ أملى عليكِ آخرَ ما كتب، مليون، ميلونا نسخة تعني الثروة على أقل تقدير، ستحصلين على أكثر من ذلك، نصُّه ميتًا أثمنُ لدى دور النشرِ والقارئِ من نصِّهِ حيًّا. كوني قاتلةً فحمقُكِ لن يقدمَ لك سوى الحرمان والهروب، لكنني لا أستطيع، لن أفعلَ ذلك، لستُ قاتلةً بل موجوعةً فقط، أُشفقُ عليه رغمَ كلِّ شيء، لستُ غاضبةً منه، أنا غاضبةٌ من نفسي لا أكثر، ليكن ما أراده، لن يكتشفَ أحدٌ حقيقته إلا إذا اعترفَ أمامهم بهذه الحقيقةِ لا غير، الحروق والعمرُ والسجنُ والحربُ مُبرراتٌ لتصديقِ ما سيقوله حتى لو تعارضَ مع ذاكرتهم عنه، سيُصدقون بعد موتهِ أنه هو لأنهم بحاجةٍ لذلك، أنا أيضًا كنتُ بحاجةٍ لتصديقه، سيلا لم تفرق بينهما رغم الفحوصات، الفحوصات لم تعد موجودة فدن حذفها بناء على أمر المدير ضمن قرار غريب، كلُّ شيءٍ يحدث هنا غريب وغير منطقي، تحوُّلُ أصلان لآخر، اختفاء سيلا، إنغراق دن بغموضه، ولطفه، ومداراته لي، اهتمام رجال الأمن السنباري به وزيارته للتأكد من شخصه، حذف الفحوصات فجأة، أما العالم الخارجي فهو لا يثق بإعلام، وعلم، وحكايا سنبار، سيصدقونني أنا فقط لا ما يصدر عن سنبار بخصوصه إن حدث لغط ما، حتى إن حدث لغط فهذا من حظ ما سأقدمه لدور النشر من أحداثٍ حدثت هنا مع شاعر مشهور}.

- عموما سنكملُ إذن مسرحيتَك.

- ماذا تقصدين؟

- لتكن أصلان حتى مماتك، كن ما أردتَ شريطةَ أن تُحدثني أكثر عنه طالما أنك قد قرأت مذكراته ورافقته وحيدًا، تاركًا ليَّ الحق بالتصرفِ بجميعِ هذه الكتابات، ألم ترد من البداية أن تموت مثله وباسمه؟ ليكن كذلك، هي مصالح مشتركة.

ضحكَ كثيرًا، ضحكَ تلك الضحكة التي أحفظها عن ظهرِ قلبٍ حين كان يضحكها شاعري على التلفازِ أو أثناء أمسياته، ***{لا يعقل هذا التشابه بينهما حتى ببروتوكولاتِ ضحكته، لقد تقمَّص دوره بالكامل قبلَ أن يأتي إلى هذه الجزيرة، لقد توحَّد هاربًا بشخص شاعري فقلَّده بأبسطِ قبل أعظمِ التصرفات}***.

حدَّق بي مُبتسمًا.

- موافق.

تركته وتوجهت للحديث مع دن الذي ما إن رآني حتى ابتسم ابتسامةً دافئة، فقلت له قبل أن يبادرني بأي شيء:

- لم أعد أكترث لشيء حقيقة، كل ما يحدث هنا يودي بي للجنون.

- ولا حتى بشاعرك؟

- ليس بشاعر، هو شخص اسمه سيف انتحل اسم معروف يومًا، أنت تعرف هذا، وقد حدثتك عن غبائي وحمقي بما فيه الكفاية.

- وما أدراك؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد بأنه قد يكون شاعرك أصلان.

- لا ليس كذلك، أنت تخفي عني شيئًا يا (دن، أشعر بهذا، قل ما لديك أرجوك. *قلت هذا والحيرة بدأت تفتك بي مجددًا*.

- لا أعرف، هي تساؤلات فقط، لو كنت على علمٍ بشيء لأخبرتك به.

لم أصدقه، ولأن الحديث حول أصلان بدا متعبًا فقد قطعت الكلام ثم توجهت للسكن مجددًا لأحظى بالراحةِ الفكرية والنفسية، بعد كمية المفاجآت التي منيت بها بسبب سيف اللعين هذا.

رحت أتذكر في سكني حكاية "فطيرة الدم اليهودية" قبل أن أستسلم للنوم، وهي ليست حكاية خرافية مثل حكايةِ ***أبي رجلٍ مسلوخة*** آكلِ الأطفال، بل حكاية حقيقية أبطالها اليهود.... حكايةٌ محفوظة بوقائعها في المحكمة الشرعية في ***(حلب)*** و***(حماة)*** و***(دمشق)*** منذ عام ١٨٤٠م.

"فالأب ***(توما)*** وهو من رعايا الحكومة الفرنسية، مارس الطب فعرفه الناسُ في دمشق. ثم قام بتطعيمهم ضد الجدري، متنقلًا بين حاراتِ دمشقَ لأكثر من ثلاثين سنة. قصدَ عصرًا حارةَ اليهود، ليلصقَ إعلانا على البيوت، والمحلات، والمعابد، والكنائس ببيعِ بيتٍ في المزاد العلني لأحدِ رعاياه يدعى ***(ترانوفا)***، وعندما وجد خادمُه ***(ابراهيم)*** أنه لم يعد في موعده إلى ***(دير تير سانت)*** بحثَ عنه في حارة اليهود غروبًا، غيرَ أنه لم يعد هو الآخر. بدأت التحقيقات في اختفاء الأب توما لكن التفتيش لم يسفر عن شيء، في تلك الأثناء حضر يونانيان هما ***(ميخائيل كساب) (ونماح كلام)*** مقرَّين بأنهما: شاهدا خادمَه، وهو يدخلُ مُسرعًا قلقًا متوترًا حارةَ اليهود، وعند سؤاله أجابَ: بأنه يفتش عن سيدهِ الذى جاء إلى

المكان ولم يعد... بعدَ تتبع الإعلانات التي جاء الأب للصقها، وجدوا إعلانا على دكانِ حلاقٍ إسرائيلي اسمه ***(سليمان)*** يسكنُ بالقرب من المعبد اليهودي، فقبضوا عليه وبعد ضربهِ بالكرباج اعترف بأن الأب توما قابلَ في الحارةِ مجموعةً من حاخامات اليهود ***(موسى بخور وموسى أبى العافية ويوسف ليتيوده وداود هرارى وأخويه واسحاق وهارون)***، ثم اعترف بأنهم جميعًا دخلوا بيتَ داود هرارى بصحبةِ الأب توما.... ثم اعترف بأن الحاخامات دعوه بعد الغروب بنصف ساعة إلى بيت داود هرارى طالبينَ منه أن يذبح الأب بعد أن وجدهَ مربوطَ الذراعين، فأجابهم بعدم قدرتِه على ذلك، فلمَّا وعدوه بدراهم ذهبية وفضية وقد أصرَّ على الرفضِ، قالوا له: بأن من يفعل ذلك يرضي الربَّ، ويدخل الجنةَ، ليلعب مع أنثى الحوت التي وعد الرب اليهود الصالحين بطعامها يوم القيامة.

قام أحدهُم بإحضار سكينٍ حاد، وألقوا الأب توما على الأرض واضعينَ رقبته في وعاء كبير، ليذبحوه، ويجهزوا عليه حريصينَ ألَّا تسقط نقطة دمٍ واحدةٍ خارج الوعاء، ثم جروه من الحجرة التي ذبحوه فيها الى غرفة أخرى ونزعوا ثيابه وأحرقوها، وقطعوه إربا ووضعوه في أكياسٍ أعدِّت لذلك مرة بعد مرة، حاملينَ إياها إلى المصرف القريب من حارة اليهود.

- ماذا فعلتم بعظامه؟

- كسرناها بيد الهون.

- ورأسه؟

- كسرناها بيد الهون أيضًا.

- وماذا فعلتم بأحشائه؟

- قطعناها ووضعناها داخل الكيس، ورميناها في المصرف.

- هل كان الدم ينقط من الكيس؟

- كلا.

لقد كانوا حريصين على كل نقطة دم، حرصهم على الذهب والتلمود.

- لماذا؟

- يستعملونه في الفطير.

- كيف ذبحتم الأب توما؟

- أحضرناه عند داود باتفاقنا معه وقتلناه لأخذ دمه، وبعد أن وضعنا الدم في قنينة أرسلناها إلى الحاخام موسى أبي العافية، وقد فعلنا ذلك اعتقادًا بأن الدم ضرورة لإتمام فروض دينية.

- لماذا يستعمل الدم في ديانتكم؟

- يستعمل لعجن خبز الفطير.

- هل يوزّع الدم على جميع اليهود؟

- كلا إن ذلك غير ضروري وإنما يحفظ عند الحاخام الأكبر.

- ماذا ينفع الدم؟ هل يوضع في الفطير؟ وهل يُعطى لكل الشعب اليهودي؟

- ينفع الدم لوضعه في الفطير الذى لا يُعطى عادة إلا للأتقياء من اليهود، وهؤلاء الأتقياء يرسلون الدقيق إلى الحاخام الأكبر يعقوب العنتابى، وهو مَن يعجنه بنفسه، ويضع فيه الدم سرًا دون أن يعلم أحد بالأمر، ثم يرسل الفطير لكل من أرسل الدقيق.

- هل سألت الحاخام يعقوب العنتابى عما إذا كان يرسل من هذا الدم إلى الحاخامات في الدول الأخرى أم يبقيه لأهل الشام فقط؟

ـ قال لي الحاخام يعقوب العنتابى إنه ملزمٌ أن يرسل من هذا الدم إلى يهود بغداد.

- هل كان القصد قتل راهب بعينه أو قتل أي مسيحي؟

ـ كانوا يريدون دم أي مسيحي مهما كان، لكنهم اختاروا الأب توما لأنه وقع بين أيديهم بالصدفة.

- لماذا تفعلون كلَّ هذا؟ ما دافعكم؟

- استعمالُ الدم في فطائر اليهود أمرٌ مذكور في أحد كتبنا المسمى ***(سادات أدار هوت)***، وهو كتاب مقدس يتوارثه الحاخامات منذ أزمان سحيقة، ولم يأت من ينكره، أو يرفض العمل به، يقولون إن جميع الخارجين عن اليهود هم حيوانات ووحوش، لأن إبراهيم عندما أخذ ولده إسحاق ليقدمه ذبيحةً أثناء اصطحابهِ خدمه قال لهم: امكثوا هنا أنتم والحمارة بينما أنا وولدي سنذهب إلى الأمام، من هذه العبارة استنتج التلمود بأن كل من هو غير يهودي يصبح من فصيلة الحمير، أو من فصيلة الحيوانات غير العاقلة، وحتى ذلك الوقت كان حاخامات اليهود يتركون مساحات بيضاء في كتبهم حتى يتمكنوا من طبعها في أوروبا، وهذه المساحات البيضاء تكتب بعد ذلك بخط اليد، أما ما يكتب بخط اليد فهي العبارة التي تسب السيد المسيح وأمه السيدة العذراء، والعبارات التي تبيح عجن فطائر عيد الفصح بدماء غير اليهود.

على أن المثير في قضية الأب توما أن الحاخامات القتلة عندما تخلصوا منه لم يتردد أحدهم في أن يسرق ساعته ويخفيها عن

الآخرين، وعندما سئل عما فعل، لم ينكر، وقال: لقد سرقنا روحه وهى حلال لنا فلماذا لا نسرق ساعته".

تذكرتُ العجّان حين حدثني عن كأسِ الدم فكدتُ أقيءُ روحي من جسدي... يتشابهُ الشرُّ وأسبابه وأمراضه ليس لدى الأفراد فقط بل والجماعات أيضًا.

عندما استفقت كسولةً وكنت قبلها قد جلست ناظرة للبحر البعيد وقتًا طويلا؛ قبل أن أتقلب في فراشي وأنام ارتديت ملابسي على مهلٍ سلحفائي ثم توجهت للمشفى غير عابئةٍ بشيءٍ حدث أو قد يحدث.

توجهت لدن فلم أجده بيد أني وجدته يسيرُ في الممر بصحبةِ شاب نحو غرفةِ سيف، عجَّل الفضول خطوتي سيما أنها المرة الأولى التي أرى فيها شخصًا من خارج كادر الموظفين والأمن السنباري في المشفى.

أسرعت حتى لحقت بهم عند باب الغرفةِ وقد دخلوه، هذه المرة وجدت رجال الأمن قد وقفوا أمام سرير سيف يتحدثون بحديثٍ مغزاه أنه سيعود للسجن وقد استقرت حالته.

- أي حالةٍ تلك التي استقرت؟ ***صحت بهم كأنني غولةٌ استفاقت من نومها للتو فتفاجؤوا من غضبي.***

- هذه أوامر ويتوجب علينا تنفيذها. ***راحوا يتحدثون متجاهلين وجودي بالكامل.***

نظرت إليه وقد ارتسمت على وجهه ملامح كلِّ ذعرٍ في الدنيا، بينما شعرتُ بالشفقة عليه، لقد طالت مدةُ علاجه ولم يمت فقرروا الآن أن يموت ببساطة، لم يحالفه الحظ أن يموت في المشفى كإنسان، فأرادوا له الموت كجرذٍ في حبس قميء.

استدرتُ لأعبر عن حزني لدن بيد أن حدقتا عيني اتسعتا حتى كادت عيناي تنفجرانِ من تمددهما حينما وقعتا على الواقف بجانبهِ ببدلةٍ أنيقة... تقمصني الذهول حتى كدتُ أقع أرضًا فتيبست قدمي وتشبثت بالأرض كي أتوازن من هول الصدمة.

هذا هو آخر من رمى به القدرُ لهذه الجزيرة، لم يكن الشاب سوى ميمون... ميمون بكلِّ ما فيه، دهشةٌ تتبعها دهشةٌ في هذا المشفى اللعين، وغرابةٌ تزيحُ غرابةً بغرابةٍ لا يتوقعها أحد.

صحت به مستنكرةً: ميمون!!

عضَّ على شفتيه بالوقت الذي أشار لي فيه دن أن أصمت.

وسط ذهولي راح ميمون يتحدث بالسنبارية لرجال الأمن ويخبرهم عن آلية نقله السريعة للسجن، بدا وكأنه واحد منهم، أو من يترأسهم لهذه المهمة، ولأنني لم أعد أفهم شيئًا، ولأن دن شدَّ على يدي أكثر من مرة هامسًا أن أصمت؛ لأن الأمر ليس كما أراه فقد سكتّ، ولم أعد أحرك ساكنًا، ولم أنبس ببنت شفة.

أيُّ أقدارِ هذه التي جمعتنا في هذا المكان؟ وأيُّ أقدارِ هذه التي جاءت بنا من وطننا لنقف على حقائقَ حدثت فيه هنا؟

يتذكرني بالقدرِ الذي أتذكره تمامًا، تغيَّرَ كلُّ شيء فيه غير أنني عرفته، وعرفتُ أنه عرفَني لحجمي، لصوتي، لمعرفتي به، أمَّا سيف فبدا كأنه يراه للمرةِ الأولى، نظر للجميع، لرجال الأمن، لي، لدن وميمون بعين الدهشةِ والفضول كمن ضلَّ طريقه بالكامل فظلَّ على هذه الحالةِ يائسًا تائهًا غارقًا بأفكاره فلم يتفوه بشيء مطلقًا.

ها نحنُ نلتقي مرةً أخرى حيثَ قُدِّرَ لنا ذلك، نلتقي بعد أن لفظني الهروبُ لأحداقِ سيفٍ وميمون فلم أعد مدركةً إلا لحقيقةٍ واحدة: وهي أننا نقدِّرُ ما أردناه لتضحكَ الأقدارُ من تقديرنا.

شعرت بدوار فأمسكني دن خوفًا من وقوعي، أمسك يدي وقرَّبني منه فشممتُ عطره... ***{هذه هي المرة الأولى التي تلتقط فيها أنفاسي رائحة عطره اللصوصية}***. عطرُه ولمسة يديه ذكرتني بامرأةٍ أو رجل الطائرة. تقصَّدت أن أرتمي على صدره، وألامس جسده. هو جسد تلك الخنثى، أشعر بهذا، كلِّي يقول لي هذا، تعتريني تلك الرعشة التي اعترتني على متن الطائرة.

أتكونُ الأقدارُ ذاتها مَن أجلست بجانبي في طائرةِ القدومِ ذاك المكلوم؟ أكانَ رجلًا حقًا؟ أكان هو المقتولُ بزوجته؟، كانت امرأةً بكلِّ ما فيها، بكت فأبكتني فأمسكتُ يدها واحتضنتها بقوة، شعرتُ بحاجتها لهذا العناق، شعرتُ بحاجتي لأن أفرِّغَ ذبذباتِ قلبي التعيس عبرَ جسدها، بدوتُ توَّاقةً لاحتضانها أكثر من حاجتي للتخفيفِ عمَّن لا أعرف.

شعرتُ بالتقزز حينَ لم أتبين ذكورتها من أنوثتها، إنها رجل، مخنثٌ على هيئةِ أنثى، أيُّ رموشٍ وشعرٍ مستعارٍ ساعد هذا الوجهَ على الاختفاءِ خلفه، لكنه يملكُ نهدين صغيرين، شعرتُ بهما فكيفَ جاءَ بهما لجسدٍ رجوليٍّ كهذا؟ لعلَّه المقتول خطأً. يحزنني شعوري بالتقزز حينها الآن، لقد آلمتُ مَن وفى لزوجته ميتةً عبر جنونه، بينما استحقَ أكثر من عناقٍ تبعَه اشمئزاز حتى وإن كان ذلك في جنباتِ أعماقي التي لم يلج إليها. كيف حكمتِ على قناعهِ بالرذيلةِ بينما تقنَّع بالوفاء عبر التضحيةِ بجسدهِ وروحهِ لمن لم تعد؟ هل هو دن؟ هل هو حقًا؟ أحدق بعينيه هذه المرة... عينيه اللتين تشي به.

القناعُ الحقيقي لا نستبدله بحربائيةٍ حين حاجتنا له، بل هو جزءٌ منَّا يُظهِر للناظرِ إليهِ ما أراده لا ما أردناه له، يحصُلُ التلوُّنُ في عيون الناظرين إلى القناعِ لا القناعِ نفسه، وها أنا الآن أرى ميمونًا وفقَ عينيَّ وما تريدانِ أن تراه لا ما أظهره القناعُ من حقيقته.

- أنت سيف؟ *سأله ميمون وقد وقف أمامه بعد أن أمر رجال الأمن بانتظاره خارجًا.*

- لا أدري من أكون، لكنني لا أودُّ أن أكون سيفًا.

- تمنيتُ لقاءك طوال عمري.

- أمَّا أنا فقد تمنيتُ ألّا ألتقي إلا بنفسي.

لم يتعانقا، لم يضمَّا سوى المسافةِ بينهما، لم يتحدثَا عن والدهما، عن حياتهما، ماضيهما، عن أيِّ شيءٍ لم يكن بينهما، ما جاء هو من أجله، ما يتوقعه هذا من زائره، لم أرَ حميميةً في عيونهما ولو بقدرِ يسير، بدا اللقاءُ فاترًا ميِّتا كموت عقاربِ ساعةِ الحائط.

- من عجائبِ الحياةِ أن نلتقي هنا. *وجَّه ميمون هذه العبارة لي.*

- مِن عجائبهِ أنْ لا زلتَ تذكُرني.

- وجودكِ لا يُنسى، محفورٌ بذاكرتنا جميعًا، المهم ها قد حضرت لأجلكم أخيرا.

- لأجلنا؟! لم أعد أفهم شيئًا.

هي لحظات فقط حتى عرفتُ أن دن خلف تواجده هنا؛ ووسط غرابة الأمر إلا أنني شعرت بارتياح مفاجئ حين بدأت تتضح لي الرؤيا بأن شيئًا ما كان يحدث في الخفاء يديره دن. لن يذهبوا به إلى السجن، حدسي يقول هذا، وبعض الجمل التي تنساب من صوتهم أيضًا عن الهروب والخلاص من هذا السجن.

أما سيف فحاولَ كثيرًا أن يتذكرَ صورة ميمون لكنه فشِل بذلك، قال لي بأنه لا يتذكرُ وجهَه مُطلقًا.

- لقد كان في القفصِ بجانبِ والدك.

- لم أره يومًا .. لا أتذكره.

- هي الحرب، والسجن، هي الذاكرة المتعبة.

- لا أعرف، هل أنتِ متأكدة بأنه ميمون؟

- بالطبع، هو الشخص الوحيد الذي لا يُمكنني نسيانه.

- كيفَ لي أن أنسى وجهَ أخي؟ ***{أيُّ ذاكرةٍ هذه التي تتذكرُ أبعدَ الأشياءِ وأحقَرها تاركةً بعض النقاط الأهم في حياتي؟ لا أذكرُ وجههَ رغمَ أنني لطالما تمنيتُ أن أفعلَ ما فعلَه أثناء هروبي، سيعيدونني للسجن، لكن ما علاقة ميمون بهذه الجزيرة اللعينة؟ وكيف تحول لرجل أمن هنا؟ ليتني متُّ بتلك الحقنة، كانَ بإمكانها خنقي فقط لكنها لم تفعل، كان بإمكانها نسياني أو قتلي أو تقبيلي لكنها لم تفعل، بَحثت في جسدي عن شيءٍ ما فلمَّا وجدتهُ تيقَّنَت بأنني سيف فحقنتني ومضت. لم تترك الحرب ما أذكره من جسدي ولا مِن ملامحي، الانفجار شوَّه خارجي بالقدرِ الذي شوَّهَ داخلي، لا زلتُ أتذكر يومَ سرت مع أصلان للمسرح، جلسَ يُحدثني عن شوقهِ لحنان، حدثني عن الألمِ الذي يحمِله في روحه، عن التشابهِ الغريب بيني وبينهَ في الصوتِ، والعينينِ، والحقارة.***

- هل ترى نفسَك حقيرًا إلى هذا الحد؟

- وأكثر.

- يا صديقي، أنا قاتل، سافل، رجلٌ بل ذكرٌ كاد أن يضاجعَ شقيقته.

- أهون مِن أن تضاجعَ مبادئك وأخلاقَك، واتزانك من أجلِ قلبٍ لا يستحق، أهونُ من أن تخونَ وطَنك، وصديقَك، وصورتَك أمام الآخرين من أجلِ قلبٍ مشاع لا يفرقُ بين الطيرِ والأفعى، ولا الذئبِ والحمل.

- هو خطأ واحد.

- بل كارثةٌ واحدةٌ أجهزت على كلِّ شيء، ليتنا استبدلنا أدوارنا في الحياةِ يا صديقي، كلانا يتمنى الآن خطيئة الآخر مُحَجِّمًا قبحَها، ليتنا استطعنا تلبُّسَها والتعايشَ مع حقيقتها، أحسدُك على ما اقترَفتَ فتحسدني على ما لا أُحسد عليه. لقد قَتلَتْ سميرًا، قتلت صديقي، فساعدتها على الهرب لا الموت، على الفرار لا السجن، أحملُ على ظهري ألمًا يكادُ يقصمه، كم أودّ أن أعترف بذنبي أمام الناس، عليهم أن يعرفوا حقيقةَ البطلِ الذي رسموه، حقيقةَ البطل الكرتوني الذي راحت رياحُ الرغبةِ والعاطفةِ تحملُهُ وتحطهُ في زوابعها العابرة، بدأ الأمر من نزار، صمتي عن ذنبه وطيشهِ والتسترِ على فضائحه أوصلني إلى هنا، بأيِّ وجهِ حقٍّ دخلت نيران وهند السجن بينما حلَّقَ في معاصيه بالخارج رغمَ اشتراكهِ بالجرمِ ذاته؟ حتى أنت، لماذا عفوتُ عنك؟ مَن خوَّلني لأكون القاضي والجلادَ، والسجانَ، والمخلِّصَ في آن واحد؟ ميمونك سُجنَ لأنه ابن العجّان لا غير، أمَّا نزاري فقد بُرِّئَ لأنه ابني؛ ابن الشاعر المعروف الذي لا تريدُ دولته المساس بقيمته بعد أن جعلت منه رمزًا لقضيةٍ لم يصنها. العجّان ذاته يومَ عفوتُ عنه ظنَّ بأنني فعلتُ هذا لأنني عاملته كإنسانٍ في الوقتِ الذي لم يستحق فيه معاملةَ الكلاب، كان سارقًا مُغتصِبًا، عفوتُ عنه لأنني لم أرَ فرقًا بيني وبينه حينها. دخلَ خائنًا بينما كنتُ خائنًا في ذات الوقت لكلِّ ما آمنت به سابقًا، ضحكتُ حينما قرأتُ حديثَه عني في

الصحف بعد أن تابعت بعض جلساتِ محاكمته على الشاشات. لقد أثَّرت فيه... تأثَرَ بسببِ نظرةٍ وحديثٍ دافئ، وعفوٍ كاذب، بيد أني وقد رأيتهُ في الحلمِ الذي تحققَ يوم خطف البدينَةَ ليسرقها أو ليغتصبها قلت: ليست مصادفةً أن ألتقي بولدهِ في الخارج وبه في الداخل، ليست مصادفةً أن أرى خيانتي، وحقارتي، وسفالتي تتشكل أمامي على هئيةِ رجلٍ يُدعى العجّان بعد أن رحتُ أبحث فيهِ عني.

- تكرههُ أكثر مني.

- بل أكره نفسي، لكنني سأعترف بحقيقتي، سأتحدث للجمهور بما فعلت، سأعترف بما اقترفت يداي، لقد تعبتُ كثيرًا، لقد طاردتُني كثيرًا، وآن لي أن أستريح.

حاولتُ إقناعه ألّا يفعل لكنه رفض ذلك، بدا مُتعبًا عبرَ سنواتِ من ذاك الموقف، اتجهنا للمسرحِ من الكواليس لكنَّ الانفجار بعثَرَ وجودَنا كما بعثَرَ المكان، رأيتَه ميتًا مُبتسمًا بينما رأيتني أحترقُ قبل أن أتحاملَ دافعًا نفسي لدورة المياه مانحًا جسدي الماءَ المتدفق من أنابيبه المتفجرة، لقد منَعه الموت أن يعترفَ بخطيئته بينما حملتني الحياة للكذبِ مجددًا بعد أن لفظني البحرُ إلى السجنِ فالمشفى}.

قادنـي دن بسرعةٍ لغرفةِ التمريض قبل أن يتحول لشخصٍ جدِّي أكثر من اللازم، أردتُ الحديث غير أنه وضع يده على فمي وحدَّق بعيوني قائلًا:

- من الآن فصاعدًا لن تتكلمي، ستستمعين لي جيدًا، وبعد ذلك ستفهمين كلَّ شيء، سنهرب؛ أنا وأنت ومريضك، سنعود للوطن، الليلة سنعود بعد أن تسنح الفرصة، ثقي بي فقط، لقد دبرت كل شيء، خروجنا سيكون أسهل مما تتصورين.

أفلتني واستدار يتابعُ عمله بهدوء كأن شيئا لم يحدث، وقد جلستُ لا أعرف ما عليَّ فعله، لكنني عرفتُ شيئًا واحدًا وهو أنني لا أملك من أمري إلا أن أتبعه.

علمتُ أن ميمون ينتظرُ سرًّا في إحدى الغرف لتهريبنا مع رجال الأمن السنباري المزيفين بعلمٍ وتسهيلٍ من مدير المشفى، بينما جلست في مكاني كطفلةٍ تنتظرُ بائع المثلجات على عتبةِ بيتها بشغف كبير، لا أعلم ما الذي يحصل وسيحصل لكنني أنتظر.

حمقاء بالكاملِ ستكونين إن أضعتِ من بينِ يدكِ ميمون، لقد قالَ بأنه يفعلُ كلَّ شيءٍ مقابل المال حين تحدث لدن، تملكينَ مبلغًا لا يُستهان به لكي يقبلَ ممارسةَ الحبِّ معك، عامليه فقط كسيدةِ أعمال وتحدثي له بصراحةِ عن مرادك "الجنس مقابل المال". ***{سيقبل بالتأكيد}***. لا تضيِّعي هذه الفرصة، فور وصولك للوطن اطلبي منه هذا، تحدَّثي إليه بكل وضوح.

قلتُها بصوتٍ عالٍ: "تحدثي إليه بكل وضوح".

- لمن؟ ***سألني دن ضاحكًا وقد التفت نحوي مبتسمًا***.

- لسيف. ***قلتها متأتئة وتعلثمت معها ملامحي***.

أردت المغادرة، لكن الخوف فجأةً تملكني من فكرةِ الهروب، نعم أريد الهروب والخروج من هذا المكان؛ لكنه الرعب الذي حاولت طرده وعدم التفكير به قبل قليل باختلاقِ أوهام من هنا هنا يفرضُ نفسه؛ لأشعرَ برعشةٍ تبدأ من أطرافي حتى أطراف شعري.

- هل سنهرب؟ *قلتها غير مصدقةٍ كأنه لم يقل لي هذا ولا أخبرني عنه.*

- ثقي بي فقط. *قالها وقد استدار بكرسيه نحوي كي يراقب انفعالي المفاجئ ولعله كان ينتظره وتعجب من تأخره فقط.*

- وبهذه السهولة؟!!

- لم يكن سهلا، لكنني تدبرت الأمر، أرجوك فقط أن تثقي بي لا أكثر.

رحتُ أرتجف كأنَّ ماسًّا كهربائيًا أصابني بينما نهض دن وأمسكني من يدي وحدَّق بعينيَّ صارخًا: اهدئي، يجب أن تهدئي.

رأيتُ ملامحَ الغضب التي لم أرها مسبقًا في وجهه ثم كست حمرةٌ ليس دافعها الغضب بل الخجل وجهَه بعد ثوانٍ من صراخهِ بي. وقفَ أمامي ثم وجهَ كلامه لي كما يوجه العسكري كلامه لمن يعلوه رتبةً:

- ريم، ريم هل تقبلين الزواج بي؟

هذا هو السؤالُ الذي تمنيتُ منذُ نهَدتُ أن أُسأَلهُ، بل هو السؤالُ الوحيد الذي لم أتوقع يومًا أن يوَّجهَ لي. انتظرتُ طوالَ عمري عبارةَ غزلٍ عابرة، نظرةَ شبقٍ مارة بالقرب لا أكثر، أمَّا هذا السؤال فهو المعجزةُ الأخيرةُ على الأرض لا محالة "بعدما ولَّى زمانُ المعجزاتِ".

دن هذا الستيني الوسيم صاحب العينين الوقَّادتين، والنبرة الرشيقة الخشنة، هذا الرجل الأنيق الدافئ ذو البشرة الداكنةِ، والأنفِ الحاد وشعرهِ المتماوجِ بالسواد والبياضِ يطُلبني للزواج، يطلبُني أثناءَ أرذلِ حوارٍ صريحٍ بيني وبيني.

- أعِد ما قلته.

- هل تقبلين الزواج بي؟

- أعدِ.

- هل تقبلين الزواج بي؟

- أعدها مرةً أخرى. *قلتهُا موجوعةً بنبرةٍ مرتجفة وبأنفاس متقطعة مخنوقة*.

- هل تقبلين الزواجَ برجلٍ يمتلُك قلبًا أحبَّكِ؟

لم أُجب، الكلماتُ وحدها لا تكفي لمثلِ هذا الجواب، العباراتُ الواضحةُ قد تقتلُ الأجوبةَ الحزينةَ السعيدةَ إن نطقتُ بها، احتضنتُه، دفنتُ رأسي في صدرهِ مجهشةً بالبكاء الأنيني المتواصل، ولجتُ ألمي الذي هربتُ منه دومًا لتقوقعي البائس، زفرتُ بألفِ آهٍ تكتنزُ آهاتٍ مُرهقاتٍ مُفرِّغةً حمولتها الثقيلةَ على صدره.

أنا أنثى، أنا روحُ القيثارةِ، ورجفةُ البيانو، ورعشةُ العود الشرقي، أنا غنجُ العباراتِ التي تنثالُ من شفتيّ شاعرٍ عاشق رسمتني بها نبراتُه بريشةِ الصهلة، أنا السماء الزهريةُ، والبحرُ الليلكي، والنوارسُ الحوراءُ تسبحُ في شمسِ الآمالِ البعيدة، أنا أشجارُ القوسِ قزحية حين تحملُ الخوخَ العسلي، والإجاصَ المخملي، والرمَّان العنَّابي، سامحةً للهدوءِ أن يداعبَ أغصانَها الملوَّنةَ الناطقةَ عطرًا روحانيًا، أنا السنابلُ الطفوليةُ حينَ تجري خلفَ النسائمِ مرتديةً وشوشاتِ القصيدة، أنا الأنهارُ المخمليةُ يومَ تصبُّ

في صمتِ الخيالِ الواسع، أنا الأرضُ الهلاميةُ القابلةُ لاحتلالِ المطرِ الناعم، والريحُ الغاضبةُ، والشمسُ الباردة، والأنهارُ العابثةُ، والهدوء الصاخب، والضجيج الصامتُ بكلِّ ما فيها، أنا أحياني الآن بكلِّ ما جهلتُ يومًا من نفسي.

عانقتهُ لأنَ مسافةَ الصفرِ بين الجسدين هي أصدقُ مقاييسِ الروح. عانقَني بشدة فراحَ يبكي أيضًا، راحَ يبثُ شوقًا غريبًا لم ألمسه يومًا.

كاد أن يخترقني كلَّما توحدَ بي، كاد أن ينتزعَ قلبي بدقاتِ قلبه، وينتشلَ طبولَ نبضي بآذانِ نبضاتهِ المتسارعةِ،***{لا تسألي كيف يتحول الفمُ لأذنٍ والأذن لفمٍ نهمٍ يلتهمُ أوجاعَ الأنينِ في قلبٍ صحراوي؟}***.

لم أفكر أن ألمسه مُسبقًا ليأسي المتجذرِ في روحي، لم أره يومًا، لم أحدِّق في عينيه يومًا، لم أفكر أن أفكرَ بأيِّ همسةٍ ونظرةٍ وعبارةٍ صدرت منه.

حمقاء أنا...

حمقاء يومَ تجاهلتُ رجلًا لطالما سألَ عني في غيابي، ناقشني بأتفهِ الأمور مُتقبلًا سذاجتي ضاحكًا على كلِّ سخافاتي، حمقاءُ يومَ تجاهلتُ رجلًا ابتسم لي فور رؤيتي، عاندني بما لا يكترثُ به، حاورني كما أريدُ له أن يحاورني، أقنعتُ نفسي أن أشجاري ذبُلت فحقَّ للتجاهلِ والحرمانِ قطعها، وأن أرضي لا تصلحُ للحرثِ والبذور، وأن سمائي لا شمسَ فيها وغيمي لا مطرَ يسكنه. مذ وصلتُ هنا وأنا لا أنفكُ أجلدُ بدانتي، مجترَّةً أحاديثَ الطفولةِ والمراهقةِ لا غير، ومذ كبرتُ وأنا أتحاشى المرآة كعدوةٍ ستوجه لي ألف عبارةٍ قاتلةٍ إن حادثتها، حتى تحاشيتُها بالكاملِ أثناء

دوراني في فلكِ العباراتِ ذاتها عن بدانتي وقبحي... هل أنا قبيحة؟، كيف لي أن أجيبَ نيابةً عن وجهي؟ عن العيونِ التي تراني لحظةَ هروبي منها خشيةَ قراءةِ جوابٍ أتوقعهُ ولا أقسمُ عليه؟ كيفَ أُجيبُ نيابةً عن أذواقِ الرجالِ المختلفة؟ لقد رقتُ للستيني قبلها بكلِّ صفاتي، وقرأتُ اللهفةَ والصدقَ فيهما، لقد أرادني حينَ رفضت، ثمَ بنيتُ من أحاديثِ الناسِ وتجاهلهم سورًا يحيط بي خشيةَ أن تطأ أرضي نظراتٌ ساخرة لا تقتصرُ عيون الكون عليها، هناك نظراتٌ أخرى على هذا الكوكب، هناكَ أيادٍ خشنة قد تشتهي قطفَ ثمارك، تختلفُ قطعًا عن الأيادي المودِّعَة والساخرة. لو لم يأتِ البوليس ليلةَ اختطافكِ لاغتصبوك، لم يأتِ بك العجّان للعب النردِ معك ولا التحدث في السياسةِ، ولا مسامرتك كضيفة ودعوتك للعشاء، كنتِ هدفًا وفريسةً ككل الضحايا، كنتِ أنثى ككل الإناثِ اللائي عبرن من ذاك المكان ليخرجنَ مخدوشاتِ الحياء والروح والجسد، كيف سمحتِ لنفسك أن تتعاطفي مع حقيرٍ سافلٍ كالعجّان؟ كيف استطاعَ حقدُك أن يدفعَكِ للإشفاق عليه؟ لقد انتقمَ لك من النساءِ بغضِّ النظر عن حسنهن وقبحهن، بغضِّ النظر عن بدانتهن ونحافتهن. هل كرهتِ كلَّ النساء؟ لم تكوني كذلك، فلماذا تعاطفتِ معه؟ لماذا لم تتعاطفي مع ضحاياه اللائي كنتِ على شفا دقائقَ لتكوني واحدةً منهن؟ لو فعلَها لأفسدَ حياتك كما أفسدَ حياةَ الكثيرات بسبب أمراضه، وحقده المزمنِ على البشر. لقد أراد الثأرَ ممن لم يقترفوا ذنبًا بحقه. أكره العجّان، أكرههُ بالقدر الذي أحبُّ فيه دن، لطالما ادَّعيتِ أنك الناجيةُ ببدانتكِ قبلَ إنقاذكِ من رجال الشرطة، كلا، عليكِ الآن أن تعترفي أنك من نأى عن الرجالِ مانعةً إياهم الاقتراب منك خوفًا من جرحٍ مجاني بسببٍ ضعفكِ، وشخصيتك المهزوزة. تساءلي الآن بكلِّ صدق وتجاهلي كلَّ عوالقِ روحكِ القديمة، تساءلي بصوتٍ قراري داخليٍّ مرتفع:

وهل تكون العلاقات بلا جراحٍ وصدمات؟ تساءلي: وهل من المعقولِ أن تقتربَ منك عينٌ إذًا ما نظرت لها بعينك؟ تساءلي: كيف لك أن تقرري أن ما ستجنيهِ من المسلَّمات الكونية هي الجراح لا غيرَ متجاهلةً أن للحياةِ وجوهًا كثيرة؟

عانقيه، اتركي جسدك يستريحُ من عنائه في جسده، اتركي روحك تنامُ في لحظةِ الحقيقةِ لأن الأحلامَ لا تزور النائمين غصبًا.

شعرتُ بالسعادةِ المُبكية مُستمِدةً علاجَ حزني من جسده؛ جسدهِ الدافئ الذي غمرني بشوقهِ اللذيذ، للحظةٍ ما شعرتُ بأنني احتضنته من قبل، عانقته أكثر ودفنتُ رأسَه هذه المرةَ في صدري، لكنَّ هاجسي أعاد لي ذاك الشعور. ***{هو لا محالة الحلمُ الذي تمنيتِ أن يكونَ واقعًا فعشتهِ قبل ذلك، هو شيءٌ حدثَ في اللاوعي منكِ فشعرتِ به الآن بكلِّ صحوكِ ويقظتك، لكنني لمستُ هذا الجسد قبل ذلك! لقد احتضنته من قبل، لا يهم، عانقيه أكثر، استمعي لما يقوله الآن بكلِّ جوارحك، دعيه يبثُّ شوقه كلامًا وعناقًا، قبِّليه، كلا، لا يحق له تقبيلك، ويحكِ العناق أشدُّ حرمةً من القبل، لا يهم، لا يهم، لن أضيِّعَ لحظة عناقٍ حميمية كهذه، لكن جسده يذكرني بشيء، لا تفكري وعانقيه أكثر، سأفعل لكنني حمقاءُ من أسوأ عاداتها بأنها تفكرُ دومًا بأمورٍ كثيرةٍ في الوقتِ الذي لا يصلحُ فيه التفكير بل الانجراف للداخل، لم يعانقني أحدٌ من قبل، لم يمسسني بشرٌ سواء كان رجلًا أو امرأة من قبل، عانقَني جاد يومًا كأبٍ حانٍ ووالدتي أحيانًا، عانقني أبو سند لكنني أسأت له بغبائي وأمراضي، عانقتُ سيفًا كمريضٍ بعد غيبوبته ظنًّا مني أنه شاعري، عانقتُ رجلَ الطائرة ظنًّا مني أنه امرأة، رجل الطائرة؟ كيف ذلك؟ هو ذات العناق، هذا هو جسده!! إنه جسد دن، دن هو رجل الطائرة!}***.

انتفضتُ بكلِّ ذرةٍ يحتويها جسدي وروحي، فدفعتهُ عني فجأةً صائحةً:

- أنت رجلُ الطائرة، أنتَ من جلسَ بجانبي كامرأة عانقتُها باكيةً بعدَ شعوري بالعطف عليها، أنتَ من غضبَ بعدها ونزعَ الرموشَ والشعر المستعار. *قلتُها دفعةً واحدة متنفسةً الصعداء محترقةً بأحرفها التي ابتعلتُ أغلبها.*

وقفَ محدِّقًا في الأرضِ متمتمًا بكلماتٍ لم أفهمها.

- قل بأنك هو.

- لم أكن يومها هو، كُنتها تمامًا. قالها بهدوء. كنتُ زوجتي التي قُتِلت بدلًا عني.

- أنتَ إذن. *روحي صُدِمت قبل ذاتي وملامحي.*

- كنتُ بيتوتيًّا لدرجةٍ كبيرة، حياتي اقتصرت على العمل والبيت لا غير، أحببتُ زوجتي التي قبِلت أن تعشقَ وتتزوجَ لقيطًا لا يُنسبُ لأبويه، أحدُهم وضعني في مهدِ زوجينِ عاقرين، فلمَّا أرادا قبولَ هذه الهديةِ الغريبةِ اكتشَفت العاقرُ أنها حمَلت بتوأم ولدتهُما في اليومِ الذي حملني فيه زوجُها لملجأ الأيتام، خَشِيا من مسائلةٍ قانونيةٍ رافضينَ تلك الهديةَ المجانيةَ؛ طالما أنَّ هديةً غير متوقعةٍ طرقَت بطن العاقر التي لم يحتمل قلبُها هديتين متتاليتين دفعةَ واحدة فاكتفت بواحدة. فكأنما طَمَعُنَا البشري يتوقف عن الزحفِ لما لا نملك إن عُوِّضنَا بهديةٍ لا تُسبب خوفًا وإزعاجًا ذات يوم لنا، فإن لم نعوَّض قبِلنَا بالهديةِ ولو شُنقنا من أجلها؛ مطلقينَ عليها مسمى معجزة إلهية، وكأننا من نقررُ هويةَ المعجزاتِ، ونفرِّق بينها وبين الخرافات وفقَ حاجتنا لا وفقَ واقعها المنطقي. كنتُ بيتوتيًّا أعودُ من عملي لأجالسَ زوجتي الحبيبة متنقلًا بين قنوات التلفاز فقط.

كثيرًا ما لاحقتُ الحلقات التلفازية، والأفلام بشغفٍ كبير، وكثيرًا ما شاهدتُ أثناءَ تنقلي العشوائي بين القنوات بعض اللقطاتِ العابرة في البرامجِ الإخبارية لتفجيرات وكوارث هنا أو هنا، وكثيرًا ما شاهدتُ الضحايا، والنيران المشتعلة، والبيوت المهدمة، والأتربةَ الغبارية التي صبغت وجوهَ الأشخاص الذين لا أعرفهم... أحيانًا ومن باب التغيير والملل رحتُ أشاهدُ بعضَ الكوارث الطبيعيةِ والبشريةِ دون اكتراث قائلًا في نفسي عند رؤيةِ الضحايا: هم أشخاصٌ لا أعرفهم، الكاميرا أحيانًا كانت تُسلِّطُ في حوادثِ القتلِ وضحايا الانفجارات على وجهِ رجلٍ مندهشٍ مصدوم غارقٍ في الحيرة والذهول. لطالما اصطادت الكاميرا هذا الوجه لتنتقلَ بعدها للحدث مفصِّلةً إياه، لتعودَ إليهِ بعدها وما زالَ مُتسمِّرًا في وجومه؛ جاحظة عيناه لا يحُرك ساكنًا، لم أكترث له وإن تكررَ هذا الوجهُ وشبيههُ بتلك الملامحِ المصدومةِ في أيِّ مكانٍ، وعبرَ أي برنامجٍ إخباري يصدِّرُ صورته عند ذكر الحدث، فأنا لا أعرفه كما لا أعرفُ الضحايا في ذاك الانفجار، أو الزلزالِ، أو الفيضان وما شابه، ولأنني كُفِلتُ من أبوين بوذيين حملاني من وطنك نحو الهند صغيرًا بالتحايل والتزوير؛ فقد رفضتُ عندما عملتُ في مصر وقد نسيت العربيةَ وطباعَ أهلها، أن أحقنَ عالمًا بوذيًّا بحقنةٍ قاتلةٍ لأنه مناهضٌ للحركةِ الصهيونية، رافضًا تقديمَ عبقريتِهِ لها، كلَّفني هذا الرفض والإبلاغ عن الشخصِ الذي عرضَ عليَ هذا العرضَ التهديدَ بقتلي، والانتقامَ بأيِّ شكلٍ مني، خفتُ فعزمتُ على الهروب وزوجتي من مصر بغيةَ الرجوع إلى الهند بأسرعِ وقت ممكن، أصرَّت أن ترتدي بعضَ ثيابي، فارتَدَت من ملابسِ الرجل الهندي التقليدية ما يناسبها وسطَ دهشتي من إصرارها على ذلك، ارتَدَت ما أرادتهُ بينما ارتَديتُ بدلةً رسمية وغادرنا شقتنا باتجاه المطار، وفورَ نزولنا من السيارة تعرَّضت لرصاصةٍ اخترقت رأسها

محطِّمةً جمجمتَها، ماتت على الفور وسط صدمتي ودهشتي لما حدث، لقد ضحَّت بحياتها من أجلي أو أرادت الموت معي فماتت وبقيتُ أنا، وقفتُ على الرصيفِ وقد اكتظ أولًا بالأشخاص المتأوهين، ثم رجال الشرطة، فالصحفيين الذين جاء أحدهم بالكاميرا ووجهها لوجهي، سلَّط الكاميرا عليَّ لأكون صاحبَ الوجهِ الذي كنتُ أراه في البرامجِ الإخباريةِ مصدومًا، مكلومًا، متسمرًا في وجومه، فاغرًا فمه وسط دهشتهِ الغريبة، لأكونَ ذاك الشخص الذي لا أعرفه فوق هذا الكوكبِ في مكانٍ ما، أنا ذلك الشخص الذي تصوره الكاميرا ليكونَ محورَ حدثِها الإخباري بوجههِ وملامحهِ التي أعرفها، بكيتُ بحرقةٍ لأن الأشخاص الذين لا نعرفهم والذين تعرضوا للقتل والدمار والظلم والكوارث الإنسانية هم أشخاص نعرفُهم، هم نحنُ في مكان آخر، هم أشخاص نقابلهم دون أن ندري. قُتِلت مكاني فلم أعد حينها رجلًا بعدما أعفته من لعبِ هذا الدور يومَ ارتدت ملابسه، لكنني وقفتُ كهِيَ، غادرتُ كهيَ، ورحلتُ بحقيبةٍ تحملُ ملابسَها وعطرها وزينتهَا. عدتُ حاملًا قلبَها في ضلوعي فأصبحتُها دون أن أدري. بقيتُ بعدها في مصر بملابسها وقلبها وصوتها وطقوسها الدينية إذ لم أكن متديِّنًا قبلها، بقيتُ بكلِّ دفئها ورقتِها لأجدني إيَّاها بكاملها دون وعي مني، رحت أستغل مهارتي بترميم الوجوه وصناعة جلود الوجه كالأقنعة لعمل وجهٍ كوجهها أتقمصه بالكامل. تجمَّلت بوجهها ظاهريًا وبروحها داخليًا دون وعي مني، تركني قاتلُها أهيمُ في شوارع الإسكندرية مجذوبًا مريضًا مُزدوجًا فكأنه علِم أن بقائي على قيد الألمِ أشدُّ عقابًا لي من الموت، هِمتُ في الشوارعِ متعرضًا للإهانةِ والضرب والازدراء الجسدي والروحي؛ لكنني كنتُ سعيدًا لأنني طالما حلُمت بذاك القناص مرتعبًا مني، زرته كما زارني في الحلم لأجده متوسلًا لي بأن أسامحَه وأصفحَ عنه، زرته في اليقظةِ كما

زارني فبدوتُ شبحًا يطارده من مكانٍ لآخر حتى وعدني إثر تعب ضميره ألَّا يقتلَ مُجددًا. لم أكترث لوعده متمنيًا لقاءه لأقتصَّ منه، لكنني لم أعد أراه في حلمي، لم أعد أستطيعُ زيارته في الحلمِ واليقظة. وجدتُ نفسي قد تعافيتُ بعد سنواتٍ طوال من انفصامي وسطَ مساعدةِ عائلةٍ صعيدية طيبة علمِت بما مررت به. تعافيتُ لأعودَ للعملِ مجددًا في مشفىً مصريٍّ غيرَ أني كلمَا هممتُ بركوبِ طائرةٍ لم أستطع ارتداء ملابسي بل ملابسها بكامل حلِّيها وزينتها، رؤيتي لأيِّ مطارٍ يعيد لي وجهها غائمًا بالموت، ويعيد روحها لتحتلني وفاءً وعشقًا لها، رؤيتي لأرصفةِ المطارات وصوت الطائرات المقلعة والهابطة يعيدني لأتلبسها رغمًا عني، حتى التقيتكِ.

حتى جلستُ بجانبكِ في طائرة سنبار المتوجهةِ لجنيف، لم أخدع مثلك بل كنتُ على علمٍ بوجهتي وحقيقتها كما لم أعلم شيئًا في حياتي من الحقائقِ مثلها قط، فالقدرُ وحدهُ مَن نبَّأني عبرَ حديثٍ مع سجينٍ سابق في سنبار وقد التقيته في مصر بعدها مصادفةً أن قاتلَ زوجتي في سجن سنبار وهم على وشك نقلهِ لمشفاها تحت ضغط منظمات إنسانية. تقدَّمتُ للعمل وانطلقتُ مسافرًا للعملِ في مشفاها ليتسنى لي التقصي عن قاتلٍ يدعى معروف النقاد، بيد أني وقد سبقته إليهِ شعرت بالندم، وأنني تسرعتُ ظنًّا مني بأنهم لم ينقلوه أو أن يكون مات في سجنه؛ قبل أن أتفاجأ به قد لحق بي للمشفى لينامَ على بعد أمتارٍ من انتقامي منه... أعرفه، أعرفُ وجههُ من كوابيس الحلمِ واليقظة، أعرفُ وجهه المصدوم يومَ نظرَ لي من بعيد وقد صوَّب بندقيته من نافذةِ عمارة، أعرف وجهه لأنه صوَّبها لي ثم أعادها مترددًا مغادرًا النافذة، أعرفُ وجهه جيدًا لأنه مرَّ من جانبي مغادرًا محدِّقًا بي إثر ذهولي وعجزي وضعفي لحظةَ

موتها، كنتُ هشًّا للدرجةِ التي رأيتُ فيها قاتلي يغادرُ بالحياةِ بعد أن غادرت بالموت؛ دونَ أن أصيحَ بأن هذا قاتلها.

أمَّا اسمه فلا زلتُ أتذكر جملةَ من فاوضني على قتلِ العالمِ الهندي حين همسَ في أذني ساخرًا مُهددًا: "هما خياران أيها اللعين: إمَّا أن تحيلَ ملفَ هذا العالِمِ المتحجر لعزرائيل، أو أن أحيلَ ملفَك لمعروفِ النقاد ليبعثَ بك إليه".

حدثت نفسي أثناءَ ركوبي الطائرة: "بأنني قد أطاردُ شبحًا لا أكثر، أو اسمًا وهميًّا سقطَ سهوًا قُذفِ لسمعي لا يحملهُ أيُّ كائنٍ بشري". لكنها الرغبةُ بالهروب على شكلِ أملٍ ما، ورجاءٍ علَّه قد يتحقق.

جلستُ بجانبك كزوجتي لا أنا، جلستُ ممارسًا طقوسي البوذيةَ بحزنٍ وضياعٍ شديدين فعانقتني باكيةً وضممتِني لكِ، ضممتِنِي دون أن تعلمي بأنكِ تعانقينَ روحًا أخرى غيرَ روحي، وكيانًا لا يتجسدُ بي، فانتقَلَت الأنثى التي تسكنني عبرَ هذا العناقِ لجسدك، لقد استحوذتِ كمغناطيسٍ على كاملِ روحها من روحي، وسحبتِ هالتَها من هالتي لتدفعيني خارجًا منها، شعرتُ بقلبكِ، بروحكِ، بجسدكِ، برقتك. فتشابهتِ معها بقلبها، وروحها، ورقتها، فخرجتُ مني حين استقرَّت في قلبي لا جسدي كما كانت، فانتبذتُ في المقعد الأخيرِ باحثًا خجِلًا من الرجلِ الذي أضعته طوالَ هذه السنوات ظالمًا له، ولمن أحببتها، ولمن سأحبها من جديد.

وصلتِ قبلي واستلمتِ مهامَك لأتفاجأ بأنك أمامي في هذا المشفى اللعين. ***قالها ودارَ رافعًا يديه كصوفي يرقص ثم توقف.*** وبينما انشغلَ الآخرون بالحديث والاعتراض على الخديعةِ التي تعرضوا لها؛ انشغلت بتأمل أعطيات القدرِ بعدها في أن يكون القاتلُ مريضًا بين يدي وكأن القدرَ يقول لي:" اقتص لنفسك فها قد قدمتُه لكَ على طبقٍ من مرض".

- أردتَ قتلَه؟ *قلتُها مندهشة من كلِّ ما سمعت سيما الجملة الأخيرة.*

- أردت شاكرًا القدر على هذه المنحة التي سعيت إليها لكنني ما إن هممتُ فعلَ ذلك نظرتُ في عينيه، فلم أجد فيهما نظرات قاتل، عيناه تخلو من القتل والقسوة، لم أرَ هاتين العينينَ فهما لم تتعرضا للتشويه كوجههِ وجسده.

- لا أصدق أن بإمكانك الإقدام على هذا الشيء، إيَّاك أن تفكر به، حتى ولو كان هو مَن قتلَها فعلا.

- ليس هو يا ريم، هذا الشخص ليس القاتل.

أردتُ متسرعةً أن أؤكد له بأنه معروف والذي يُدعى سيفًا لكنني أمسكتُ لساني في آخر لحظةَ خشيةَ انتقامه.

- أعرفُ بم تفكرين الآن؛ فحوصات سيلا كان ينقصها شيءٌ، لقد تفحصتها ألف مرة، وفي كلِّ مرة كنتُ أجد أن هناك شيئًا ما غامضًا في فحوصاته، وسواء كان هو أو لا فإنني لم أعد أرغبُ بالانتقام، أريدُ فقط أن نتزوجَ ونغادرَ من هنا.

- لماذا تريد مساعدته؟

- لأنك لن تغادري دونه... لا حاجة لي بسؤالك عن هذا.

وقفتُ محدقةً به وقد راح يلتصق بي كلما ابتعدت عنه دون وعي، راح ينتظرني أن أتكلم فلم يدر بخلدي بعد هذا الكلام إلا سؤالٍ سخيف.

قلت له جادةً: هل نقصَ وزني أنا أم زاد وزنُك؟

خطر لي هذا لأنني أردتُ له أن يقول لي كلامًا رقيقًا عن بدانتي، أو أنوثتي التي لم أستمع يومًا لمن اهتم بها، لكنه بدل ذاك عانقني مجددًا وضمني إليه ضاحكًا مرددًا بين الحين والحين: أنتِ حبيبتي.

أنا الحلقةُ بين كلِّ هؤلاء، أنا الحمقاءُ التي لم تعد تفهم فلسفةَ القدرِ رغمَ أنها الوحيدةُ التي باستطاعتها فهمَ ذلك، ها أنا أجد نفسي أمامَ سيف ابن العجّان الذي خطفني يومًا، ثم أمام ابنه ميمون أيضًا. أمامَ دن الذي لا يُعقل إلَّا أن يكونَ ابن السِفاحِ الذي وضعه العجّان يومًا في مهد العاقرين... قد كنتُ أبحثُ عن الروايةِ في حديث أصلان قبل أن أعرفَ حقيقته، وها أنا الآن أجدني أمامَ روايةٍ لن يصدِّقَ أحدٌ أنها حقيقية، وأن القدرَ جمعَ هؤلاء جميعًا عبري، أو عبر الصدفةِ والأحداث المتقنة. وها نحن نُبعدُ عن الوطنِ أميالًا ألقت بنا لنتقابل جميعًا هنا، لتتبلورَ الحكايةُ بعيدًا عنه، وكأنه رفضَ أن يخبرَنا بنفسه الحقيقةَ طالما هربنَا منه.

سيلا لم تعد، وميمون ما زالَ ينتظر اللحظةَ المواتية للهروب تحت إشراف مدير المشفى الذي جهزَّ جثةً طازجةً لتدفن مكان سيف للهروبِ والرجوعِ للوطن. أما دن فبوذيته التي يعتنقُها ضمن إيمانه الراسخ تجلدُ روحي بسياط الذنب والفضيلةِ من جديد.

كيف لي أن أتزوج ببوذيٍّ وأنا مسلمة؟ أتساءل ثم أجيبُ بتساؤل آخر: وكيف لك القبول بممارسةِ الخطيئةِ ما دمتِ بهذا الطهر؟ هو السرُّ وخوفنا من الوضوح، هو الخفاء الذي قد نرتكبُ فيه المعاصي التي لا نقبل أن نُتهمَ لصحيحها قبلَ خطئها، كنتُ راضيةً بعلاقةٍ غير شرعية قبل يومٍ من الآن في العتمةِ الشيطانية، وها أنا لا أجدُ حلًّا لعلاقةٍ في نهارِ الملائكةِ والعيون الناظرة.

طلبتُ من ميمون أن أستعمل هاتفه وأتصل بعائلتي فورَ هروبنا السريع والسهل من المشفى باتجاه البحر، اتصلت وأخبرتهم عن دن.

جاد وبَّخني منهيًا حديثنا بهذا الشأنِ بغضبٍ كبير، والدتي شتمتني جهارًا نهارًا على العهر -كما وصفت- الذي أفكر فيه، هي المرةُ الوحيدةُ التي تشتمني فيها وتنعتني بالمريضة.

ألم تكتشف مرضي إلَّا الآن؟ ألم تكتشف ضياعي إلَّا اللحظة؟ أينَ كانت حينَ ماتَ أبي شابًا وتزوَّجت غيره دون أن تجزعَ عليه؟ لم تجن كدن، لم تلبس ملابسه الذكورية تعبيرًا عن وفائها، لم تكترث بمشاعر طفلةٍ قيدَ النمو جسديًّا وفكريًّا وعاطفيًّا، ثم أين أولئك المنظرون للحديث الشريف "فاظفر بذات الدين تربت يداك؟" لم أرهم، لم يطلبوا الزواج مني، لم يسألني أحدهم إن كنت من حفظةِ كتاب الله، والواسطية، والأجرومية، والمعلقات أو لا!! أو إن كنتُ مواظبةً على الصلواتِ الخمسِ وقيام الليل، وصوم الإثنين والخميس كما يشتهون!! لم يقترب مني أحدهم سائلًا كي يتأكد من إيماني وإخلاصي لتربت يداه، أما هذا البوذي فقد رآني كما لم يرني أحدٌ منهم. يتبجحون بما لا يفعلون، ثم يلهثون للزواجِ بالجميلاتِ ليفرضوا عليهن ما نظَّروا به وتبجحوا به لا من أجلِ الله بل لأجل ألّا يقال عنهم بأنهم كاذبون. أصدَقُهُم مَن تزوجَ بشهد العجّان، فقد كان إمامًا للمسجد، وبعد مرافعةِ والدها عن نفسهِ طلبَ يدها وتزوجها وسط دهشةِ العجّان وابنتهِ والناسِ أجمعين. راحوا يسخرون منه، بل فقدَ في خطبةِ الجمعةِ نصف المصلِّين الساخرينَ المستقذرين له، وصفوه بالدياثةِ والجنون بينما وُصِفَ من أنقاهم: "بأنه رجلٌ درويش على البركة" ثم خطبَ يومًا خطبةً عصماءَ ذكرَ فيها مثالب ومخازي الجاهلية، ذكرَ فيها الحقائق عن التغير الذي طرأ على مجتمعٍ كافرٍ زنديق وكيف تحولَّ بعد الهدايةِ لمجتمع مثالي عادل! لم يبالِ بالقيلِ والقال فصنعَ من مومسٍ مثلها زوجةً مثالية. قيلَ لي يومًا بأنها ناسكةٌ متفرغةٌ للعبادةِ وعملِ الخير، لكنهم ما زالوا يشيرون لها بأنها المومس التائبة كدليلٍ على تحولِ

الإنسانِ من الشر إلى الخير، لكنهم ومع ذلك لم يُواروا فكأنهم وبالرغمِ من مدحهم للتائبِ يذمون الممدُوح.

- ألا زلتِ في حيرةٍ من أمرك؟ *قطع دن هذه الذكريات*.

- أنا في حيرةٍ مذ خلقت.

- بإمكاننا مغادرةَ الجزيرة بسهولة وسط هذه الأحداث، الفرصة سانحة.

- الفرصةُ ما تخيفني لا الهروب من هذا المكان.

سادَ الصمتُ بيننا قبل أن أسأله:

- لماذا لم تنتقم لمقتلِ زوجتك؟

- ليس هو.

- يحملُ اسمه.

- ولكنه لا يحملُ عينيه.

- هل سألته؟

- حاورتهُ عندما نويتُ الإجهاز عليه، غيرَ أنه لم يعترف، قال لي: "لم أقتل إلا صديقي ووطني"، كان صادقًا أو أنني خدعتُ نفسي بقوله.

- خدعتَ نفسك!! وهل أردت تصديقه؟

- عندما بحثت عنه كنت أتوق لقتله، عندما رأيتهُ مريضًا، مسنًّا، وحيدًا في غربته أشفقت عليه، رجوتُ روحي أن تصفحَ عنه، رجوتُ قلبي أن يغفر خطيئته التي أنهت حياةَ حبيبتي.

- كيف باستطاعتك أن تتسامح بهذا الشكل؟

- قتلها ولم يقتلني، كانت سببًا في توبته وإقلاعه عن القتل إن كان هو فعلًا، لقد أرادت بموتها أن تثنيهِ عن ممارسةِ هذا العمل مرةً أخرى ففعلت، لستُ أنا من عليَّ محاكمته، بل من يمتلك القدرةَ على العقابِ والثواب دون دافعٍ شخصي.

- إذن قال لكَ ما أردتَ سماعه لا أكثر!

- بل رأت عيناي عينيّ بريءٍ لا قاتل، لطالما قلتِ لي بأنه شاعر، لا أعتقد أن الشعرَ والقتلَ يجتمعانِ في قلبٍ واحد.

- لعلِّي كنتُ مخدوعةً فقط. *قلتها ساخرةً من نفسي*.

- مذ قابلت ميمون وأخبرتك عن الهرب لم يعد الفضول يحتلك كما كان سابقًا.

- لم أعد أكترثُ لشيءٍ قط.

هي الحقيقةُ التي بدأت تتسلل إلى روحي سيما وقد وافقَ سيف على نقله للوطن بخطَّةٍ محكمة. رفضَ الهروب في البدايةِ وفضَّل السجن معاندًا الجميع تحت دهشتنا. لم يصدق أحد منا أنه يريد الموت هنا وبهذه الطريقة. بعد موافقته وعند التجهز للرحيل رفضَ مجددًا شاكًّا بكل ما حوله، متسائلًا بشكٍّ مبرر عن وجود ميمون ودافعه لتهريبنا بهذا الشكل السهل، ورغم تطمينات دن له ووعده بأنه سيشرح له الأمر لاحقًا إلا أنه لم يقتنع وتشبث بالسرير كالأطفال الصغار خائفًا، ووسط هذا الرفض طلب مني دن أن نرحل دونه لكنني في الحقيقة كنت أشفق عليه رغم كلِّ شيءٍ، فحاولت إقناعه بيد أنه رفض، حينها نهضَ دن وحقنه حقنةً أفقدته الوعي... حتى إذا انتهى مفعولها واستيقظ من سباته مرتعبًا مما يراه كنَّا في وسط البحر... ثم تأقلم بعد استيقاظهِ بدقائق مع ما يراه وبدا سعيدًا نشيطًا على عكس توقعاتنا، متفاجئًا أنه وسط البحر، وأننا عائدون إلى

الوطن. شعرتُ أنه لا يتذكرُ شيئًا مما حدث بتاتًا. سألني عن ميمون ومن يكون وما الذي جاء به إلى هنا؟ وكيف فررنا بهذه السهولة؟ بدا ناسيًا أو متناسيًا آخر يومين بالكامل كأنه لم يحياهما أبدا.

- أنتَ تتلاعب بي مجددًا، لا أعرف السبب لهذا، ألا تمل من هذه الحيل الصبيانية؟ *قلتها وقد شعرت بالحيرة من تصرفاته.*

- أتلاعب بك؟ *سألني مندهشًا، وكأنه تفاجأ من طريقتي الوقحة بالحديث إليه.* لا أفهم مقصدك!! تحدثي.

- كفاك تلاعبًا أرجوك.

- تلاعبي بماذا؟ ***{ما بال هذه الحمقاء تتحدث إلي بأشياء لم أفهمها؟! نعم لقد بدأت أنسى الكثير من الأشياء، لكنني لم أنسَ الماضي القريب جدًا، أجدني الآن في وسط البحر مع أنني لا أذكر شيئًا مما يتحدث هؤلاء به، لقد تملكني الرعب فجأة قبل أيام، شعرتُ حينها بشيءٍ يسري بداخلي كنتُ أظنه الموت، لكنني كنت أقاوم كي أعودَ بكاملي إلى نفسي وقد تهت عنها مجددًا، الخوف! نعم فالخوفُ مَن أفقدَني نفسي يومًا وها أنا أنتصر عليه مجددًا}***.

- هل فعلًا ترغبُ بالعودة إلى الوطن؟ *سألته كسرًا للملل أو للخوف أو حتى للغرابة لا أكثر.*

- لا أعرف حقيقةً، كلُّ ما أعرفه أنني لم أمت؛ كنتُ أشعر بأنني سأحيا عامًا آخر، لا أريد العودة لأنني الآن في طيِّ النسيان، لا أريدُ العودة للبحثِ عن نفسي، لكنني أرغبُ بشيءٍ واحد فقط ؛ شيءٍ يزيحُ عن كاهلي وألمي الكثير الكثير.

- ما هو؟

- أريدُ رؤيةَ أمي.

- أمك؟!! *ضحكت رغمًا عني، فأمُّه ماتت بعد أشهرٍ فقط من إعدام العجّان.*

- نعم أمي، أشتاق أن أضمَّها إلي.

- لكنها ماتت منذ زمنٍ بعيد.

- كلا، لم تمت، أشعرُ بذلك، قد مرَّت سنتان وبضعة أشهر على آخر لقاءٍ بيننا، لكنني أعلم أنها لم تمت، هي بانتظاري.

- سيف، أمُّك ماتت منذ زمنٍ بعيد، ماتت بعد إعدامِ والدك ببضعةِ أشهر فقط.

حدَّق بي كما لم يحدق بي مُسبقًا، قرأتُ في عينيه شيئًا غريبًا لم أستطع تفسيره، نهضَ عن كرسيه المتحرك والذي زودناه ببعض الأدوية والأجهزة فنزعها ووقف بصعوبة، راح ينظر للبعيدِ كمن يقول للبعيد بأنني قادم، وقفتُ خلفه خشيةَ أن يصاب بالإجهاد أو الدوار فيسقط، قلت:

- هي المرة الأولى التي ينتصب جذعك هكذا مذ دخلت المشفى.

- الوطن بانتظاري، ***عمّانُ*** يا ريم تسألُ عني. لا أريدُ أن أدفنَ بعيدًا عنها، أريدُ أن أدفنَ في سحاب حيث يقطن والدي، حتى ولو أهالوا عليَّ التراب فإنني متقبل لهذا دمتُ أقطن بجانبه، أريدُ أن يزورني أبنائي وأحفادي كما كنتُ أزورُ والدي... القدرُ يمنحني الفرصةَ الأخيرةَ لبرِّه ووالدتي قبل أن ألفظَ أنفاسي.

- سيف، أنتَ تتحدث كأصلان أفق من خزعبلاتك؟ *ضحكتُ بسخريةٍ رغم إشفاقي عليه ثم توقفتُ حينما شعرت بملامح الغضب احتلت وجهه.*

- لست سيفًا، أنا أصلان، أصلان، لا أعلمُ كيفُ كنتُ سيفًا، لا أعلمُ من الذي راحَ يتحدث عني، بلساني، بأعماقي، بسرِّي وجهري، أنا متعبٌ من كلِّ شيءٍ حولي الآن، أريدُ العودة، أريد أن ألتقي بأمي،

أريد أن أراني، ريم، أريدُ مرآةً يا ابنتي كي أرى نفسي، لقد نسيتُ وجهي. *راح يتحسس وجهه وعينيه*. أريد أن أرى عيني، من المؤلم أن ترى أعيننا كلَّ شيءٍ إلا هي، أن ترى كلَّ شيءٍ باستثناء ملامحنا.

لعلَّها هلوسات العمرِ، والشيخوخةِ، والحرب، ولكنني أحضرتُ له مرآة بعد أن كدنا نخترعها اختراعا من على اليخت وقد راحت عيناه تذرفُ ماءها، راح ينظرُ في المرآة مدهوشًا تارةً، وغارقًا في خيالهِ تارةً، ومبتسمًا تارةً أخرى. شيءٌ ما يحيرني وقد أدخلني في دوامةٍ جديدة، رحتُ مستمعةً لتسجيلاتِ قصائده الأخيرة عبر جهاز ميمون مستحضرةً صوته السريري، لأجدهما مختلفينِ بعض الشيء، رحتُ أنظرُ في عينيه مستحضرةً عينيه السريرتين لأجد أن نظراتهما تختلفانِ في الكثيرِ من المواضع. ***{لا أعلم ما الذي يجعلني أتوه بين شخصين رغمَ أن الفحوصات، وحديثه، وما جرى يدلانني على هويته، أعلم أنه (سيف) فلماذا أتعاطف معه مجددًا (كأصلان)؟ حمقاء حتى بهذه}***.

الرحلةُ امتدَّت لأيام طوال لم نعد نحصيها في هذا البحر الكبير، اليخت اتسع للمحبِّ، والحالمةِ، والكاره، والمريض الحائر، لم يتحدث أحدٌ منا لأحد... ساعةُ الحائط المتوقفةُ تفرضُ فلسفتها على ألسنتنا الخائفة من التعبير عمَّا يعترينا رغمَ أنها بقيت وحيدةً خلفنا. لعلنا جميعًا أردنا العودةَ للجزيرة فلم نبح بهذه الرغبة، أشجعنا كان ميمون ومساعدوه المتنكرون بثياب الجيش السنباري وربان اليخت حيث راحوا يكرعون الخمرَ، ويرقصون أحيانًا كمجانين شاذين كلما سنحت لهم الطبيعةُ بذلك.

وصلنَا شاطئًا يخلو من الحياةِ لنمتطي جمالًا قطعت بنا مسافاتٍ طويلة، لطالما حدثت نفسي: "سيموت سيف قريبًا". الإجهاد

والخوفُ تملكَنا جميعًا لكنه على ما يبدو تحصَّن بالأمل أو الوهم الذي راحَ يصدقه.

ركبنا بعدها حافلةً قطعت آلاف الكيلومترات لنجد أنفسنا بعدها أمامَ مطارِ ***(برج العرب)*** في الإسكندرية، سرنا على الرصيف ببطء لمجاراة خطوات سيف المتعبة والبطئية قبل أن يصرخَ دن قابضًا على عنقِ سيف باكيًا: "لقد قتلتَها هنا أيها الوغد". دخلَ في هستيريا جنونية صائحًا محاولًا قتل سيف مُطبقًا على رقبته، حاولوا منعه وقد جحظت عينا الاثنين، هذا لغضبه وهذا لضعفه وانقطاع الأكسجين عنه، لم يفلحوا لكنني رحتُ معانقةً رأسه هامسةً به: "من أجلها، من أجلي، من أجلِ قلبك المتسامح أرجوك أن تتركه". جثا على الأرضِ باكيًا مُقبِّلًا الرصيفَ وسط دهشة المارةِ ورجال الشرطة لتصرفه.

- من هذا المجنون؟

- قد قلتَها سيدي، مجنون لا يُلام على تصرفاته، بل هم مجموعة مجانين شاءَ القدر أن ألتقي بهم. ***قالها ميمون ضاحكًا ظنًّا منه أنها مداعبة لرجل الأمن المصري الذي بدوره كاد أن يبصقَ عليه.***

راح سيف يتنفس بصعوبة متسائلًا عن الدافع وراء تصرف دن بهذا الشكل.:

- أريدُ ثوبَها وزينتها وعطرها فقط. ***راح يرددها دن كالأطفال.***

- نعم يا ماما؟ ***قالها ميمون ساخرًا مُتفِّهًا إياه.***

جثوتُ بجانبه وضممت رأسه لصدري مُجبرةً إياه على النهوض.

- إن لم نغادر الآن بك كأنت، فلن تجد نفسَك مجددًا، ستتوه من جديد، هيا حبيبي، أرجوك، كن أنتَ، فأنا بجانبك ما حييت.

نهضنا ثم قدَّمنا جوازاتنا التي جاء بها ميمون لنجلسَ منتظرين الطائرة المغادرة للوطن بعد أن سهل بعض رجال المطار هذه المهمة لنا باتفاق مع ميمون... سادَ الصمتُ مجددًا رغمَ أنني رحت أحادث دن الموتور لحظتها بأشياءَ كثيرة بغيةَ أخذهِ للواقعِ لا الماضي.

في تمام الساعة السادسةِ من مساء ٢٧ أكتوبر من عام ٢٠٦٦م هبطت بنا الطائرة في مطار ***(ماركا)*** في مدينة ***(عمّان)***. وأولُّ ما قيل حينها فقد جاء على لسان ميمون: "لا مستحيل مع ميمون العجّان"... قالها ضاحكًا وغادرَ بعد أن ابتسمَ في وجهِ سيف مُعقبًّا وقد انحنى أمامه: "أهلًا بك في أرضك أخي العزيز، لا أتمنى أن ألتقي مرةً أخرى بمجانينَ مثلكم... الأخ يريد ملابس نسائية، أيا عجبي". ***أشارَ لدن، ثم ضحك وغادر.***

سحبني دن للذهاب لكنني ذهبتُ مودِّعة سيفًا الحائر المبتسم وقد جلسَ على الرصيف الخارجي للمطار من التعب.

- عليكَ التوجه للمشفى لاستكمال علاجك، سأستدعي سيارةِ إسعافٍ لنقلك.

- لا، سأذهب لبيتي أولًا، أريد رؤيةَ والدتي. **قالها ثم وقعَ للخلفِ مغشيًّا عليه مرتطمًا رأسه بالرصيف بقوة، *وكأنما قدري أن أصاحبه حتى موته*.**

دخلَ في غيبوبةٍ لم أظن أنه سيفيق بعدها... الأطباء هم الأطباءُ في كلِّ مكان، فقد خمَّنوا بأنه لن يحيا للغد، ظنُّوا أني ابنته فراحوا يتحدثون لي عن حالتهِ الصحية المتأخرة وعن احتمالِ موته السريع. لكنَّ هيئتنا بعد ذلك جعلت منَّا مثارَ شكٍّ سيما وقد علمِوا بأن د هنديٌّ وصلَ لتوه من السفر، ثم وقد اكتشفوا أننا لا نمت له بأيةِ صفة، ناهيك عن جوازاتنا المزورة، والجرحِ في رأس سيف بسبب ارتطامهِ بالرصيفِ والذي دفعهم للاتصالِ بالشرطةِ التي استجوبتنا على انفرادٍ طارئ .

وجدنا أنفسَنا متهمين بضربِ سيف والاعتداءِ عليه، لكن ولأنني في وطني الآن، ولأن شعور المغترب عنه لحظةَ يطأهُ يجنحُ فورًا

للشوقِ والأمان؛ فقد رحتُ أحدثهم عن كلِّ ما مرَّ بي مذ خرجت من سنبار حتى وصولنا إلى الوطن مذ ساعات قليلة.

- في النهايةِ لم أفهم، هذا سيف أم معروف أم أصلان؟ *قالها المحقق*.

- هو سيف الذي حاول انتحالَ شخصيةِ ذاك الشاعر.

هذه هي الجملةُ هي التي بدأت واختتمتُ بها كلامي في التحقيق، والتي تلقفها أحدهم ليقذفها في أذن صحفي ما لنجد الإعلام المرئي والضوئي الحداثي وعدساتهم قد حاصرت المشفى؛ لنقل خبرِ عودةِ الشاعر أو منتحلِ صفتِه للوطن أخيرًا. خبرٌ أقنعَ المحققين بعد أن تطابقت أقوالي ودن حينها بأدقِ التفاصيل، خبرٌ جعلني أقفُ أمامَ عائلةٍ سمعتُ عنها ولم أرها إلا نادرًا في الشاشات غير أنها المرةُ الأولى التي أرى فيها حنان زوجته. عرفتُ جودت ونزار وباقي أفراد عائلته الكبيرة، رأيتُ أحفاده وقد ضجَّ بهم المكان. ***{سحقًا لكلِّ شيء، نظراتهم السعيدة ستتحول لحزنٍ شديد حين يكتشفون بأنه آخر لا يعرفون عنه شيئًا}***.

توجَّبَ علينا الذهاب لمركز الأمنِ لمتابعةِ الإجراءات لكن حنان أوقفتني مندفعةً نحوي رغمَ محاولةِ البوليس منعها من الحديث معي.

- قولي لي أين كان؟ هل هو بخير؟ هل جاء مُستيقظًا كما قالوا لي ثم دخل في غيبوبته هنا؟.

أردت أن أقول لها بأنه ليس زوجها لكنني ترددت.

- هل هو أصلان أم آخر انتحلَ شخصيته؟

حاول رجال الشرطة منعها لكنها دفعتهم باكية كنمرةٍ أكلت الضباعُ أشبالها.

- قولي لي هل هو أصلان؟ أقسمتُ عليك أن تقولي لي الحقيقة.

أمسكتني من ذراعيَّ باكيةً صارخة، وراحت تهزني رغم أن أبناءها حاولوا منعها عني وسحبها للوراء.

- أرجوكِ، هل هو أصلان؟

- لا، هذا مريضٌ يحمل اسمين سيف ومعروف، زوجكِ مات في انفجار بنغازي... أعتذر لأنني من نقلَ لك هذا الخبر لكنها الحقيقة.

راح بعضهم يبكي والآخر يهللُ ويخفف عنهم، بينما تابعتُ طريقي نحو المركزِ لأجدَ والدتي وجادًا بانتظاري في المركز، عانقتهما للمرةِ الأولى سويًّا بشوقٍ احتلني وبثثته في العناق، قبلتهما للمرةِ الأولى مذ تزوَّجا.

- اشتقتُ لكِ، اشتقت لوالدي.

قلتها للمرة الأولى أيضًا. جاد هذا الشخص الرقيق الذي لطالما عاملني كابنته رغمَ أنني عاملته كعدوٍّ لدود.

أما ميمون فقد جلسَ مُبتسمًا وقد ضبطَ بعد ساعتين من وصولنا في أحد المقاعد تحتَ الحراسة التي لم تمنعهُ أن يصيحَ بي:

- أقسمُ أنك نذيرُ شؤمٍ مذ ولادتك، العجّان مارسَ أعماله طوالَ حياته باحتراف فلم يقع إلا بعد أن التقاك، سيف المجنون كاد أن يُخنق من حبيبك الأبله المخنث، وها أنا الآن قد قبضَ عليَّ وبسهولة وبشكلٍ غريب لم أتوقعه مُتهمًا بالتهريبِ والمتاجرةِ بالبشرِ ومن الممكن اتهامي بالتعدي على سيف جرَّاء رؤيتك.

أردتُ أن أشتمه وقد غضبت غيرَ أن دن تولَّى هذه المهمة قبل أن يحول رجال الأمن بينهما.

هي ليلةٌ أخرى تضاف لحياةٍ مليئةٍ بالتعب قد يعقبهُا أيامٌ تزيح عن كاهلنا آثارها. هي ليلةٌ أخرى ستعقبُها ليالٍ باردات حائراتٌ كثيرة، سيَما وقد أدخلتُ نفسي في متاهاتِ الرجوعِ والهروبِ من جديد. في البعيد قد تمضي بنفسك لبعيدِها دون مشاعرَ ذنب مؤنِّبَةٍ، بينما عليك أن تقتربَ منها في قريبك لأنك لا تحيا وحدك في الكون.

أعودُ كأخرى تاركةً للحمقِ مساحتَه المعهودة، مضيفةً الكثيرَ من التساؤلاتِ، والاعتبارات، والتحولاتِ لشخصيةٍ فقَدَت الكثيرَ منها، في الوقت الذي أضيفَ لها الكثير دون أن تسعى لذلك، أيُّ إيمانٍ مطلق بما يجري فوق هذا الكون يتملكني لأصدِّقَ بعدَها أيَّ شيء محال؟ وأيُّ عمقٍ هذا الذي يتداخلُ بعمقي كي لا أصدق بعدها أيَّ شيء ممكن؟ صراعُ التغيُّرِ أصعبُ من إرادة التغيير ذاتها؛ وإن طالت مقاومتُها من الجوارح، فالردَّةُ الطبعيةُ وعودةُ الأشخاصِ لديدنهم السابق؛ بعد تحوُّلِهم للأسوأ أو الأفضل ما هو إلا نتاجُ صراعِ التغيُّر، قلةٌ من يثبتون على جديدهم، بينما يعودُ الكثيرون لماضيهم قناعةً منهم أن تحوّلهم الجديد لا يمثل حقيقتهم وكأنما "كلٌّ خلِقَ لما هو ميسرٌ له".

العجّان نفسه لم يتقبل التغيُّرَ بعد إلقاءِ القبضِ عليهِ، لم يتب، لم يندم، لم يعتذر عمَّا اقترفته يداه، حتى قيلَ أنه في ليلةِ إعدامه بعد منحهِ الحق بالأمنية الأخيرة، طالبهم بزجاجةِ شيفاز ومكسرات وسيجار كيني، حاولوا ثنيهُ عن طلبِه وقد ذكَّروه بأنه مقبلٌ على الموت لا الحياة... نقَّلَ بصَره بين رجلِ الدين والطبيبِ مبتسمًا؛ فكلمَا أراد الكلامَ ضحك وجرعَ القليل من خمرته وعاود الكرَّة، حتى قال أخيرًا بعد محاولاتِ الكلامِ والسكوت العديدة مشيرًا باليد الحاملةِ للزجاجة:

- أنتما، أمَّا أحدُكم فطبيبٌ لن يحي العظام وهي رميم، وأمَّا الآخرُ فلن يقرر من سيدخلُ الجنةَ والنار، نحن متشابهون في عجزنا وحكمنا، لستم أرحمَ عليَّ مني من إلهٍ أنزلَ رحمةً على الأرض من أصلِ مئةٍ في السماء.

- يا رضا اتقِ الله.

- شربتُها آلاف المرات في حياتي، هل هذه فقط من ستُدخلني النار؟

أقسِمْ على أن هذه. *ورَفعَ الزجاجة*. مَن ستدخلني النار، وسأقذفُها للتو مقلعًا عن شربها للأبدِ، أقصدُ أبَدِي الذي حان. *تضاحكَ مبديًا أسنانه الصفراء*.

- الأعمال بخواتيمها، فاذكره، واستغفر، واتلُ القليلَ من كتابه، ثم قابله تائبًا.

- لو كان يُخدع بهذا لخدعته، لكنه تقدست أسماؤه يا أغبياء لا يُخدع مثلكم، يعلمُ بأنني لستُ نادمًا على أيِّ شيء، أنا لا أشعرُ بالندم، لو عادَ بي الزمن لعدتُ لِما كنتُ عليه... اصمتوا فقط وخلُّوا بيني وبينه، وجزاكم الله خيرًا على نصائحكم الدافئةِ هذه. *قال الجملةَ الأخيرةَ موقنًا بها*.

- غريبٌ هذا الرجل. *همسَ بها رجلُ الدين للطبيب بصوتٍ لا يكاد يسمع*.

- سمعتُك، أُذنُ رضا تستمعُ لدبيبِ النملِ الذي لن يفرِّق بين أجسادنا عند التهامنا كجيَفٍ منتفخة، بل أجزم أن مذاق جسدي ألذُّ من مذاقِ جسديكما سيما وقد شوهتهُ الأعينُ والظنون والأحكام المُسبقة، لستُ غريبًا، الغريب أن تطالبني بأن أكونكَ في اللحظةِ الأخيرة رغمَ أنك ستحتقرني في داخلِك مهما حييت.

شربَ حتى ثملَ بالكامل منتشيًّا وقد راح يغني الأطلال بصوته الخشن هازًا رأسَه وأكتافَهُ متمايلًا على إيقاعه الصوتي تحت دهشتهم، ثم تقدم نحو نهايتهِ بأقدامٍ ثابتةٍ إلا ما أثَّرت على استقامتها زجاجةُ الخمر لا الخوف قائلًا لمنْ حضره:

- كم عظيمٍ لُفَّ هذا الحبلُ حول رقبته! وكم جبانٍ نجا منه! سأموتُ ذئبًا بعد غزواتٍ وفتوحاتٍ قمتُ بعملِها، سيذكُرني التاريخ كأمكرِ من أنجبتهم الجريمةُ على الإطلاق. سعلَ كثيرًا ثم أردف: "ومن قتل نفسًا فكأنما قتل الناسَ جميعًا". رضا لم يقتل، رضا لم يرتكب إلا الكبائر، ولطالما تصدَّق على من يستحق، على كلِّ مَن يراهم الناس لا يستحقون الصدقة، سيذكرني التاريخ كآخر المجرمين المُنصفين، وها أنا أموتُ بطلًا واقفًا، فما ماتَ شريفٌ في فراشهِ قط.

- أعطني نظَّارتك. ***صاحَ بالطبيب***.

- نظارتي؟!

- بصري ضعيف، أريدُ أن أرى الملائكة جيدًا حين يحضرون لقبضِ روحي، اعطني إيَّاها، هيا.

ضحكَ حينها أحدُ رجالُ الأمن فأضحكَ الحاضرين، ردَّ أحدهم: "هذا ***(حطيئةُ)*** العصر على شكلِ مغتصبٍ لا شاعر". لكنه أمسك بها بيمينه دون أن يضعها على عينيه، "أمَّا الحطيئةُ فاجتمع إليهِ أصحابه وقد حضرته الوفاة طالبين منه أن يوصي، فقال: ويلٌ للشعرِ من راوية السوء.

-أوصِ يا حطيئة رحمك الله؟

- أوصيكم بأن تبلغوا قبيلةَ ***(غطفان)*** بأن ***(الشمَّاخ)*** هو أشعر العرب لقوله: "إذا أنبضَ الرامون عنها ترنَّمت... ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز".

- أوصِ بما ينفعك؟

- أوصيكم بأن تبلغوا أهل ***(ضابئ)*** أن شاعرَهم ***(ضابئ)*** هو أشعر العرب لقوله: "لِكَلّ جديد لذّة غير أنني... رأيت جديد الموت غير جديد".

- ويحك يا حطيئة أوصِ بما ينفعك في آخرتك.

-أوصيكم بأن تبلغوا أهل ***(أمرئ القيس)*** أنه أشعر العرب لقوله:

"فيا لك من ليل كأنّ نجومه... بكلّ مغار الفتل شُدَّت بيذبُلِ".

فضحك القوم من كلامهِ هذا رغم مشاهدةِ احتضاره، غيرَ أن أحدهم قال:

- اتّقِ الله ودع عنك هذا وأوصِ.

أوصيكم أن تبلغوا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب لأنه القائل:

"يغشون حتى ما تهرّ كلابهم... لا يسألون عن السواد المقبل".

- والله إن هذا لا يغني عنك شيئًا يا حطيئة فاتق الله وقل غير هذا ***قالها أحدهم بعد أن ملَّ من تصرُّفه.***

- الشعر صعب وطويل سلمّه... إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمُه زلّت به إلى الحضيض قدمه... يريد أن يعربه فيعجمه. ***قالهَا الحطيئةُ ملتفًا لصاحبه***

فحين رأوا ألّا فائدةَ من نصحهِ، وقد انْحَسَرَ الجدُّ من مجلسهم سأله أحدهم: من أشعر الناس يا أبا مليكة؟

- هذا الجحير إذا طمع في خير. *قالها مُشيرًا لفمه*.

- يا حطيئة بماذا توصي الفقراء؟

- أوصيهم بالإلحاح في المسألة فإنها تجارة لا تبور.

- وبماذا توصي اليتامى؟

- كلوا أموالهم وانكحوا أمهاتهم.

-هل تريد منّا شيئاً قبل انصرافنا؟

- نعم، تحملوني على بغلٍ وتتركوني راكبها حتى أموت، فإنّ الكريم لا يموت على فراشه، والبغل مركب لم يمت عليه كريم قط، فأحضروا له بغلاً وحملوه عليه، وجعلوا يذهبون به ويجيئون حتى مات، فكان آخر ما قاله قبل أن يلفظ أنفاسه: "لا أحدَ ألأمُ من حُطَيَّـه، هجا بنيه وهجا الُمرَيَّـه، من لؤمه مات على فُرِيَّه" .

ومات الحطيئة على حالته تلك وفوق بغلته؛ بينما أعدِم العجان فجرًا مخمورًا مطروبًا غيرَ نادمٍ على شيء، أمَّا آخر ما قالَه فقد نُقِلَ على لسانِ رجلِ الدين حيثُ حاكَ من نهايتهِ حكايةً وموعظةً عن سوء الخاتمة، فما إن يذكرَ قصَّته باكيًا حتى يُعرِّجَ كيفَ راح يتبجح بأعدادِ ضحاياه، وكمية الأموال التي حصلَ عليها وأنفقها بكرمِ ***(ابن جدعان)***.

قبلَ أن يلتف الحبل حول رقبته قال لهم: "أعرفُ رجلًا عربيًّا قاومَ جدُّه ***(النقَّاد)*** الإنجليزَ في بدايةِ الألفيةِ التاسعة وخاضَ غاراتٍ على معسكراتهم في كلِّ مكان، تفاوضوا للقائه وإبرامِ هدنةٍ معه، فلما قبِلَ بعد طولِ عناءٍ وقفَت كتيبةٌ بانتظارهِ أمام بيت الوسيط، فما إن ترجَّلَ عن فرسه حتى أدَّى الضابطُ المسؤول له التحيةَ العسكريةَ

رغم عداوته احترامًا لشجاعتهِ ووطنيته. حفيدهُ هذا استبدلَ اسمَ عائلتِه بعائلةٍ أخرى غيرَ آبهٍ بموقفِ ووطنيةِ واسمِ جدِّه.

سرقَ ابني الاسم لكنه لم يسرق التاريخ، وتجاهلَ الحفيدُ التاريخَ والاسم لكنه ظلَّ حفيده، فلا هذا استطاعَ الفخرَ زورًا، ولا لِحقَ العارُ ذاك، ولا زلتُ لا أدري حتى هذه اللحظةِ كيف يتخلى الرجلُ عن تاريخٍ يسعى له غيره باذلًا روحَه من أجل ذلك!؟

أعدِم بعدَها كيلا يصدقَ أحدٌ بعد الخلافِ الذي شجرَ بين طائفتين في جواز وحرمةِ الصلاة عليه أن الجنازة اكتظت بمئاتِ الباكينِ عليه، فقد تبعه الكثير من المتسولينَ، واللصوص، والمومسات، وأبناء السفاحِ الذين أكَّدوا بأنهُ من ساهمَ ماليًّا في معيشتهم، وتحصيلهم الدراسي مترحمين عليه آسفين لموته.

أمَّا أنا فلم أصدق كيفية اختفاء دن في متاهاتِ الهروب بعد ذلك؛ وقد طالبني بعد أن قصصتُ عليهِ قصةَ العجّان دون إخباره بأنه قد يكون من ذويهِ؛ أن يزورَ قبره، ممارسًا طقوسَه البوذية أمامَ شاهدٍ كتب عليه: "هنا يسكنُ أشقى أهلِ الأرض". رأى نفسهُ شقيًّا ككلِّ الأبرياء والمظلومين. لطالما تساءلت إن كان يرى نفسَه ضحيةً حقًّا ومظلومًا أم هي كلماتٌ هو قائلها؟ ثم كيفَ لمن ذاقَ مرَّ ضحيةٍ ما أن يتعاطفَ مع مَن جرَّع المرارات للكثيرين في حياتهِ الإجرامية؟

عامٌ مرَّ على اختفائهِ وكأن الأرضَ ابتلعته هو الآخر، لا أعلمُ إن تاهَ بشخصيةِ زوجته، أم بشخصيتهِ التي أحببتها! كلُّ ما أعرفه أنه استأذنني للذهابِ لدورةِ المياهِ في مقهىً ما، ولم يعد من حينِها.

أخبرني قبل رحيله بأنه من استبدل الحقنة السامة في يد سيلا لحقنةِ مضاد حيوي سريعًا ودون أن تنتبه، فقد حقنته بعد أن تلقت أوامر بقتلِ معروف بغضِّ النظر عن حقيقته، وقد احتار الموساد بشخصه

بعد التحقيق بموته والتأكد منه. بعد ذلك وضع لها دن السمَّ في شرابها فماتت في شقتها دون أن يعلم أحدٌ عنها، ودون أن تشيرَ الجريمة لأحد، لقد قتلها بسمها انتقامًا للمرضى الذين قتلتهم، ولم تستطع نفسه المتسامحة مسامحتها، لأننا لم نكن نعرف شيئًا خارج أسوار سجن المشفى فلم نعرف بينما عرفَ هو وصمت.

خطط للهروب بعد تيقنه أن قاتل زوجته ليس المريض الذي لاحقه للجزيرة، ففعل الكثير والكثير حتى أقنع مدير المشفى بالهروب بمبلغ ضخم فوافق على هذا ناهيك أنه أرادَ التخلص من الساحر الذي يسمل العيون إن غضب.

الرشوة حلٌّ للكثير من الأمور سيما في زمن الحرب، واختلال الموازين والروح الوطنية الحقيقية. بعد بحث المدير في الخارج عن مهرب لم يجد أبرع من ميمون الذي يمتهن هذا، فجاء به وكأنه أحد أفراد الأمن السنباري لإيهام الجميع بخطة الهرب السهلة التي أعدها من البداية ميمون. أمَّا إتقان ميمون للغة السنبارية فهذا بسببِ عمله في التهريب وحياتهِ على الجزيرة لمدد متفاوتة. ثم دُفع لميمون ليتفاجأ أن المريض الذي سيهربه لم يكن سوى سيف لكن وكما هو متوقع من مثله فقد تفوق حبَّه للمال على رابط الدم بالنهاية.
وبالنهاية التي تخصني فقد خلت أيامي من كلِّ أولئك الذين تعايشتُ معهم في الحقبةِ الأخيرة تدريجيًا، فرَّ من فر، وتاهَ من تاه، وماتَ من مات، ولا زلتُ بين منتصفيّ نفسي.

وها أنا الآن أجدني وقد جلستُ وحيدةً في مقهى الهروب الأخير لعلَّ دن يأتي، مُدركةً أن الغيابَ التهمةُ بالكامل، لن يأتي، الهاربون بلا سببٍ واضحٍ لا يعودون لمقاعدهم، قلتها بصوتٍ مسموعٍ كتنهيدة.

- سـأجلسُ مكانهم إذن طالما لن يعودوا. *قالتها حنان بعد أن وجدتها جالسةً أمامي وسط غيبوبتي التذكرية وقد نسيت أننا تواعدنا أن نلتقي هنا.*

- مرَّ وقتٌ طويل. *قلتها مبتسمة سعيدة برؤيتها.*

- كلُّ أوقاتنا طويلة.

- قهوة حلوة من فضلك. *تحدثت للنادل.* وأنتِ؟ *مشيرةً لحنان.*

- قهوة حلوة و(بوجه). لكن أرجو أن تضعَ أكبرَ قدرٍ من السكر عليها.

- ثم قم بتحريكها، ثم ضع ملعقتين من السكر، ثم قبل أن تسكبها في الفنجان. قاطعتُها بهذه الجزء.

- ضع ملعقتين من السكر، ثم ضع ملعقتين أخريين في الفنجان واسكب القهوةَ عليهما.

- ولا يضيرها لو وضعت بجانب الفنجان القليل من السكر. *قلتها وضحكنا سويًا.*

غادر النادلُ مذهولًا من مجنونتين ضحكتا بعد هذه الجُمل المحفوظةِ عن ظهرِ قلب والتي قيلت بجديةٍ سريعة.

- قرأتُ كلَّ شيء، أشكرك على مساعدته. *قالتها بنبرةٍ دافئة.*

- لا أستحق شكرك، فعلتُ ما فعلت مِن أجل المال.

- المالُ كان أحد الأسبابِ لمساعدته فلا تظلمي نفسك.

لم أجد ما أقوله فساد الصمتُ قبل أن يقدِّم لنا النادل القهوة.

- لم يكن من عشَّاقِها. *قلتُها لكسرِ الصمت قاصدة القهوة.*

- هذا صحيح.

- هل ستحدثينني عنه؟

- يبدو أنني بحاجةٍ للحديث عنه، ويبدو أن روايتك بحاجةٍ لهذا الحديث الأخير كي تكتمل. من حقكِ أن تكتمل. أخَذَت حنان نفسًا عميقًا ثم تابعت: امتلَكَ أساريرَ وجهٍ لطالمَا أشرقت عندَ إحساسهِ بالخجل محاولًا إثبات العكس. *راحت مستذكرةً الماضي بوجهٍ رقيق حزين.* امتلكَ صوتًا هادئًا خشنًا في أعتى لحظات الغضب، امتلك نبرةً جهورية صادقة عند قولهِ الشعر، امتلك عينينِ ناعستين بلمعةِ الرغبةِ كانتا السر دومًا بانجذابي نحوه... تفاجأتُ به جالسًا في محاضرتي واضعًا يديهِ كطفل نجيب على الطاولةِ بين الطلاب، وعلى وقعِ همساتِهم وضحكاتهم الخافتة وقفتُ بوجهٍ غرقَ بالذهولِ والخجلِ غير متصورة كيفية تسللهِ لهذه المحاضرة، فارضًا نفسه عليَّ بهذه الطريقة الوقحة.

قال بجدية مصطنعة: "أمي تبلغُك سلامَها واحترامها لك، طالبةً منك قبولي بين هؤلاء الطلاب كي أصبحَ ذكيا ونجيبًا ماحيًا عن قلبي أميته وجهله مُتعلِمًا - إن قبلتِ-للغة جديدة".

استطاع إقناع أمنِ الجامعةِ، والإدارةِ، والموظفين بالسماح له أن ينتظرني بمدرجِ الجامعة، ذهب يطاردني بعدها في أرجاء الجامعةِ رغم هروبي منه، وكلما دخلت مكانًا طالبةً النجدة وجدت من في المكان يطالبني أن أستمع إليه، وأن أمنحه فرصة. توَّعدتُ الجميعَ أثناء فراري منه أن أشكوهم لوالدي بينما راحَ بدوره يسبقني حينا، ويحاذيني حينا، ويتخلف عني أحيانا أخرى، مرددًا الجمل نفسها: لماذا أنت غاضبة؟ أريد دقيقة من وقتك فقط، أرجوك دقيقة وبعدها افعلي ما شئت، وفي اللحظة التي أردتُ تدويرَ محرك السيارة والانطلاق مغادرة سحب مفاتيح سيارتي، ثم نظر إليَّ مرتسمًا

الغضب على قسماتِ وجهه، شعرت ببعض الخوف لكنني صرختُ به: "أعطني المفاتيح" محاولةً خطفَ المفاتيحِ من يديه.

- استمعي لحديثي ثم خذي قلبي لا مفاتيح خردتكِ هذه.

- لا أريد أن أستمع، أنا لا أعرفك.

- بل تعرفين من أكون.

- لا أريد أن أعرفك، أسترغمني على معرفتك؟

- لا يجوز، الفتاة يجب أن تتعرف على شخصية الرجل الذي سيصبح زوجها، نظرتُ مستغربة ضاحكةً لسذاجته:

- زوجها؟

- نعم، أنت ستصبحين زوجتي.

- آه، لقد قررتَ إذن!!

- أنتظر توقيعك على القرار فقط.

- هات المفاتيح. ***وحاولتُ خطفَ المفاتيح من يديه مرة أخرى.***

- وافقي أولًا.

- على ماذا؟

- على الزواج بي، أمي تنتظر موافقتك، أم أنك تريدين أن تبدأ المشاكل بينك وبين حماتك مبكرًا؟

- حماتي؟

- ألا تعلمين أن والدةَ الزوج تسمى حماة؟!

-أنت مجنون.

- بكِ.

- أنتَ. *وتعثرت خطوات الحروف على لساني.* أنتَ غريب.

- مذ دخلتِ قلبي.

لا أعلم لماذا أجهشتُ في البكاء حينها، وما هو السبب الحقيقي وراء تلك الدمعات؟. لكن الأمر الوحيد الذي كنتُ على يقين منه أن هذا الشاب دخل من البوابة العريضة لقلبي، مقفلًا خلفه الباب بأقفال محكمة... سمحتُ له أن يجلسَ بجانبي في السيارة ويحدثني عن حياتنا المستقبلية وعن البيت والأولاد وعن طبع حماتي الحاد وطيبتها في آنٍ واحد، وكيفية التعامل معها.

- ألم تشاهديه من قبل؟ *سألتُ حنانَ متعجّبةً من حديثها.* سيما أنه أخبرني بقصةٍ أخرى عن لقائكما.

بعد صمتٍ وتردد ليس بالقصير؛ وبعد تنهيدةٍ غريبة خجلة قالت حنان بصوتها الرقيق: أصلان قابل اختي التوأم لا أنا بدايةً.
- أختك؟

- نعم، لقد شاهدها في أمسية شعرية وتتبعَ أخبارها فقادته الأخبار والصدفة لي لا لها معتقدًا أنني ضالته.

- كنت على درايةٍ بهذا اللبس؟

- عرفته بعد لقائنا الثاني وصمتُّ عنه.

- لم يخبرني أن لك توأمًا يشبهك.

- لأنه لا يعلم .. ولا يعلم أيضًا أنني واختي لم نكن إلا أبناء الجنائني في ذاك القصر الذي جاء إليه خاطبًا.

- كيف هذا؟ *قلتها منصعقةً مما أسمع.*

- هو ذاته لم يصدق بدايةً بأنني ابنةُ أحد الأثرياء، لكنه أقتنع بعد ذلك؛ وراحِ يكذبُ مدَّعيًا ما لا يملك، علمتُ هذا منذ اللقاء الأولِ بيننا، لم أُظهِر له بأنني لا أصدقه... انخدعتُ له مظهرةً أنني أصدق كلَّ ما يقوله؛ جاء بعدها لخطبتي من سيد القصر. ذاك السيد الذي اشترانا من والديَّ يومًا بمالٍ بخس وألحقنا بنسبه لسنوات؛ حتى إذا حملت زوجته بأولادٍ من صلبهِ وقد صار ثريًّا أعادنا لأبوينا؛ ثم ولرأفةٍ ما بحالنا طلبَ من والدنا أن يعمل في قصره، وأن يتكفل بنا حتى زواجنا.

حملنا اسمه لا دماءه، ورضينا أن نكونَ خدمًا له ولعائلته بعدها؛ مُذكِّرًا إيانا وعائلته أننا لقطاء من شكلٍ آخر وظيفتهم الخدمة وتقبل الإهانات حتى موتهم. كرهتهم جميعًا وتمنيت لو باستطاعتي الانتقام منهم؛ لكنني كنت أضعف من أن أحقق حلمي؛ سيما أنني كنت أنتمي لعائلةٍ قبلت أن تبيعَ طفلتين من أجل دراهم معدودة. أما أصلان فقد ظل ناسجًا جملةً من الأكاذيبِ التي حفظَها عن ظهرِ قلبٍ لكثرةِ ما رددها على مسامعي، جاء والرفضُ صوبَ عينيه فراحَ يتحدث بثقة، لا ثقة الواثق، بل ثقة المرفوض، ولم يك يعلم أنها مسرحية أخيرة من عائلتنا الوهمية للخلاصِ من أحد التوأمين. لجأتُ قبل زواجنا لصديقٍ قديم وهو سمير كي يساعدني بايجادِ وظيفةٍ له بدخلٍ جيد كي لا يُكشفَ أمره أمامي فيشعر بالحرج. أمَّا طقم الماسِ المقلد فقد أتلفتهُ فور إعطائي إياه محضرةً من مالي طقمًا حقيقيًا منتظرةً لعشرينَ عامًا على الأقل؛ أن يأتي بطقمٍ آخرٍ حقيقي مُستبدلًا إياه بين الحين والآخر، ظنًّا منه أني لا أَعرفُ حقيقة الأمر، بيد أن الحقيقة التي لم يكن يعلُمها هي أن الطقمين كانا حقيقين ولا وجودَ لمقلَّدٍ بينهما.

- ومشاجرة الزفاف؟

- كنَّا الأثنين بحاجة لها سيما أنها تنهي فصل مسرحية العائلة من حياتنا والتي لا يريد أحدنا الرجوع إليها. بالطبع حساباتنا مختلفة لكنَّ هدفنا كان واحدًا.*ضحِكت مرتشفةً بعد ذلك قهوتها*.

- ألم يقابل توأمك؟

- لو قابلها لعرف كلَّ شيء؛ لكن القدر لم يشأ هذا ببساطة، كنت أنتظر أن يعرف حقيقتي وأحدثه عن عائلتي الحقيقية وعن أختي، لكنَّ هذا لم يحدث رغم أن توأمي عاشت في الوطن وتزوجت وأنجبت فيه؛ ولم تغادره يومًا.

- غريب حقًّا؛ هل أحببته كمَّا أحبك؟

- أحببتهُ بالقدر الذي جعلَني أغفرُ كلَّ شيءٍ حتى خيانتَه لي، علمتُ بعدَها أنه على علاقةٍ بممرضةٍ أوجَعتهُ بعد ذلك بالزواج من صديقه. في العزاءِ احتَضَنَتهُ فدفعَها عنه غاضبًا، فتأكَّدتُ من تلك الوشوشاتِ الواشيةِ به عندي تمامًا. ***{شيءٌ ما بملامح ريم يحيِّرني، لا أعرفُ ما هو!}***. غيرَ أنه دخلَ بحالةٍ غريبة فنأى عن الناسِ جميعهم، دخل بوحدانيةٍ، وعزلةٍ إثرَ ليلةٍ عاد في صباحها كرجلٍ آخر، هجرَ كتاباتِهِ، ودعواتِهِ، وامتهنَ الجلوسَ غارقًا في أفكارٍ لا يعلمُها سواهُ في حديقةِ المنزلِ، أو غرفتهِ الخاصة، رفضَ أن يقابلَ أصدقاءه أو عائلته ***{نظراتها غريبة، نظراتُ ريم غريبة بعض الشيء}*** حتى أنَّه رفضَ يومًا استقبالَ والدته قائلًا لي: "لا تستحق هذه المرأةُ العظيمة أن يكونَ سافلٌ مثلي ابنًا لها". تفاقَمت حالتُه حتى انتقل للفراشِ ليكونَ طريحَه لشهورٍ عديدة، وبعد محاولاتٍ وضغوطٍ من أصدقائهِ قَبِلَ المشاركة بأمسيةٍ في ميونخ، غيرَ أنه التقى هناكَ بشخصٍ مجهولٍ في كواليس المسرحِ؛ فبدلَ أن يلقي قصائدَه على الجمهور، قامَ الآخرُ بدورِه وسط دهشةِ الحضور حينها، خرجَ بعدها مسرعًا باحثًا عن شيءٍ ما، غابَ شهرًا قبل أن

يعودَ للفندقِ جالسًا في قاعةِ الانتظار، في تلكَ الأثناء دخل بالوهمِ تمامًا متخيلًا أن ذاك الشخص الذي رافقه هو صاحبه سمير الميت، وقد أخبرني بعد عودته بأنه بحثَ عنه كثيرًا فلمَّا وجده فجأةً في الفندقِ وجدَه وقد ظنَّ نفسهَ رجلًا آخرَ، أي أنَّ سميرًا الميت عادَ مختلفًا عمَّا يعرفه، وهذا لأنه أراد لهذا الرجل أن يكون سميرًا عبر أوهامهِ الداخلية. لم يتقبل أن يموتَ صديقُه مسمومًا سيما وقد عرف قاتلَه وصمت عنه، لذا فقد عامل الرجل المجهول كسمير، حدثه كسمير، وصادقه كسمير، ثم لم يعد يقتنع على ما يبدو وتحت تأثير شعوره بالذنب إلا بشيءٍ أعمق من هذا وهو أن يتقمص شخصيةَ رجلٍ سواه، فلم يجد أفضل من المجهول ليتقمصَ شخصيته، فتحولَّ هذا المجهول الذي كان سميرًا بنظره إليهِ شخصيًّا.

الرجل الآخرُ أو المجهول الذي يُدعى سيف العجّان أو معروف النقاد عاشَ معه هنا، في الوطنِ، لفترةٍ وجيزة، فراح يتحدثُ في بعضِ الأحيان عن قصصٍ لم تحدث معه يومًا، وعن أشخاصٍ لا وجودَ لهم في حياته، لكننا لم نكن نعرف حقيقةً سرَّ تحولِّه هذا.

تصرفاته، حديثه، طباعه آلَت للتغيرِ تدريجيًا دون مبررٍ منطقيٍّ لهذا، ثم تعافى من هذه الحالةِ ليسافرَ للهند بعد دعوتهِ إليها، لحقه الشخص المجهول هذا دون أن نعرف.

التقيا مع صديقةٍ له وهي مَن حدثتني بهذه الأحداث بعد أن جلسا معها قبلَ أن يستأذنهما خارجًا من المقهى باحثًا عن شيءٍ ما، لعلَّه بحثَ عن نفسهِ: "قبل أن يغادر وقفَ شخصٌ خلفَه على مسافةٍ قريبة؛ ناظرًا باتجاهه وقد أولاه ظهرَه، قبل أن يلاحقَ هذا الشخصُ لصًا خطفَ حقيبةَ إحداهن هاربًا بسرعة". لم يعد للمقهى ثم قابل سيفًا لائمًا إيَّاه على غيابه غير المبرر، قبل أن يتصل بالشاعرة صديقتهِ التي تحدث إليها كأنه لم يلتقِ بها منذ زمن، رغم أنه كان

قد تركها للتو، سبب هذا أنه فقد إحساسه بالزمن أو الوقتِ تمامًا لأنه رفض الواقع وأراد دومًا الرجوع للماضي، أو الحياة بشخصية أخرى غير شخصيته. فعلِمت حين قالت لي هذا بأنه عاد لتلك الحالةِ التي شُفي منها قريبًا أو التي ظننا أنه شفيَ منها مخطئين.

عادَ بعد أيامٍ من وصولهِ من الهندِ لحياتهِ الطبيعيةِ حاملًا حزنًا ما لم أستطع الوصول لحقيقته؛ رغم محاولاتي الحاثَّةِ له على الحديثِ والإدلاءِ بما يحملهُ، أخفى شيئًا موجعًا عن الجميعِ بيدَ أنه تصرَّف بطبيعته لأعوام أنستنا تلك الحالة التي مرَّ بها.

ثم سافر إلى بنغازي واختفى... ثلاث سنوات وهو في عدادِ الأموات، حتى جاءني ذاك الاتصال من رجال الشرطة قبل الإعلام الذي تلقَّف هذا الخبر. ***{تفاعلُ ريم مع حديثي تفاعلٌ يوجِسُني، شيءٌ ما فيها ينبئني بمخاوفَ ومتاهات لا أعلمها}***. لكنني ما إن رأيتكِ وتوجهت لغرفته في مشفى الوطن حتى رحتُ متفحِصةً جسده وملامحه الضائعة احترتُ فعلًا إن كان هو أو آخر، لقد انتظرتُ حتى أفاقَ من غيبوبته، نظرَ إلي، ابتسم وعانقني، لم أستطع الممانعة رغمَ أنني لم أتأكد من هويته.

- خفتُ أن أموتَ دونَ أن أراكِ... ***قالها أصلان لي بعذوبةٍ بالغة***.

- هل أنتَ أصلان؟ **أمسكتُ وجهه متأملةً هيئته الجديدة**.

- أنا هو، لقد شوهتني الحرب.

- قل لي شيئًا لا يعرفه سوانا.

- لا أتذكر. قالها بعد صمتٍ طويل.

- أرجوك، قل شيئًا لأعرف أنك لست سواك.

- أنا أصلان يا حنان وأنت زوجتي وحبيبتي.

- قل شيئًا، أرجوك. *قلتها باكية بحرقة*.

صمت طويلًا، ثم قال: من الجميل أن هذه الساعة متوقفة أيضًا، لعلَّ ريم من أوقفتها كي لا أرى مسيرها حينما أستيقظ، يبدو أنها تمنَّت ألَّا أموت هنا أيضًا وتوقعت لي استرداد انفاسي المتعبة. *وراح يشير نحو ساعةِ الحائط المتوقفة*.

- أصلان، إن كنتَ أصلان حقًا فقل لي أين التقينا وما حدثَ حينها بالتفصيل، لقد فتشت في جسدك فلم أرَ أثرًا لرصاصةِ كتفك ولا آثارًا لعملية الزائدة في خاصرتك، أرجوك أن تتحدث.

- لا أتذكر، عقلي متعبٌ من كلِّ شيء. *قالها بعد محاولاتٍ جاهدة*.

لم أصدِّقه يا ريم. ***{قلتها رغم الهواجسِ التي راحت تحاصرني كلما ذكرتُ اسمها وحدَّقتُ في عينيها لكنني تابعت حديثي}***. ظننتهُ رجلًا آخرَ، طلبَ مني حينها أن أستدعيكِ فلم أفعل، طلبَ أن نجري له الفحوصات التي تؤكد هويته.

- وجميعها أكَّدت بأنه آخر. *قلتُ هذا رافعةً كتفي إقرارا مني بالعجب مما حدث رغم أن نظرات حنان لي بدأن تأخذُ شكلًا غريبا*.

- نعم، جميعها صبَّت بأن هذا الرجل ليس أصلان فغادرنا المشفى تاركينَ إيَّاه على سريرهِ بينما راحَ غاضبًا ضاحكًا ناعتًا إيَّانا بالأغبياء. صاح بنا إذ رحلنا: "أنا محاط بالأغبياء، طوال سنوات عمري وأنا لا أعرف ولم ألتقِ ولم أنجب ولم أصادق إلا الأغبياء". لقد صدَّقتُ الفحوصات وكذَّبته، صدَّقتُ العلمَ المتطور، صدقت التحاليل والتشخيصات الحديثة وكذَّبته صدَّقتُ ما قاله الأطباء بأنه آخر وكذّبت من كانَ علي تصديقه. *قالتها دامعةً حزينة ثم بعد أن استسلمت للدموع الحارقات قبل أن تتمالك أعصابها مجددًا*. حتى أصرَّت والدتُه وقد ناهزت المئة وعشرة أعوام على زيارة هذا الآخر... جَلسَت أولًا

بجانبهِ لاهثةً مهللةً محوقلة لترتاحَ من عناء الوصول مشيًا لغرفته، جلست بعد أن أراحت جسدها الثقيل من عناء المسير المنهك، كان نائمًا حينها مُستغرقًا في مُخدِّراتِ الأدوية والعقاقيرِ المعالجة، وقفت بصعوبةٍ بعدها رافضةً أن ترتدي نظارتها رغمَ ضعفِ بصرِها متحسسةً ملامحَ وجهه.

استيقظَ حينما بكت صائحةً: إنَّه ابني.

- يا جدتي هذا ليس ابنك. *قالها جودت حزينًا*.

- هو ابني، هذا صغيري.

نظرَ إليها مُقبِّلًا يديها قائلًا: لا زلتِ جميلةً أيتها الحسناء.

نظرَ نحو الساعة التي راحت تتحرك برشاقةٍ يصاحبها إيقاعُ نبضهما كجوقةٍ متناسقة العزف دون أن يعرفَ الناظرُ والسامعُ من منهما المايسترو لها ... حاولنَا إبعادَها عنه، وإقناعَها بأنه ليس هو، غيرَ أنهما غضبًا منَّا ناعتينِ إيانا بالحمقى... طلبَ إليها الطبيبُ أن يتحدث إليها بعيدًا عنه بيد أنها رفضت.

- قل ما تشاء أمامه.

- الفحوصات لا تقول بقولك، جميعها تدل على أنه رجلٌ آخر.

- لن أكذِّبَ قلبي وأصدِّقَ فحوصاتكم الغبية.

احتضنَها، احتضنَ قلبَها، ثم بعد ذلك بدقائقَ مات بهدوء... عانقها بعد أن وشوشها بقصيدةٍ قديمة ومات.

- ثم جاءَ طبيبٌ شاب وأعادَ الفحوصات مجددًا. *قلتُها وسطَ نظراتِ اتهامٍ وانعدامِ راحةٍ راحت توجهها إليّ عينا حنان دون أن أعرفَ سببها*.

- نعم، ثم جاء طبيبٌ مجتهد ليشرِّحَ جثته مُكتشفًا بعد أن سحب العينة من خصيته تحديدًا أنه يحمل في جسده حمضين أنويين لا واحدًا، وهذه حالة نادرة ومتطورة جدًا تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ الحالة القديمة التي تعرفُ علميًا **(بالكاميريا)** المتعلقة بالحمض النووي (DNA)... يحدث هذا جراء وجودِ طفلين في رحم الأم فيمتص أحدهما الآخر فيتلاشى بالكامل بينما يحيا الآخر بحمضيين أنويين... أما العقارات والأدوية التي تناولها أصلان في مشفى الجزيرة السنبارية فقد حوَّلت الخلايا النائمة في الحمض الآخر لخلايا نشطةٍ أعادت تنشيطَ نفسها ونموها البطيء شبه المنعدم خلال فترة وجوده تلك في السجن أو المشفى. الصمت والعقاقيرُ، وتقمصُ روحهِ وذاتهِ لشخصٍ آخر أقنعَ تلك الخلايا بهذا فتقبلت بعضها التطور غير المنطقي الذي طرأ عليها؛ ليصبح من الصعب فصل الحمضين بسهولة واكتشاف حقيقة هذا الشخص.

ولعلَّ الخلايا هذه مَن ساعدته لينفصل أحيانا ويتلبس شخصية سيف ويتقمصه أثناء الحديث مُستندًا على ما سمعه وتخيله مُسبقًا؛ سيما حينما كان يكرر في نفسه ما كرره سيف أمامه عندما اقتربا من بعضهما البعض ؛ طاردًا شخصيته الحقيقية بالكامل أثناء ذلك.

- لقد سُجنَ كمعروفٍ، وعرفتهُ كأصلان، ثم تحوَّلَ لسيفٍ، ثم عاد ومات كأصلان أخيرًا. لطالما حاولَ إقناعَ قلمه بأنه أصلان لا معروف. وبالتالي فقد كان أصلان ذاته إن تحدثَ عبرَ القلم، ينازعُه على هذا الشخص الآخر الذي تقمَّصه، وكان سيفًا بعد حقنةِ سيلا وخوفه.. فالخوف من كان يهزمه عقليًّا من داخله ليتقمص الآخر. لقد أنَّب نفسَه بشدة بعد مساعدة سيلا على الهروب قديما فتقمصَ دورَ سمير أولًا ثم سيف الذي التقى به في ميونخ، ونيودلهي، وبنغازي مُتقبِّلا أن يكونَ مُجرمًا مثله لا شاعرًا، فلم يستطع

الخروج من تلك الشخصية ناهيكِ عن متاعب العمر، والحربِ، والسجن، والمرض.

لقد قاومَ كلَّ هذه الأشياء، ومع ذلك فلم يتعرَّف على حقيقته إلَّا أمه. أمَّا المعجبةُ، والحبيبةُ، والزوجةُ فقد تُهنَ في شخصه بينما لم تخطئِ الأم بذلك رغم شيخوختها وضعفها وقصرِ بصرها، تلك الأم التي عاد معها الوقت للاحتساب بعد توقفه لثلاثة أعوام في ذهنه وإدراكه.

في السادسة صباحًا وفي ٣١ أكتوبر من عام ٢٠٦٦م مات الشاعر ***(أصلان باكير)*** وقد صادف يوم ولادتهِ يوم مماته، ليوضعَ في ثلاجة الموتى ليومين قبل أن يدُفنَ ضمن وصيته في ***(فسقيةٍ)*** أعدَّها رافضًا التراب.

- ما رأيكِ أن أختتمَ روايتي بهذه الجملة؟ ***سألت حنان هذا السؤال باقتضاب.***

- هي النهايةُ على ما أظن، ما هو عنوانها؟

- لست أنا.

- لستُ أنا؟

- نعم، ألا يروق لك هذا العنوان؟

- لا أعرف حقيقةً. ***صمتت قليلًا ثم تشجَّعت.*** لا أعرفُ لكنني مذ جلستُ أمامكِ وأنا أتساءلُ بيني وبيني عن أشياءَ غريبةٍ تسيطرُ على صوتِك وعينيكِ وملامحكِ وطريقةِ نظراتكِ وانفعالاتك. ***قالتها على حياء.***

- لعلَّها آثارُ حزني عليه حقيقة، أنا متأثرةٌ بكلِّ ما جرى له.

- ريم، لقد سقطَت رموشُ عينك اليمنى على الطاولة، إنها بجانبِ الفنجان. ***وأشارت إليها مستغربة.***

نظرتُ للطاولةِ فوجدتُ رموشًا مستعارة قد سقطت فعلا، لتقفَ حنان فجأةً متفاجئةَ وجِلةً مني، تقدَّمَت مني، راحت تدور محدِّقةً بي قبل أن تنزعَ عن رأسي شعرًا مُستعارًا لا أدري من وضعَه على رأسي ***{ أو لعلي أنا من وضَعَه}.***

- من أنتِ، أو مَن أنتَ؟

سقطت الرموشُ عن العينِ الأخرى، نظرتُ إلى نافذةٍ قريبةٍ عكَست وجهًا لا يشبهُ وجهي، سقطَ نهداي من صدري على فخذي ***{ أو تراني أنا من أسقطَهما}***. وقفتُ أمامَ النافذةِ، وقفتُ أمام عينيّ حنان.. لستُ ريم التي أعرفها، لستُ أنا، هذه أو هذا ليس أنا، من أنا؟ تساءلتُ باكيًّا؟ حدَّقتُ جيدًا بالنافذةِ، أسرعتُ لمرآةٍ في منتصفِ المقهى، من أنا؟**!** وقفتُ أتحسسُ ملامحي، أعرفُ هذا الوجه، رأيتهُ يومَ قتلوا زوجتي أمام عيني وأسقطوها قتيلةً على رصيفِ المطار، رأيته يومَ أطبقَت يداي على عنقِ أحدِهم قبل سنة، رأيته يومَ وقفتُ أمام قبرِ العجّان شاعرًا بمغناطيسيةٍ أمامه، رأيتهُ حينما تقصَّيت عن دمائي من المأوى القديم ومِن أين نبَعَت لأكتشفَ أن العجّان أخي وخالي، رأيتهُ حينما رأيتُه في عيني ميمون الذي صُعقِ من حقيقتي ثم ضحكَ شاتمًا كلَّ شيءٍ إلا أصلي الطيب.

رأيتهُ حين جئتُ راكضًا لإخبار ريم بهذه الحقيقة التي كانت تعرفها لأراها وقد طارت في الهواء بعد أن تعرَّضت لحادثِ سيرٍ مروِّع.

ماتت مبتسمةً بعد أن أمسكتُ يديها باكيًّا، لكنها لم تمت، كنتُها فرحتُ أنتظرني، لم تذهب فقد ولجَت إليَّ فور موتها فرحتُ أرتقبُ عودتي... المرآةُ، نظراتُ حنان تعيدُ لي شيئًا مني، وتسقطُ أمامي الرموشُ والشعرُ المستعار، وتذوب المساحيقُ مِن على وجهي لأكتشفَ بأني أنا، لستُ أنا، لست أنا... لستُ أنا مرةً أخرى.

(تمت بحمد الله)